

سَيِّدُ قَطِيبٍ

خَصَائِصُ
التَّصَوُّرِ
الْإِسْلَامِيِّ
وَمَقُومَاتِهِ

دار الشروق —

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَلِمَة فِي الْمَنْهَج

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ »

تحديد « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته »^(١) . . . مسألة ضرورية ،
لأسباب كثيرة :

ضرورية لأنه لا بد للمسلم من تفسير شامل للوجود ، ، يتعامل على أساسه مع
هذا الوجود . . لا بد من تفسير يقرب لإدراكه طبيعة الحقائق الكبرى التي يتعامل
معه ، وطبيعة العلاقات والارتباطات بين هذه الحقائق : حقيقة الألوهية . وحقيقة
العبودية (وهذه تشتمل على حقيقة الكون . وحقيقة الحياة . وحقيقة الإنسان) . .
وما بينها جميعاً من تعامل وارتباط .

وضرورية لأنه لا بد للمسلم من معرفة حقيقة مركز الإنسان في هذا الوجود
الكوني ، وغاية وجوده الإنساني . . فمن هذه المعرفة يتبين دور « الإنسان » في
« الكون » وحدود اختصاصاته كذلك . وحدود علاقته بخالقه وخالق هذا الكون
جميعاً .

وضرورية لأنه بناء على ذلك التفسير الشامل ، وعلى معرفة حقيقة مركز الإنسان
في الوجود الكوني وغاية وجوده الإنساني ، يتحدد منهج حياته ، ونوع النظام الذي
يحقق هذا المنهج . فنوع النظام الذي يحكم الحياة الإنسانية رهين بذلك التفسير
الشامل ، ولا بد أن ينبثق منه انبثاقاً ذاتياً وإلا كان نظاماً مفتعلاً ، قريب

(١) هذا البحث هو الذي سبق الوعد بإخراجه تحت عنوان : « فكرة الإسلام عن الله والكون والحياة
والإنسان » .

الجدور ، سريع الذبول . والفترة التي يقدر له فيها البقاء ، هي فترة شفاء «للإنسان» ، كما أنها فترة صدام بين هذا النظام وبين الفطرة البشرية ، وحاجات «الإنسان» الحقيقية ! الأمر الذي ينطبق اليوم على جميع الأنظمة في الأرض كلها - بلا استثناء - وبخاصة في الأمم التي تسمى «متقدمة»^(١) !

وضرورية لأن هذا الدين جاء لينشئ أمة ذات طابع خاص متميز متفرد . وهي في الوقت ذاته أمة جاءت لقيادة البشرية ، وتحقيق منهج الله في الأرض ، وإنقاذ البشرية مما كانت تعانيه من القيادات الضالة ، والمناهج الضالة ، والتصورات الضالة - وهو ما تعاني اليوم مثله مع اختلاف في الصور والأشكال - وإدراك المسلم لطبيعة التصور الإسلامي ، وخصائصه ومقاومته ، هو الذي يكفل له أن يكون عنصراً صالحاً في بناء هذه الأمة ، ذات الطابع الخاص المتفرد المتميز ، وعنصراً قادراً على القيادة والإنقاذ . فالتصور الاعتقادي هو أداة التوجيه الكبرى ، إلى جانب النظام الواقعي الذي ينبثق منه ، ويقوم على أساسه ، ويتناول النشاط الفردي كله ، والنشاط الجماعي كله ، في شتى حقول النشاط الإنساني .



ولقد كان القرآن الكريم قد قدم للناس هذا التفسير الشامل ، في الصورة الكاملة ، التي تقابل كل عناصر الكينونة الإنسانية ، وتلبي كل جوانبها ، وتتعامل مع كل مقوماتها . . . تتعامل مع «الحس» و«الفكر» و«البديهة» و«البصيرة» . . . ومع سائر عناصر الإدراك البشري ، والكينونة البشرية بوجه عام - كما تتعامل مع الواقع المادي للإنسان ، هذا الواقع الذي ينشئه وضعه الكوني - في الأسلوب الذي يخاطب ، ويوحى ، ويوجه كل عناصر هذه الكينونة متجمعة ، في تناسق ، هو تناسق الفطرة كما خرجت من يد بارئها مبيحانه !

وبهذا التصور المستمد مباشرة من القرآن ، تكيفت الجماعة المسلمة الأولى . تكيفت ذلك التكيف الفريد . وتسلمت قيادة البشرية ، وقادتها تلك القيادة الفريدة ، التي لم تعرف لها البشرية - من قبل ولا من بعد - نظيراً . وحقق في حياة

(١) راجع كتاب «الإنسان ذلك المجهول» تأليف دكتور ألكسيس كاريل ، وكتاب : «الإسلام ومشكلات الحضارة» لصاحب هذا البحث .

البشرية - سواء في عالم الضمير والشعور ، أو في عالم الحركة والواقع - ذلك النموذج الفذ الذي لم يعهده التاريخ . وكان القرآن هو المرجع الأول لتلك الجماعة . فمنه انبثقت هي ذاتها . . . وكانت أعجب ظاهرة في تاريخ الحياة البشرية : ظاهرة انبثاق أمة من خلال نصوص كتاب ! وبه عاشت . وعليه اعتمدت في الدرجة الأولى . باعتبار أن « السنة » ليست شيئاً آخر سوى الثمرة الكاملة النموذجية للتوجيه القرآني . كما لخصتها عائشة - رضى الله عنها - وهي تُسأل عن خلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتجيب تلك الإجابة الجامعة الصادقة العميقة : « كان خلقه القرآن » . (أخرجه النسائي)



ولكن الناس بعدوا عن القرآن ، وعن أسلوبه الخاص ، وعن الحياة في ظلاله ، وعن ملابسة الأحداث والمقومات التي يشابه جوها الجو الذي تنزل فيه القرآن . . . وملابسة هذه الأحداث والمقومات ، وتَشَبُّهُ جوها الراقعي ، هو وحده الذي يجعل هذا القرآن مُدْرِكاً وموحياً كذلك . فالقرآن لا يدركه حق إدراكه من يعيش خالي البال من مكابدة الجهد والجهاد لاستئناف حياة إسلامية حقيقية ، ومن معاناة هذا الأمر العسير الشاق ، وجرائره وتضحياته وآلامه ، ومعاناة المشاعر المختلفة التي تصاحب تلك المكابدة في عالم الواقع ، في مواجهة الجاهلية في أي زمان !

إن المسألة - في إدراك مدلولات هذا القرآن وإحياءاته - ليست هي فهم ألفاظه وعباراته ، ليست هي « تفسير » القرآن - كما اعتدنا أن نقول ! المسألة ليست هذه . إنما هي استعداد النفس برصيد من المشاعر والمدركات والتجارب ، تشابه المشاعر والمدركات والتجارب التي صاحبت نزوله ، وصاحبت حياة الجماعة المسلمة وهي تتلقاه في خضم المعترك . . . معترك الجهاد . . . جهاد النفس وجهاد الناس . جهاد الشهوات وجهاد الأعداء . والبذل والتضحية . والخوف والرجاء . والضعف والقوة . والعثرة والنهوض . . . جو مكة ، والدعوة الناشئة ، والقلّة والضعف ، والغربة بين الناس . . . جو الشعب والحصار ، والجوع والخوف ، والاضطهاد والمطاردة ، والانقطاع إلا عن الله . . . ثم جو المدينة : جو النشأة الأولى للمجتمع

المسلم ، بين الكيد والنفاق ، والتنظيم والكفاح . . جو « بدر » و « أحد »
و« الخندق » و « الحديبية » . وجو « الفتح » ، و « حنين » و « تبوك » . . وجو نشأة
الامة المسلمة ونشأة نظامها الاجتماعى والاحتكاك الحى بين المشاعر والمصالح والمبادئ
فى ثنايا النشأة وفى خلال التنظيم .

فى هذا الجو الذى تنزلت فيه آيات القرآن حية نابضة واقعية . . كان للكلمات
وللعبارات دلالاتها وإيحاءاتها . . وفى مثل هذا الجو الذى يصاحب محاولة استئناف
الحياة الإسلامية من جديد يفتح القرآن كنوزه للقلوب ، ويمنح أسرارها ، ويشيع
عطره ، ويكون فيه هدى ونور . .

لقد كانوا يومئذ يدركون حقيقة قول الله لهم :

« يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا . قل : لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنْ عَلَيْكُمْ أَنْ
هَذَا كُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » . .

(الحجرات : ١٧)

وحقيقة قول الله لهم :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ . واعلموا أن الله
يحول بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون . واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم
خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب . واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى
الأرض ، تخافون أن يتخطفكم الناس . فأواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات
لعلكم تشكرون » .

(الأنفال : ٢٤-٢٦)

وحقيقة قول الله لهم :

« ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون » . .

(آل عمران : ١٢٣)

وحقيقة قول الله لهم :

« ولا تنهوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس
القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس . وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ

منكم شهداء . والله لا يحب الظالمين . وللمحصر الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين .
أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين .
ولقد كنتم تمنّون الموت من قبل أن تلقوه ، فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » . . .
(آل عمران : ١٣٩ - ١٤٣)

وحقيقة قول الله لهم :

« لقد نصركم الله في مواطن كثيرة . ويوم حنين إذا أعجبتمكم كثرتكم فلم تغن
عنكم شيئاً ، وضائق عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله
سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها ، وعذب الذين كفروا .
وذلك جزاء الكافرين » . .

(التوبة : ٢٥ ، ٢٦)

وحقيقة قول الله لهم :

« لنبلّون في أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم
ومن الذين أشركوا أذى كثيراً . وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » . . .
(آل عمران : ١٨٦)

كانوا يدركون حقيقة قول الله لهم في هذا كله ، لأنه كان يحدثهم عن واقعيات في
حياتهم عاشوها ، وعن ذكريات في نفوسهم لم تغب معالمها ، وعن ملابسات لم يبعد
بها الزمن ، فهي تعيش في ذات الجليل . .

والذين يعانون اليوم وغداً مثل هذه الملابسات ، هم الذين يدركون معاني القرآن
وإحياءاته . وهم الذين يتذوقون حقائق التصور الإسلامي كما جاء بها القرآن . لأن لها
رصيдаً حاضراً في مشاعرهم وفي تجاربهم ، يتلقونها به ، ويدركونها على ضوئه . .
وهم قليل . .

ومن ثم لم يكن بد . وقد بعد الناس عن القرآن ببعدهم عن الحياة الواقعية في مثل
جرحه . أن نقدم لهم حقائق : « التصور الإسلامي » عن الله والكون والحياة والإنسان
من خلال النصوص القرآنية ، مصحوبة بالشرح والتوجيه ، والتجميع والتبويب .
لأينني هذا غناء القرآن في مخاطبة القلوب والعقول . ولكن ليصل الناس بالقرآن -

على قدر الإمكان - ويساعدهم على أن يتذوقوه ، ويلتمسوا فيه بأنفسهم حقائق
التصور الإسلامى الكبير ١

على أننا نحب أن ننبه هنا إلى حقيقة أساسية كبيرة . . . إننا لا نبغى بالتباس
حقائق التصور الإسلامى ، مجرد المعرفة الثقافية . لا نبغى إنشاء فصل فى المكتبة
الإسلامية ، يضاف إلى ما عرف من قبل باسم « الفلسفة الإسلامية » . كلا ! إننا
لا نهدف إلى مجرد « المعرفة » الباردة ، التى تتعامل مع الأذهان ، ونحسب فى رصيد
« الثقافة » ! إن هذا الهدف فى اعتبارنا لا يستحق عناء الجهد فيه ! إنه هدف تافه
رخيص ! إنما نحن نبتغى « الحركة » من وراء « المعرفة » . نبتغى أن نستحيل هذه
المعرفة قوة دافعة ، لتحقيق مدلولها فى عالم الواقع . نبتغى استجاشة ضمير
« الإنسان » لتحقيق غاية وجوده الإنسانى ، كما يرسمها هذا التصور الربانى . نبتغى
أن ترجع البشرية إلى ربها ، وإلى منهجه الذى أراده لها ، وإلى الحيلة الكريمة الرفيعة
التي تتفق مع الكرامة التى كتبها الله للإنسان ، والتي تحققت فى فترة من فترات
التاريخ ، على ضوء هذا التصور ، عندما استحال واقعاً فى الأرض ، يتمثل فى أمة ،
تقود البشرية إلى الخير والصلاح والنماء .



ولقد وقع - فى طور من أطوار التاريخ الإسلامى - أن احتكت الحياة الإسلامية
الأصلية ، المنبثقة من التصور الإسلامى الصحيح ، بألوان الحياة الأخرى التى
وجدتها الإسلام فى البلاد المفتوحة ، وفيما وراءها كذلك . ثم بالثقافات السائدة فى
تلك البلاد .

واشتغل الناس فى الرقعة الإسلامية - وقد خللت حياتهم من هموم الجهاد ،
واستسلموا لموجات الرخاء . . . وجدت فى الوقت ذاته فى حياتهم من جراء الأحداث
السياسية وغيرها مشكلات للتفكير والرأى والمذهبية - كان بعضها فى وقت مبكر منذ
الخلاف المشهور بين على ومعاوية - اشتغل الناس بالفلسفة الإغريقية وبالمباحث
اللاهوتية التى تجمعت حول المسيحية ، والتى ترجمت إلى اللغة العربية . . . ونشأ عن
هذا الاشتغال الذى لا يخلو من طابع الترف العقلى فى عهد العباسيين وفى الأندلس

أيضاً ، انحرافات واتجاهات غريبة على التصور الإسلامى الأصيل . التصور الذى جاء ابتداء لإنقاذ البشرية من مثل هذه الانحرافات ، ومن مثل هذه الاتجاهات ، وردها إلى التصور الإسلامى الإيجابى الواقعى ، الذى يدفع بالطاقة كلها إلى مجال الحياة ، للبناء والتعمير ، والارتفاع والتطهير . ويصون الطاقة أن تنفق فى الثروة . كما يصون الإدراك البشرى أن يطوح به فى التيه بلا دليل .

ووجد جماعة من علماء المسلمين أن لابد من مواجهة آثار هذا الاحتكاك ، وهذا الانحراف ، بردود وإيضاحات وجدل حول ذات الله - سبحانه - وصفاته . وحول القضاء والقدر . وحول عمل الإنسان وجزائه ، وحول المعصية والتوبة . . . إلى آخر المباحث التى ثار حولها الجدل فى تاريخ الفكر الإسلامى ! ووجدت الفرق المختلفة خوارج وشيعة ومرجئة . قدرية وجبرية . سنية ومعتزلة . . . إلى آخر هذه الأسماء .

كذلك وجد بين المفكرين المسلمين من فتن بالفلسفة الإغريقية - وبخاصة شروح فلسفة أرسطو - أو المعلم الأول كما كانوا يسمونه - وبالمباحث اللاهوتية - « الميتافيزيقية » - وظنوا أن « الفكر الإسلامى » لا يستكمل مظاهر نضوجه واكتماله ، أو مظاهر أبعته وعظمته ، إلا إذا ارتدى هذا الزى - زى التفلسف والفلسفة - وكانت له فيه مؤلفات ! وكما يفتن منا اليوم ناس بأزياء التفكير الغربية ، فكذلك كانت فتنتهم بتلك الأزياء وقتها . فحاولوا إنشاء « فلسفة إسلامية » كالفلسفة الإغريقية . وحاولوا إنشاء « علم الكلام » على نسق المباحث اللاهوتية مبنية على منطق أرسطو !

وبدلاً من صياغة « التصور الإسلامى » فى قالب ذاتى مستقل ، وفق طبيعته الكلية ، التى تخاطب الكينونة البشرية جملة ، بكل مقوماتها وطاقاتها ، ولاتخاطب « الفكر البشرى » وحده خطاباً بارداً مصبوحاً فى قالب المنطق الذهنى . . بدلاً من هذا فإنهم استعاروا « القالب » الفلسفى ليصبوا فيه « التصور الإسلامى » ، كما استعاروا بعض التصورات الفلسفية ذاتها ، وحاولوا أن يوفقوا بينها وبين التصور الإسلامى . . أما المصطلحات فقد كادت تكون كلها مستعارة !

ولما كانت هناك جفوة أصيلة بين منهج الفلسفة ومنهج العقيدة ، وبين أسلوب الفلسفة وأسلوب العقيدة ، وبين الحقائق الإيمانية الإسلامية وتلك المحاولات

الصغيرة المضطربة المفتعلة التي تتضمنها الفلسفات والمباحث اللاهوتية البشرية . . .
فقد بدت « الفلسفة الإسلامية » - كما سميت - نشازاً كاملاً في لحن العقيدة المتناسق !
ونشأ من هذه المحاولات تخليط كثير ، شاب صفاء التصور الإسلامى ، وصغر
مساحته ، وأصابه بالسطحية .

ذلك مع التعقيد والجفاف والتخليط . مما جعل تلك « الفلسفة الإسلامية »
ومعها مباحث علم الكلام غريبة غربة كاملة على الإسلام ، وطبيعته ، وحقيقته ،
ومنهجه ، وأسلوبه !

وأنا أعلم أن هذا الكلام سيقابل بالدهشة - على الأقل ! - سواء من كثير من
المشتغلين عندنا بما يسمى « الفلسفة الإسلامية » أو من المشتغلين بالمباحث الفلسفية
بصفة عامة . . . ولكنى أقره ، وأنا على يقين جازم بأن « التصور الإسلامى » لن
يخلص من التشويه والانحراف والمسوخ ، إلا حين نلقى عنه جملة بكل ما أطلق عليه
اسم « الفلسفة الإسلامية » . وبكل مباحث « علم الكلام » وبكل ما ثار من الجدل
بين الفرق الإسلامية المختلفة فى شتى العصور أيضاً ! ثم نعود إلى القرآن الكريم ،
نستمد منه مباشرة « مقومات التصور الإسلامى » . مع بيان « خصائصه » التى تفرد
من بين سائر التصورات . ولا بأس من بعض الموازنات - التى توضح هذه
الخصائص - مع التصورات الأخرى - أما مقومات هذا التصور فيجب أن تستقى من
القرآن مباشرة ، وتصاغ صياغة مستقلة . . . تماماً .

ولعله مما يحتم هذا المنهج الذى أشرنا إليه أن تدرك ثلاث حقائق هامة :

الأولى : أن أول ما وصل إلى العالم الإسلامى من مخلفات الفلسفة الإغريقية
واللاهوت المسيحى ، وكان له أثر فى توجيه الجدل بين الفرق المختلفة وتلوينه ، لم
يكن سوى شروح متأخرة للفلسفة الإغريقية ، منقولة نقلاً مشوها مضطرباً فى لغة
سقيمة . مما ينشأ عنه اضطراب كثير فى نقل هذه الشروح !

والثانية : أن عملية التوفيق بين شروح الفلسفة الإغريقية والتصور الإسلامى
كانت تنم عن سذاجة كبيرة ، وجهل بطبيعة الفلسفة الإغريقية ، وعناصرها الوثنية
العميقة ، وعدم استقامتها على نظام فكرى واحد ، وأساس منهجى واحد . مما

يحالف الطفرة الإسلامية ومبادئها الأصيلة . فالفلسفة الإغريقية نشأت في وسط وثني مشحون بالأساطير ، واستمدت جذورها من هذه الوثنية ومن هذه الأساطير ، ولم تحل من لحناصر الوثنية الأسطورية قط . فمن السذاجة والعث - كان - محاولة اتوفيق بينها وبين التصور الإسلامي القائم على أساس « التوحيد » المطلق العميق بحريه . ولكن المشعشع بالفلسفة واختل من المسلمين ، فهموا - خطأ - تحت تأثير ما نقل إليهم من الشروح المتأخرة المتأثرة بالمسيحية أن « الحكماء » - وهم فلاسفة الإغريق - لا يمكن أن يكونوا وثنيين ، ولا يمكن أن يجحدوا عن التوحيد ! ومن ثم الترموا عمليه توفيق متعسفه بين كلام « الحكماء » وبين لعقيدة الإسلامية ومن هذه المحاولة كان ما يسمى « الفلسفة الإسلامية » !

والثالثة : أن المشكالات الواقعية في العالم الإسلامي - تلك التي أثارت ذلك اخلل منذ مقتل عثمان - رضى الله عنه - قد حرمت تأويلات النصوص القرآنية ، ولأفهام وللفهومات انحرافاً شديداً . فلما بدأت الباحث لتأييد وجهات النظر المختلفة ، كانت تحت عما يؤيدها من الفلسفات ومباحث اللاهوتية ، نحنأ معرضاً في العالب ومن ثم لم تعد تلك المصادر - في ظل تلك الخلافات - تصلح أساساً للتفكير الإسلامي الخالص ، الذي يسعى أن يتلقى مقوماته ومفهوماته من النص القرآني الثابت ، في جو خالص من عقايل تلك الخلافات التاريخية . ومن ثم بحس عمل ذلك التراث حملة أ عن مفهوم الأصيل للإسلام ، ودراسة دراسة تاريخية سحنة ، لبيان روبا الانحراف فيه ، وأسباب هذا الانحراف ، وتجب مظاهرها فيما نصوعه ابيوم من مفهوم التصور الإسلامي ، ومن أوضاع وأشكال ومقومات النظام الإسلامي أيضاً . .



وولقد سارت مذهب الفكر العربي في طريقها الخاص مستمدة ابتداء من الفكر الإغريقي وما فيه من لونة لوثية ، ثم مستمدة أحياناً من عدتها للكنيسة . وللتفكير الكنسي في العالب ! وكان الطبع العام هذا الفكر منذ عصر النهضة ، وهو معارضة الكنيسة

الكاثوليكية وتصوراتها - ثم - فيما بعد - معارضة الكنيسة إطلاقاً ، ومعارضة تصور
 المسيحية - والتصورات الكنسية - بصفة عامة - لم تكن في يوم من الأيام تمثل
 النصرانية الحقيقية فإن الملامات التي صاحبت نشأة النصرانية في ظل الدولة
 الرومانية الوثنية ، ثم التي صاحبت دخول لمولة الرومانية في النصرانية قد جنت على
 النصرانية الحقة جناية كبرى ، وحرفتها تحريفاً شديداً حرفتها إساءة بها أدخلت
 فيها من رواسب الوثنية الرومانية - ثم بما أضافته الكنيسة والمجمع بعد ذلك من
 التأويلات والإضافات التي ضمت - مع الأسف - إلى الأصل الإلهي في النصرانية ،
 لمجاراة الأحداث السياسية ، والاختلافات المذهبية ، ولمحاولة تجميع المذاهب
 وتجميع القطاعات المتعصبة في الدولة الرومانية في مذهب واحد يرضى عنه
 الجميع^(١) مما جعل « النصرانية » تعبيراً عن « التصور الكسبي » أكثر مما هي تعبير
 عن الديانة النصرانية المنزلة من عند الله

ثم كان من جراء احتضان الكنيسة لهذه التصورات المسحرفة ، ومن جراء
 احتضانها كذلك لكثير من المعلومات الخاطئة أو الدقصة عن الكون - مما هو من
 شأن البحوث والدراسات والتجارب البشرية - أن وقعت موقفاً عدائياً حشناً من
 العلماء الطبيعيين حين قاموا بصححون هذه المعلومات « البشرية » الخاطئة أو
 الدقصة ولم تكف بهجوم العكري عليهم ، بل استخدمت سلطاتهم المادى
 شائعة ، في التشكيل لكل المحالين لتصوراتها الدينية والعلمية على السواء !

ومنذ ذلك التاريخ ، وإلى اليوم ، اتخذ « الفكر الأوربي » موقفاً عدائياً لا من
 الأفكار والتصورات الكنسية التي كانت سائدة يومذاك ، بل من الأفكار والتصورات
 الدينية على الإطلاق بل تجاوز العداء الأفكار ولتصورات الدين إلى منهج التفكير
 الديني بجمليته ! واتجه الفكر الأوربي إلى ابتداء مناهج ومذاهب للتفكير ، العرص
 الأساسى منها هو معارضة منهج الفكر الديني ، والتخلص من سلطان الكنيسة ،
 بالتخلص من إله الكنيسة ! ومن كل ما يتعق به من أفكار ومن منهج للتفكير
 أيضاً « وكمن العداء للدين وللمنهج الديني ، لا في الموضوعات والفلسفات

(١) يراجع كتاب « لدعوة إلى الإسلام » تأليف « ب ر أربولد » لترجمة العربية ص ٥٢

ولم ناهب التي أنشأها الفكر الأوربي ، بل في صميم هذا الفكر ، وفي صميم المناهج التي يتخذها للمعرفة .

ومن ثم لم يعد نتاج الفكر الأوربي ، ولا مذهب التفكير لأوربية تصلح لأن تتحد أساساً للفكر الإسلامي ، ولا لتحديد هذا الفكر - كما يعر بعض المفكرين المسلمين أنفسهم - . وسيرى قارئ هذا البحث - بعد فراغ منه - أنه لا سبيل لاستعارة مذهب الفكر الغربي ، ولا استعارة نتاج هذا الفكر الذي قام على أساس هذه المذهب ، للفكر الإسلامي !



منهجنا إذن في هذا البحث عن : « حقائق التصور الإسلامي ومقوماته » أن نستلهم القرآن الكريم مباشرة - بعد الحياة في ظلال القرآن طويلاً . وأن نستحضر - بقدر الإمكان - الجو الذي تنزلت فيه كلمات الله للبشر ، وبلاسيات الاعتقادية والاجتماعية وسياسية التي كانت البشرية تنه فيها وقت أن جاءها هذا الهدى ثم التيه الذي ضلت فيه بعد انحرفها عن الهدى الإلهي !

ومنهجنا في استلهم القرآن الكريم ، ألا نواجهه بمقررات سابقة إطلاقاً لا بمقررات عقلية ولا بمقررات شعورية - من رواسب الثقافات التي لم نستقها من القرآن ذاته - نحاكم إليها بصره ، أو نستلهم معاني هذه البصو من وفق تلك المقررات السابقة .

لقد جاء البص القرآني - انتدء - ليسئى المقررات الصحيحة التي يريد الله أن تقوم عليها تصورات البشر ، وأن تقوم عليها حياتهم . وأقل ما يستحقه هذا التفضل من العمل الكبير ، وهذه الرعاية من الله ذي خلل - وهو العنى عن العليل - أن يتنقوها وقد فرغوا لها قلوبهم وعقولهم من كل عيش دحيل ، ليقوم تصوراتهم الحديد طيفاً من كل رواسب الجاهليات - قديمها وحديثها على السواء - مستمداً من تعليم الله وحده . لا من طوبى البشر ، التي لاتعنى من الحق شيئاً !

ليست هناك إذن مقررات سابقة نحاكم إليها كتاب الله تعالى إنما نحن ستمد مقررات من هذا الكتاب ابتداء ، وبقيم على هذه المقررات تصوراتنا ومقرراتنا وهذا -

وحده - هو اسهح الصحيح ، في مواجهة القرآن الكريم ، وفي استلهامه حصائص
التصور الإسلامى ومقوماته .

* * *

ثم إننا لا نحاول استعادة « نقالب الفلسفى » في عرض حقائق « الصور
الإسلامى » اقتناعاً بما بأن هناك ارساطاً وثيقاً بين طبيعة « الموضوع » وطبيعة
« النقالب » وأن الموضوع يتأثر بالنقالب وقد تتغير طبيعته ويلحد لها التشويه ، إذا
عرض في قلب ، في طبيعته وفي تاريخه عداء وحصة وعربة عن طبيعته ! الأمر
المتحقق في موضوع الصور الإسلامى والنقالب الفلسفى والذي يدركه من يتدقق
حقيقة هذا التصور كما هي معروضة في النص القرأى^١

نحن نحاف « إقبال » في محاولته صياغة لتصور الإسلامى في قالب فلسفى ،
مستعار من النقالب المعروفة عند هجر من « العقلين المثاليين » وعند أوحست
كونت من « الوصعين الحسين » .

إن العقيدة - إطلاقاً - ولعقيدة الإسلام - بوجه خاص - تحاطب الكيونة
الإنسانية بأسلوبها الخاص ، وهو أسلوب يمتز بالحوية والإيقاع واللمسة الماشرة
والإيجاء الإيجى بالحقائق لكبرة ، التى لا تمثل كلها في العبارة ولكن توحى بها
العبارة . كما يمار بمحاطبة الكيونة الإنسانية بكل جوانبها وطاقاتها ومصادف المعرفة
فيها ولا يحاطب « الفكر » وحده في الكائن البشرى أما الفلسفة فلها أسلوب
آخر إذ هى تحاول أن تحصر الحقيقة في العبارة ولما كان نوع الحقائق التى تتصدى
ها يستحيل أن ينحصر في مطلق العبارة - فصلاً عن أن جواب أساسيه من هذه
حقائق هى بطبيعتها أكبر من المجال الذى يعمل فيه « الفكر » البشرى^(١) - فإن
الفلسفة تنتهى حتماً إلى التعقيد والتحليط والخصاف ، كلما حاولت أن تتناول مسائل
العقيدة !

ومن ثم لم يكن للفلسفة دور يذكر في الحياة البشرية العامة ، ولم تدفع بالبشرية

(١) يراجع في هذا الكتاب فصل . « الربانية »

إلى الأمام شيئاً مما دفعها انعطافه ، التي تقدمت الشريعة على حداتها في تيه الرمس ،
وعلام الطريق .

لأنه أن تعرض العقيدة بأسلوب العقيدة ، إذ أن محاوله عرضها بأسلوب الفلسفة
يفتنها ، ويطغى إشعاعها وإيجاءها ، ويعصرها على جانب واحد من جوانب
الكنوبه الإنسانية الكثيرة .

ومن هنا يبدو التعقيد والحفاف والنقص والاحرف في كل المساحة التي نحاول
عرض لعقيدة هذا الأسلوب الغريب على طبيعتها ، وفي هذا القالب الذي يصيق
عنها

ولسا حريصين على أن تكون هناك « فلسفة إسلامية » لسا حريصين على أن
يوجد هذا الفصل في الفكر الإسلامي ، ولا أن يوجد هذا القالب في قوالب الأداء
الإسلامية ! فهذا لا ينقص الإسلام شيئاً في طربا ، ولا ينقص « المكر الإسلامي »
بل يدل دلالة قوية على أصالته ونقائه وتمييزه !

* * *

وكلمة أخرى في مسيح الذي تنوجه في هذا المسح أيضاً
إنا لاستحصر أصما انحرفاً معيماً من انحرفات الفكر الإسلامي ، أو الواقع
الإسلامي ، ثم ندعه يستغرق اهتماماً كنهه بحيث يصح الرد عليه وتصحيحه هو
المحرك الكلي لنا فيما سله من جهد في تقرير « حصائص التصور الإسلامي
ومقوماته » . إنا نحن نحاول تقرير حقائق هذا التصور في ذاتها - كما جاء في
القرآن الكريم ، كاملة شاملة ، متوزمة متناسقة ، تناسق هذا الكون وتوزنه ،
وتناسق هذه المفطرة وتوارثها

ذلك أن استحصار انحرف معين ، أو نقص معين ، ولاستعراق في دوعه ،
وصناعة حقائق التصور الإسلامي للرد عليه مسيح شديد الخطر ، وبه معقاته في
إنشاء انحرف جديد في التصور الإسلامي لدفع انحرف قديم والانحرف
انحرف على كل حال !!!

وبنحن نجد مبادج من هذا الخطر في المحرث التي تكتب بقصد « الدعاء » عن

الإسلام في وجه المهاجرين له ، الطاعين فيه ، من المستشرقين والمصلحين قديماً وحديثاً كما نجد تماذج منه في اسحوث التي نكتب للرد على احرف معين ، في بيئة معينة ، في زمان معين !

يعتمد بعض لصلبيين والصهيويين مثلاً أن يهجم الإسلام بأنه دين السيف ، وأنه اسشر بحد لسيف . فيقوم من مدافعون عن الإسلام يدفعون عنه هذا «الانها»! ويسا هم مشتطون في حماسة «الدفاع» يسططون قيمة «الجهد» في الإسلام ، ويصيفون بطقه ويعتدرون عن كل حركة من حركاته ، بأنها كانت لمجرد «لدفاع»! - بمعناه الاصطلاحى احاصر الصبق^١ - ويسون أن للإسلام - بوصفه المنهج الإلهى الأخير للشريعة - حقه الأصيل في أن يقيم «نظامه» الخاص في الأرض ، تستمتع الشريعة كلها بحيرات هذا «النظام» . ويستمتع كل فرد - في داخل هذا النظام - بحرية العقيدة التي يحددها ، حيث «لا إكراه في الدين» من ناحية العقيدة . أما إقامة «النظام الإسلامى» ليصل للشريعة كلها ممن يعتنقون عقيدة الإسلام وممن لا يعتنقونها ، فتقتضى اخهاد لإنشاء هذا النظام وصيائه ، وترك السس أحراراً في عقائدهم الخاصة في بطقه ولا يتم ذلك إلا بإقامة سلطان حير وقانون حير ونظام حير يحسب حسابه كل من يفكر في الاعتداء على حرية الدعوة وحرية الاعتقاد في الأرض !

وليس هذا إلا نموذجاً واحداً من التشو به للتصور الإسلامى ، في حماسة الدفاع عنه ضد هجوم مكر ، على جانب من حواتبه^١

أم السحوث التي كتبت للرد على احراف معين ، فأشأت هى بدورها انحرافاً آخر ، فأقرب ما تمثل به في هذا الخصوص ، توحيهات الأستاذ الإمام الشيخ «محمد عده» ومحاصرات «إقبال» في موضوع «تحديد المكر الدينى في الإسلام»^(١) لقد واحه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عده ، بيئة فكرية حامدة ، أعلفت باب «الاجتهاد» وأسكرت عن «العقل» دوره في فهم شريعة الله واستسط الأحكام منها ، واكتفت بالكب الى ألفها المتأخرون في عصور الحمود العقلى وهى - في انوقت ذاته -

(١) ترجمة الأستاذ عباس محمود

تعتمد على الخرافات والنصورات لدية العامة ! كما واحة فترة كان « لعقل » فيها يعد في أوربا ويتحده أهلها إلهاً ، وخاصة بعد فتوحات العلمية التي حصل فيها العلم على انتصارات عظيمة ، وبعد فترة كذلك من سيادة الفلسفة العقلية التي تؤبه العقل ! وذلك مع هجوم من استشرقين على التصور الإسلامي ، وعقيدة النقص والقدر فيه ، وتعطيل العقل الشرى واجهد الشرى عن الإيجابية في حياة سبب هذه العقيدة . إلح فلما أراد أن يواحه هذه السيئة الخاصة ، بثبات قيمة « العقل » تجاه « البص » ، وحياء فكرة « الاحتهاد » ومحاربة الخرافة والجهل والعامة في « الفكر الإسلامي » . ثم إثبات أن الإسلام جعل للعقل قيمته وعمله في الدين والحياة ، وليس - كما يزعم « الإفرنج » أنه قصى على مسلمين « باخر » المطلق وفقد « الاحتير » لما أراد أن يواحه الحمود العقل في الشرق ، والفتنة بالعقل في العرب ، جعل « العقل » الشرى بذاً لوى في هداية الإنسان ، ولم يقف به عند أن يكون جهازاً - من أجهزة - في سكان الشرى ، يتلقى لوى ومع أن يقع خلاف ما من مفهوم العقل وما يحى به الوعى . ولم يقف بالعقل عند أن يدرك ما يدركه ، ويسلم به هو فوق إدراكه ، بما أنه - هو والكيونة الإنسانية بحملنها - غير كلى ولا مطلق ، ومحدود بمحدود الزمان والمكان ، بينما الوعى يتناول حقائق مطبقة في بعض الأحيان كحقيقة الأوهبة ، وكمية تعلق الإرادة الإلهية بخلق الحوادث . وليس على العقل إلا التسليم بهذه الكليات المطلقة ، التي لا سبل له إلى إدراكها (١)

وساق حجة تبه و منطقية ، ولكنها من فعل الرغبة في تقويم ذلك الانحراف البينى الخاص الذى يحتقر العقل ويهمل دوره . قال رحمه الله في رسالة انتوحيد :

« فالوحي بالرسالة الإلهية أثر من أثر الله والعقل لانساسى أثر أبص من أثر الله في الوجود . وأثر الله حب ن بسبحم بعضها مع بعض ، ولا يعارض بعضها بعضاً » .

وهذا صحيح في عمومته . ولكن يبقى أن الوعى والعقل ليسا سدين . فأحدهما أكبر من الآخر وأشمل وأحدهما جاء ليكون هو لأصل الذى يرجع إليه الآخر .

(١) يرجع في هذا لبحث فصل الربانية

والميران الذي يحتر الآخر عنده مقرراته ومفهوماته وبصورته ويصحح به احتلالاته واحرفاته فينبهما - ولاشك - بوافق واستحجام ولكن على هذا الأساس . لا على أساس أسما يذن متعادلات ، وكهو أحدهما ثاماً للأخر ! فضلاً على أن العقل المرأ من النقص والهوى لا وجود له في دينا الواقع ، وإبنا هو « مثال » !

وقد تأثر تفسير الأستاذ الإمام لجزء عم هذه النظرة تأثراً واضحاً . وتفسير تلميذه المرحوم الشيخ رشيد رضا وتفسير تلميذه الأستاذ الشيخ العربي جبر « تبارك » حتى صرح مرات بوجود تأويل النص ليوافق مفهوم العقل ! وهو مبدأ خطر في إطلاق كلمة « العقل » يد الأمر إلى شيء غير واقعي ! - كما قلنا - فهناك عقل وعقلك وعقل فلان وعقل علان . وليس هناك عقل مطلق لا يتأوبه النقص والهوى والشهوة والجهل يحاكم النص القرآني إلى « مقرراته » وإذا أوجب التأويل بوافق النص هذه العقول الكثيرة ، فإننا سنهني إلى فوضى !

وقد نشأ هذا كنه من الاستعراق في مواجئة الحراف معين . . ولو أخذ الأمر - في ذاته - بعرف للعقل مكانه ومجال عمله بدون غلو ولا إفراط ، وبدون نقصير ولا بخرط كذلك وعرف للوحي مجاله وحفظت النسبة بينهما في مكانها الصحيح . .

إن « لعقل » ليس معنيا ولا مطروداً ولا مهملاً في محار التلقى عن الوحي ، وفهم ما يتلقى وإدراك ما من شأنه أن يدركه ، مع التسليم بما هو خارج عن مجاله ولكنه كذلك ليس هو « الحكم » الأخير وما دام النص مُحْكماً ، فالمدلول الصريح بالنص من غير تأويل هو الحكم وعلى العقل أن يتلقى مقرراته هو من مدلول هذا النص الصريح ويقيم منهجه على أساسه (وفي صلب هذا البحث تفصيل واف للحد المأمون والمنهج الإسلامي المستقيم) .

وبقد واجه « إقبال » في لعالم الشرقي بيئة فكرية « تائهة » في غيوبة « إشرافات » التصوف « العجمي » كما يسميه ! مراعه هذا « اعباء » الذي لا وجود فيه للذاتية الإنسانية كما راعته « انسية » التي لا عمل معها للإنسان ولا أثر في هذه الأرض - وليس هذا هو الإسلام بطبيعة الحال - كما واحد من ناحية أخرى التمكنير الحسي في المذهب الوصفي ، ومذهب التجريبيين في العالم العربي . كذلك واحد ما أعنه

متشبه في « هكذا قال زرادشت » عن مولد الإنسان الأعلى (السوبرمان) وموت الإله !
وذلك في تخطيطات الصرع التي كتبها بيتشه وسماه بعضهم « فلسفة » !

وأراد أن يعرض عن « الفكر الإسلامي » وعن « حياة الإسلامية » ذلك الصباغ
والقضاء والسلبية كما أريد أن يثبت لفكر الإسلامي واقعية « التحررية » التي يعتمد
عليها المذهب التجريبي ثم المذهب الوضعي !

وبكن النتيجة كانت جموحاً في إبراز اندتية الإنسانية ، ضطر معه إلى تأويل
بعض المفاهيم القرآنية تأويلاً تأباه طبيعتها ، كما تأباه طبيعة التصور الإسلامي .
لإثبات أن الموت ليس نهاية للتجربة ولا حتى القيامة . فالتجربة والنمو في الدات
الإنسانية مستمران أيضاً - عند إقبال - بعد الحنة والار . مع أن التصور الإسلامي
حاسم في أن الدنيا دار ابتلاء وعمل ، وأن الآخرة دار حساب وجرأ . وليست
هنالك فرصة للنفس الشرية للعمل إلا في هذه الدار كما أنه لا محال لعمل حديد
في الدار الآخرة بعد الحساب والجرأ . ولكن هذا انعلوإنها حاء من الرعة الحارة
في إثبات « وجود » الذاتية ، واستمراره ، أو أنه « أنا » كما استعد إقبال من
اصطلاحات هيجل الفلسفية .

ومن ناحية أخرى اضطر إلى إعطاء اصطلاح « تجربة » مدلولاً أوسع مما هو في
« الفكر الغربي » وفي تاريخ هذا الفكر لكي يمد محله إلى « التجربة الروحية » التي
يرأوها المسلم ويتذوق بها الحقيقة الكبرى « فالتجربة » بمعناها الاصطلاحي
الفلسفي العربي ، لا يمكن أن تشمل الحساب الروحي أصلاً ! لأنها نشأت ابتداء
لسد كر وسائل المعرفة التي لا تعتمد على التجربة الحسنة

ومحاولة استعارة الاصطلاح العربي ، هي التي قادت إلى هذه المحاولة . التي
يتضح فيها الشد والحدب والخفاف أيضاً حتى مع شاعرية إقبال احية المتحركة
الرفافة !

ولست أتغنى أن أقص من قدر نكث الجهود العظيمة اشعة في إحياء لفكر
الإسلامي وبهاضه التي يدها الأستاذ الإمام وتلاميذه ، والتي يملكها الشاعر إقبال
رحمهم الله رحمة واسعة وإنما أريد فقط التنبيه إلى أن دفعة الحسنة لمقاومة

«بحراف معين ، قد سئى هي انحرافاً آخر وأن الأثرى في مهج البحث الإسلامى ، هو عرض حقائق التصور الإسلامى فى تكاملها الشامل ، وفى تناسقها هادئ ووفق طبيعتها الخاصة وأسلوبها الخاص .

* * *

وأخيراً فإن هذا البحث ليس كتاباً فى « الفلسفة » ولا كتاباً فى « اللاهوت » ولا كتاباً فى « الميتافيزيقا » إنه عمل يملية الواقع وهو يحط بالواقع أيضاً لقد جاء الإسلام لينقد البشرية كلها من الركام الذى كان ينوء بأفكارها وحياتها ويثقلها ومن ليه الذى كانت أفكارها وحياتها شاردة فيه . ولينشئ لها بصوراً خاصاً متميزاً منفرداً ، وحياة أخرى تسير وفق مهج لله القويم فإذا بالشريعة كلها اليوم ترتكس إلى التيه وإلى الركام الكريه !

ولقد جاء الإسلام ليشئ أمة ، يسلمها قيادة الشريعة ، لتتأى بها عن التيه وعن الركام فإذ هذه الأمة اليوم تترك مكاب القادة ، وتترك مهج القادة ، وتلهث وراء الأمم الضاربة فى التيه ، وفى الركام الكريه !

هذا الكتاب محاولة لتحديد خصائص التصور الإسلامى ومقوماته ، التى ينشئ منها مهج الحياة الواقعى . كما أراده الله - ودستور النشاط الفكرى والعلمى والعلمى ، الذى لابد أن يستمد من التفسير الشامل الذى يقدمه ذلك التصور الأصيل وكل بحث فى جانب من جوانب المكرة الإسلامية أو النظام الإسلامى ، لابد له من أن يرتكن أولاً إلى فكرة الإسلام

والحاجة إلى حلاء تلك المكرة هي حاجة العقل والنفس وحاجة الحياة والواقع . وحاجة الأمة المسلمة واشريعة كلها على السوء

وهذا القسم الأول من البحث يتناول « خصائص التصور الإسلامى » وسيأتى القسم الثانى . « مقومات التصور الإسلامى » [والله عوفق وهادى وأبعين]

تِيهِ وَرَكَام

«أَفَتَرَى يَنْشِئُ مُكَيْدًا عَلَى وَجْهِ أَقْدَى ؟
أَمْ مِنْ يَنْشِئُ سَوِيًّا عَلَى حَبْرٍ مُسْتَقِيمٍ ؟»

حاء الإسلام ، وفي العالم ركام هائل ، من العقائد والتصورات ، والفلسفات ، والأساطير ، والأفكار ، والأوهام ، والشعائر والتقاليد ، والأوصاف والأحوال يحتضن فيها الحق بالباطل ، والصحيح بالرائف ، والدين بالخرافة ، والفلسفة بالأسطورة . . . والصمير الشرى - تحت هذا الركام هائل - يتحبط في ظلمات وضوب ، لا يستقر منها على يقين ، والحياة الإنسانية - بتأثير هذا الركام الهائل - تتحبط في فساد وانحلال ، وفي ظلم ودل ، وفي شقاء ونعاسة ، لا تليق بالإنسان ، بل لا تليق بقطيع من الحيوان !

وكبر التيه الذي لا دليل فيه ، ولا هدى ولا نور ، ولا قرار ولا بقين هو ذلك لته الذي يحيط بتصوير الشرية لإلهه وصفاته ، وعلاقته بالكون وعلاقة الكون به ، وحقيقته الإنسان ، ومركزه في هذا الكون ، وعدة وجوده الإنساني ، ومهجع حقيقته لهذه العاية . . . وروع اصلة بين الله والإنسان على وجه اخصوص . . . ومن هذا التيه ومن ذلك ركام كان يسعث الشر كله في الحياة الإنسانية ، وفي الأنظمة التي تقوم عليها

ولم يكن مستطاعاً أن يستقر الصمير الشرى على قرار في أمر هذا الكون ، وفي أمر نفسه ، وفي عايه وجوده وفي مهجع حياته ، وفي الارتباطات التي تقوم بين الإنسان والكون ، والتي تقوم بين أمراده هو ونجماته . . . لم يكن مستطاعاً أن يستقر الصمير الشرى على قرار في شيء من هذا كله ، قبل أن يستقر على قرار في أمر

عقيدته ، وفي أمر تصوره لإلهه ، وقبل أن ينتهي إلى يقين واضح ، في وسط هذا العناء الطاحي ، وهذا التيه المتصل ، وهذا الزكام الثقيل .

ولم يكن الأمر كذلك لأن التفكير لديني كان هو طامع القرون الوسطى - كما يقول مكيرو العرب - فيتلف قولتهم هذه بمعاداة الشرق - كلا إنما كان الأمر كذلك لأن هناك حقيقتين أساسيتين ، ملازميتين للحياة البشرية ، وينسب البشرية ، على كل حال ، وفي كل زمان :

الحقيقة الأولى . أن هذا الإنسان - بغيرته - لا يمدح أن يستقر في هذا الكون الهائل درة تائهة مفلتة صائغة فلا بد له من ربط معين بهذا الكون ، يصمم له الاستقرار فيه ، ومعرفة مكانه في هذا الكون الذي يستقر فيه . فلا بد له إذن من عقيدة تعبر له م حوله ، وتفسر له مكانه في حوله . فهي ضرورة فطرية شعورية ، لا علاقة لها بملاسلات العصر والبيئة . وسنرى حين يتقدم بنا هذا البحث كم كان شقاء الإنسان وحيرته وضلاله حين أخطأ حقيقة هذا الارتباط ، وحقيقة هذا التفسير.

والحقيقة الأخرى هي أن هناك تلازماً وثيقاً بين طبيعة التصور الاعتقادي ، وطبيعة اسطام الاجتماعي . تلازماً لا ينمصل ، ولا يتعق بملاسلات العصر والبيئة بل إن هناك ما هو أكثر من التلازم هناك الانشقاقات والنظام الاجتماعي هو فرع عن التفسير لشامل لهذا الوجود ، ومركز الإنسان فيه ووظيفته ، وعديّة وجوده الإنساني . وكل نظام اجتماعي لا يقوم على أساس هذا التفسير ، هو نظام مصطنع لا يعيش . وإذا عاش فترة شقى به « الإنسان » ، روقع الصدام بينه وبين المفطرة الإنسانية حتى . فهي ضرورة تنظيمية ، كما أنها ضرورة شعورية

ولقد كان الرسل - عليهم الصلاة والسلام - من لدن نوح إلى عيسى . . قد بسوا للناس هذه الحقيقة ، وعرفوهم بإلههم تعريفاً صحيحاً ، وأرشدوا لهم مركز « الإنسان » في الكون ، وغاية وجوده . ولكن الاجترافات الدائمة عن هذه الحقيقة ، تحت ضغط الظروف السياسية والشهوات البشرية ، والصعف الإنساني ، كانت قد عشت تلك الحقيقة ، وأصلت البشرية عنها ، وأهالت عليها ركاماً ثقيلاً

يصعب رفعة بغير رسالة جديدة كاملة شاملة ، ترفع هذا الركाम ، وتبدد هذا الظلام ، وتبهر هذا التيه ، وتقر التصور الاعتقادي على أساس من الحق الخالص . وتقيم الحياة الإنسانية على أساس مستقر من ذلك التصور الصحيح . وما كان يمكن أن يصرف أصحاب التصورات المحرفة في الأرض كلها ، وأن ينصكوا عما هم فيه ، إلا بهذه الرسالة ، وإلا بهذا الرسول . . وصدق الله العظيم :

« لم يكن الذين كفروا - من أهل الكتاب والمشركين مفكرين حتى تأتيهم بينة رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة » .

(البينة : ١ ، ٢)

ولابدرك الإنسان ضرورة هذه الرسالة ، وضرورة هذا الانعكاس عن الضلالات التي كانت الشريعة تائهة في طلماتها ، وضرورة الاستقرار على يقين واضح في أمر العقيدة . . حتى يطبع على ضخامة ذلك الركام ، وحتى يرتاد ذلك التيه ، من العقائد والتصورات ، والفلسفات والأساطير ، والأفكار والأوهام ، والشعائر والتقاليد ، والأوصاف والأحوال ، التي جاء الإسلام فوجدته تزين على الصمير الشرى في كل مكان ، وحتى يدرك حقيقة السلة والتخليط والتعقيد التي كانت تتحيط فيها بقايا العقائد السماوية ، التي دخلها التحريف والتأويل ، والإضافات الشربة إلى المصادر الإلهية ، والتي التمسث بالمسمعات والوثنيات والأساطير منواء !

ولما لم يكن قصد - في هذا البحث - هو عرض هذه التصورات ، إنما هو عرض التصور الإسلامي ، ونخصه بمقوماته فإننا نكتفى بعرض بعض النماذج من التصورات الدينية في اليهودية والمسيحية - كما وصلت إلى عرب خربة - وبعض النماذج من التصورات الحاهلية العربية التي جاء الإسلام فواجهها هناك

* * *

لقد حصت ديانة بني إسرائيل - اليهودية - بالتصورات الوثنية ، وباللثة القومية على السواء فسو إسرائيل - وهو يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم عليهم السلام - جاءتهم رسالتهم - وفي أولهم أنهم إسرائيل - بالتوحيد الخالص ، أسى عدمهم إياه أبوهم إبراهيم ثم جاءهم نبيهم الأكرم موسى - عليه السلام - بدعوة التوحيد أيضاً

مع الشريعة الموسوية ، نسبة على أساسه . ولكنهم احرقوا على مدى الزمن ، وهبطوا في تصوراتهم إلى الوثنيات ، وأثسوا في كتبهم (المقدسة !) وفي صلب (العهد القديم) أساطير وتصورات عن الله - سبحانه - لا ترتفع عن أحط التصورات الوثنية للإعريق وغيرهم من الوثنيين ، الذين لم يتلقوا رسالة سماوية ، ولا كان هم من عبد الله كتاب . . .

ولقد كانت عقيدة تنوحيد التي أسسها جددهم إبراهيم - عليه السلام - عقيدة حليصة بصعة شاملة متكاملة واحده بها لوشبه مواجعة حاسمة كما صورها القرآن الكريم ، ووصى بها إبراهيم نبيه كما وصى بها يعقوب نبيه قبل أن يموت

« وأتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ؟ قالوا بعد أصنامنا فظل لها عاكفين ! قال هل يسمعونكم إذ تدعون ؟ أو ينعوبكم أو يضررون ؟ قالوا بل وجدنا بآباءنا كذلك يفعلون ! قال : أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآبائكم الأقدمون ؟ فإنهم عدوا لي إلا رب العالمين الذي خلقني فهو يهدين والذى هو يصمى ويسقى . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يمتنئى ثم يخس . والذى أطعم أن يغفر لى خطيئتي يوم الدين رب هب لى حكماً وألحقنى بالصالحين . واجعل لى لسان صدق فى الآخرين . واجعلنى من ورثة حبة النعيم واعمر لأبى إنه كان من الصالحين ولا تحزنى يوم نعتون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » .

(الشعراء ٦٩ - ٨٩)

« ومن يربع عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ؟ ولقد اصطفيه فى الدنيا ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم . قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم نبيه ويعقوب بنى إن الله صطفى لكم الدين ، فلا تخوفوا إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ؟ إذ قال لنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا بعد إهناك وآله آباءك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، إلهنا واحداً ونحن له مسلمون » .

(البقرة ١٣٠ - ١٣٣)

ومن هذا التوحيد الخالص ، وهذه العقيدة الباصعة ، وهذا الاعتقاد في الآخرة
تتكس الأحفاد وصلوا في انتكاسهم حتى حاهم موسى عليه لسلام بعقيدة
التوحيد واشتره من جديد . . . والقرآن الكريم يذكر أصول هذه العقيدة التي حاهم
موسى - عليه السلام - في إسرائيل ، ويذكر تراجمهم عنها .

« وإد أحد ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وباللهدين إحساناً ، ودي
لقربى واليتامى والمساكين . وقرلوا للناس حسناً وأقموا الصلاة وأتوا الركاة ثم
توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون وإذا أحدياً ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ، ولا
تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتهم وأنتم تشهدون . ثم أنتم هؤلاء تفلون
أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ، تطاهرون عليهم بالإثم والعدوان . . . »
(السورة ٨٣ - ٨٥)

« ولقد حاهم موسى بالبيات ثم اتحدثم العجل من بعده وأنتم ظالمون وإذا
أخذنا ميثاقكم ، ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا
سمعنا وعصينا ، وأشرنا في قلوبهم العجل بكفرهم . قل : نسيأ بأمركم به
إيمانكم إن كنتم مؤمنين » .

(البقرة : ٩٢ - ٩٣)

ولقد بدأ انحرافهم ، وموسى عليه السلام بين أظهرهم من ذلك عبادتهم
للعجل الذي صعه هم السامري ، من الذهب الذي حملوه معهم من حل نساء
المصريين وهو العجل الذي أشير إليه في الآيات السابقة وقبل ذلك كانوا قد
مروا عقب حروبهم من مصر ، على قوم يعبدون لأصنام ، فطسوا إلى موسى عليه
السلام أن يقيم لهم صنماً يعبدونه !

« وجاورت بني إسرائيل البحر فأنوا على قوم يعكمون على أصنامهم قالوا يا
موسى جعل لك إلهة لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه
وباصل ما كانوا يعملون » .

(الأعراف : ١٣٨ - ١٣٩)

وكذلك حكى القرآن الكثير عن انحرافهم وسوء تصورهم لله سبحانه وشركهم
ووثنيهم .

« وقالت اليهود عرير ابن الله » . .

(التوبة : ٣٠)

« وقالت اليهود : يد الله معلولة . علت أيديهم ، وأعو بها قالوا : بل يده مسوطة ، كيف يشاء » . .

(المائدة : ٦٤)

« لقد سمع الله قول الذين كانوا : إن الله فقير ويحي أعياء . سكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق . ونقول : دووقوا عذاب الحريق »

(آل عمران : ١٨١) .

« وإذ قلتم : يا موسى . لن نؤمن بك حتى يرى الله جهرة ، فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون »

(لقطة . ٥٥)

ومن لؤثة القومية واعتقادهم أن إلههم إله قومي ! لا يحاسبهم بشانون الأخلاق إلا في سلوكهم مع بعضهم البعض . أما العرباء - عبر اليهود - فهو لا يحاسبهم معهم على سلوك معيب . من هذه اللؤثة كان قوهم الذي حكاها القرآن الكريم « وأوصيهم من إن تأممه مديبر لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً » ذلك بأنهم قالوا ليس عليك في الأميين سبيل . ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون »

(آل عمران : ٧٥)

وقد تصمت كتبهم المحرقة أوصافاً لإلههم لا ترتفع كثيراً على أوصاف الإغريق في وثيتهم لأهتهم :

حاء في الإصحاح الثالث من سفر التكوين (بعد ارتكاب آدم لخطيته الأكل من الشجرة . وهي كما يقول كاتب الإصحاح . شجرة معرفة الخير والشر) .
« وسمع صوت الرب الإله ماشياً في الحية عند هبوب ربح النهار . فاحتأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله ، في وسط شجر الحية . فنادى الرب الإله آدم . وقال له : أين أنت ؟ فقد سمعت صوتك في الحية ، فحشيت لأنني عريان ، وحشأت . فقال من أعمدك أنك عريان ؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألا تأكل منها ؟ .

« وقال الرب لإلهه . هو ذا الإنسان قد صار كواحد من . حرقاً للخير والشر ،
والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ! ويأكل ويحيى إلى الأبد . فأخرجه
الرب الإله من جنة عدن ، يعمص في الأرض التي أخذ منها . فطرد الإنسان وأقام
شرقيّ جنة عدن الكروبيم وطيب سيف متقب ، لحراسة شجرة الحياة ! »
وعن مسب الطوفان جاء في هذا السمر نفسه :

« وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض ، وولد لهم بنات . أن أساء الله رأوا
بنات الناس أسوأ حسرات . وتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا . فقال
الرب : لا يدين روعي في الإنسان إلى الأبد . لزيغانه . هو بشر وتكون أيامه مئة
وعشرين سنة . . كان في الأرض طغاة في تلك الأيام . وبعد ذلك أيضاً إذ دخل
سوء الله على بنات الناس وولد أولاداً . هؤلاء هم الخائنة ، الذين منذ لدهر ذور
اسم !!!

« ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض . وأن كل تصور أفكار قلبه إساءة هو
شرير كل يوم . فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه . فقد
الرب أمحور عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقت . الإنسان مع هائم وديبات وطيور
السماء . لا شيء حريت أمي عملتهم . وأما نوح فوجد نعمة في عبي الرب » .
وجاء في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين (بعد ما عمرت الأرض بذريرة
نوح) .

« وكانت الأرض كلها لساناً واحداً ولهجة واحدة . وحدث في ارتحاهم شرقاً أنهم
وجدوا نعمة في أرض شنعار ، وسكنوا هناك . وقال بعضهم لبعض : هلم نصنع
لسناً ونشويه شيئاً ، فكان لهم اللين مكان الحجر . وكان لهم الحمر مكان الطين
وقالوا : هلم بنا لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه بالسما . ونصنع لأنفسنا اسماً لئلا نتدد
عبي وجه كل الأرض . فنزل الرب المدينة والبرج اللذين كان سو آدم يسونهي . وقال
الرب : هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم ، وهذا ابتدأهم بالعمل . والآن
لايمنع عليهم كل ما يورون أن يعملوه . هلم بنا وسلب هناك لسانهم ، حتى لا
يسمع بعضهم لسان بعض . ففككهم الرب من هناك على وجه كل الأرض فكفوا

عن بين المدينة . لذلك دعى اسمها (بابل) لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض
ومن هناك بدهم الرب على وجه كل الأرض « ١١١ »

وجاء في سفر صموئيل الثانى الإصحاح الرابع والعشرين « ففعل الرب وبة
في إسرائيل من الصباح إلى بعدد . فمات من الشعب - من دان إلى بئر سبع - سبعون
ألف رجل . وبسط الملاك يده على أورشليم ليهنكها . فندم الرب عن الشر . فقل
للملاك المهلك الشعب : كفى الآن رويدك ! » .

* * *

ولم تكن الحال مع النصرانية حيراً ما كانت مع اليهودية . بل كان الأمر أدهى
وأمر . عبرت النصرانية إلى الدولة الرومانية الوثنية في أشد عصور الوثنية والانحلال
في هذه الدولة . ثم أحدثت انتشار حتى استطاعت أن تولى قسطنطين مراطوراً في
سنة ٣٠٥ ميلادية . ومن ثم دخلت الإمبراطورية الرومانية في النصرانية . لا لتحضع
لنصرانية . ولكن لتحضع النصرانية لوثنتها العريقة . وفي هذا يقول الكاتب
الأمريكى : دريس في كتابه ' « الصراع بين الدين ولعلم »

« دخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير المفاقيين ، الذين تقدسوا وظائف
حظيرة ، ومناصب عدلية في الدولة الرومانية ، تطاهروهم بالنصرانية . ولم يكونوا
يحفلون بأمر الدين . ولم يخلصوا له يوماً من الأيام . وكذلك كان قسطنطين . فقد
قصى عمره في الظلم والفساد ، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلاً في آخر
عمره سنة ٣٣٧ ميلادية

« إن الجماعة النصرانية ، وإن كانت قد بلغت من القوة بحيث ولت قسطنطين
الملث ولكنها لم تتمكن من أن تقطع دابر الوثنية ، وتقتلع جرثومتها . وكان نتيجة
كماحها أن احتللت مبادئها ، وشأ من ذلك دين جديد ، تتجى فيه النصرانية
والوثنية سواء سواء . هالك يحنف الإسلام عن النصرانية ، إذ قصى على نفسه
(الوثنية) قصاء مائاً ، وشر عقائده حائلة غير عثم .

« وإن هذا الإمبراطور الذى كان عدواً للدين ، والذى لم تكن عوائده لدية
سوى شيء ، رأى لمصحته وشخصه ، وبصحة لحرى المنافس - النصرانية

والوثني - أن يوحدهما ويؤلف بينهما - حتى أن البصاري الراسخين أيضاً لم يذكروا عليه هذه الخطأ ولعلمهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طعنت ونقحت بالعقائد الوثنية القديمة ، وسحب من الدين المصري ثقافة الأمر من أداس لوثنية وأرجاسها^(١) .

ولكن الديانة الجديدة لم تتخلص قط من أداس الوثنية وأرجاسها ، وتصورتها الأسطورية - كما أمّل البصاري الراسخون - فقد طلت تنلبس بالخلالات السيامية والعصرية ولطائفية ، بلسها بالأساطير الوثنية والتصورات لفلسفة ووقع الانقسام في التصور بغير حد .

قلت فرقة إن المسيح إسمه محض وقالت عرفة إن الأب والابن وروح القدس إن هي إلا صور مختلفة أعلن الله بها نفسه للناس فإله - برعمهم - مركب من أقانيم ثلاثة الأب والابن وروح القدس ؟ (والابن هو المسيح) فاحذر الله ، الذي هو الأب ، في صورة روح لقدس وتجسد في مريم اسماً ، وولد منها في صورة يسوع وفرقة قلت : إن الابن ليس أزلياً كالأب بل هو مخلوق من قبل لعالم ، ولذلك هو دون الأب وحاصص له . وفرقة أنكرت كون روح لقدس أقوماً . . . وقرر مجمع بيقية سنة ٣٢٥ ميلادية ، ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ أن الابن وروح القدس مساويان للأب في وحدة اللاهوت ، وأن الابن قد ولد منذ الأزل من الأب ، وأن روح القدس منبثق من الأب . وقرر مجمع طيطنة سنة ٥٨٩ بأر روح القدس منبثق من الابن أيضاً فاحتلقت الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية عند هذه النقطة وظلتا مختلفتين كذلك أهت جماعة منهم مريم كما ألهو المسيح عيه السلام ويقول الدكتور أنمرد تشر في كتابه « فتح العرب لمصر » ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد :

« إن دينك القريين - الخامس والسادس - كان عهد بصال متصل بين المصريين والرومانيين بصال يدعيه اختلاف في الحسن ، واختلاف في الدين وكان

(١) ترجمة الأستاذ السيد أبو الحسن الندوي في كتابه « ماذا خبر العالم بأسخطط المسلمين »

اختلاف الدين أشد من اختلاف الجنس . إذ كانت علة العزل في ذلك الوقت تلك
العداوة بين الملكانية والنفيسية وكانت الطائفة الأولى - كما يدل عليه اسمها -
حزب مذهب الدولة الإمبراطورية وحزب الملك والبلاد وكانت تعتقد لعقيدة السية
الموروثة - وهي اردواح طبيعه المسيح - على حين أن الطائفة الأخرى - وهي حزب
القط المنوفيسيين - أهل مصر - كانت تستشع تلك لعقيدة وتستقصعها ، وتحارب
حرباً عيفة في حماسة هوجاء ، يصعب علينا أن نتصورها ، أو نعرف كنهها في قوم
يعقلون ، بله يؤمنون بالإنجيل !»

ويقول « سيرت و أربوند » في كتابه « الدعوة إلى الإسلام » عن هذا
الاختلاف ، ومحاوية هرقل لتسويته بمذهب وسط :

« ولقد أفلح جستنيان Justinian قبل الفتح للإسلام بمئة عام في أن يكسب
الإمبراطورية الرومانية مطهراً من مظاهر الوحدة ولكنها سرعان ما تصدعت بعد
موته ، وأصبحت في حاجة ماسة إلى شعور قومي مشترك ، يربط بين لولايات
وحاضرة الدولة . أما هرقل فقد سل جهوداً لم تصادف نجاحاً كاملاً في إعادة ربط
الشام بالحكومة المركزية ولكن ما اتخذه من وسائل عامة في سبيل التوفيق قد أدى
لسوء الحظ إلى زيادة الانقسام بدلاً من القصاء عليه ولم يكن ثمة ما يقوم مقام
الشعور بالقومية سوى العواطف الدينية فحاول بتفسيره العقيدة تفسيراً يستعين به
على تهدئة النفوس ، أن يقف كل ما يمكن أن يشجر بعد ذلك بين الطوائف المتناحرة
من خصومات ، وأن يوحد بين المخارحين على الدين وبين الكنيسة الأرثوذكسية ،
وبينهم وبين الحكومة المركزية

« وكان مجمع حلفيدوبه قد أعلن في سنة ٤٥١ م « أن المسيح ينبغي أن يُعترف بأنه
يتمثل في طبيعتين ، لا اختلاط بينهما ، ولا تعير ولا تحرؤ ، ولا انفصال ولا يمكن أن
يتفق اختلافهما بسبب اتحادهما بل لأخرى أن تحتفظ كل طبيعة منهما
بخصائصها ، وتجتمع في أقنوم واحد ، وحسد واحد ، لا كم لو كانت متحرثة أو
منفصلة في أقنومين من متجمعة في أقنوم واحد هو ذلك لأن الواحد والله
ولكلمة .

« وقد رفض اليعاقبة هذا المجمع وكانوا لا يعترفون في المسيح إلا بطبيعة واحدة وقالوا ، إنه مركب الأقاليم ، له كل الصفات الإلهية وبشرية ولكن المادة التي تحمل هذه الصفات لم تعد ثنائية ، بل أصبحت وحدة مركبة الأقاليم . »
 « وكان الخلل قد احتدم قرابة قرنين من الزمان بين طائفة الأرثوذكس وبين اليعاقبة الذين ردهموا بوجه خاص في مصر والشام ، والبلاد الخارجة عن نطاق الإمبراطورية البيزنطية ، في الوقت الذي سعى فيه هرقل في إصلاح ذات البين عن طريق المذهب انقضى بأن للمسيح مشيئة واحدة Monothelism : فهي الوقت الذي نجد هذا المذهب يعترف بوجود الطبيعتين ، إذا به يتمسك بوحدة الأقسام في حياة المسيح الشريفة وذلك بإنكاره وجود نوعين من الحياة في أقنوم واحد فالمسيح الواحد ، الذي هو ابن الله ، يحقق أحاسيس الإنسانية ، والحنوب الإلهي بقوة إلهية إنسانية واحدة . ومعنى ذلك أنه لا يوجد سوى إرادة واحدة في الكلمة المتجسدة »
 « لكن هرقل قد لقي المصير الذي انتهى إليه كثيرون جدا ، ممن كانوا يأملون أن يقيموا دعائم السلام ، ذلك أن الخدم لم يجتهدوا مرة أخرى كأعنف ما يكون الأعداء فحسب . بل إن هرقل نفسه قد وصم بالإلحاد ، وجر على نفسه سحق الطائفتين سواء »^(١) !

وقد ورد في القرآن الكريم بعض الاشارات إلى هذه الانحرافات ، ونهى لأهل الكتاب عنها ، وتصحيح حاسم لها ، وبين لأصل العقيدة البصراية كما جاءت من عند الله ، قل التحريف والتأويل :

« لقد كفر الذين قالوا - إن الله هو المسيح ابن مريم - وقال المسيح يا بني إسرائيل عبدوا الله ربي وربكم ، إنه من شرك الله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمس الله عليهم عذاب أليم أفلا يتوبون إلى الله ويستعفرونه ، والله غفور رحيم ؟ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صدقة كانا ياكلان الطعام انظر كيف نبين لهم

(١) ص ٥٢ من الترجمة العربية للدكتور حسن إبراهيم حسن ورميليه

الآيات ، ثم «طرأني يؤفكون قل أنعدود من دون الله ما لا يملك لكم صرا ولا
معاً ؟ والله هو السميع العليم قل يا أهل الكتاب لا تعلوا في دينكم غير الحق
ولا تتبعوا أهواء قوم قد صدوا من قبل ، وأصلوا كثيراً ، وصلوا عن سوء
السييل» . .

(المائدة : ٧٢-٧٧) .

« وقلت اليهود عرير اس الله وقلت البصاري المسيح اس الله ذلك قولهم
بأفواههم ، يصاهنون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون »^{٢٤}
(التوبة ٣٠) .

« وإذا قل لله : يا عيسى اس مريم ، أنت قلب لئاس الخدوي وأمي إهين
من دون الله ؟ قال سبحانه : ما يكون لي أب أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته
فقد عنته . تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إني أنت علام الغيوب ما
قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربي وربكم . وكب عنهم شهيداً ما دمت
فيهم فلم توفيتني كنت أنت الرقب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد إن
تعدهم فلهم عبادك ، وإن تعمر لهم فإنك أنت بعير حكيم »

(المائدة ١١٦-١١٨)

« وهكذا يرى مدى الانحراف لدى دخل على نصرانية ، من حراء تلك
الخلاصات التاريخية ، حتى انتهت إلى تلك التصورات الوثنية الأسطورية ، التي
دبرت عليها الخلافات والمذاهب عدة قرون !

* * *

أما الحزيرة العرصة التي برل فيها انقراض ، فقد كانت تعج بركام العقائد
والتصورات ومن بينها ما نقلته من الفرس وما تسرب إليها من اليهودية والمسيحية
في صورتها المسحوفة . مصفاً إلى وثيبتها الخاصة المتحفة من الانحرافات في ملة
إبراهيم التي ورثها العرب صحيحة ثم حرفوها ذلك التحريف والقرآن يشير إلى
ذلك ابركهم كله بوصوح .

رغموا أن الملائكة ساب الله - مع كراهيتهم هم للسات ا - ثم عبدوا الملائكة - أو
تماثيلها الأصنام - معتقدين أن لها عبد لله شعاعة لا برد ، وأهم يتقربون بها إليه
سجاده :

« وجعلوا له من عبده حراً . إن الإنسان لكفور مبين . ثم اتحد مما يخلق نبات وأصفاكم بالنبين وإذا بشر أحدهم بما صرت لرحمن مثلاً طل وجهه مسوداً وهو كظيم أو من ينشأ في الحدية وهو في الخصام غير مبين ؟^(١) وجعلوا الملائكة - الذين هم عباد الرحمن - إناثاً . أشهدوا خلقهم ؟ سنكتب شهادتهم ويسألون . وقالوا : لو شاء الرحمن ما عبدناهم . ما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا بخرصون . . .

(الزحرف : ١٥ - ٢٠)

« ألا لله الدين الخالص . والدين اتحدوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون ، إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى مما يخلق ما يشاء . سبحانه هو الله الواحد القهار . . .

(الزمر : ٣ - ٤)

« ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ولا يفقههم ، ويقولون : هؤلاء شعائنا عند الله . قل : أتستون الله ، لا يعلم في السموات ولا في الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون »

(يونس : ١٨)

ورغموا أن بين الله - سبحانه - وبين لجنة نسباً وأن له - سبحانه - منهم صاحبة . ولدت له الملائكة ! وعبدوا آخر أيضاً . قال الكلبي في كتاب الأصنام : « كانت بنو ملبع من خزاعة يعبدون الجن »^(١) . وجاء في القرآن الكريم عن هذه الأسطورة :

« فاستفتهم : أربك الساب وهم النون ؟ أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ؟

ألا إسم من إفكهم ليقولون ولداً لله . وبهم لكادبون أصطفى البنات على السب ؟ مالكم ؟ ؟ كيف تحكمون ؟ أفلا تذكرون ؟ أم لكم سلطان مبين ؟ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين . وجعلوا بينه وبين الجنة سباً ، ولقد علمت الجنة إسم لمحضرون . سبحانه الله عما يصفون . . .

(الصافات : ١٤٩ - ١٥٩)

(١) كتاب الأصنام ، ص ٣٤

« ويوم يحشرهم جميعاً ، ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك أنت وليب من دوسهم بل كانوا يعبدون أحسن أكثرهم بهم مؤمنون »
(سأ : ٤٠-٤١)

وشاعت بينهم عبادة الأصنام إما بوصفها تماثيل للملائكة ، وإما بوصفها تماثيل للأجساد ، وإما لذاتها . وكانت الكعبة ، التي سبقت لعبادة الله الواحد ، تعبد بالأصنام ، إذ كانت تحوى على ثلاثمائة وستين صنماً . غير الأصنام الكبرى في جهات متفرقة . ومنها ما ذكر في القرآن بالاسم كاللات والعزى ومناة . ومنها مثل الذي روى أبو سفيان باسمه يوم « أحد » قائلاً : « علّ هبل ! »

ومما يدر على أن اللات والعزى ومناة كانت تماثيل للملائكة ما جاء في القرآن في سورة السجدة :

« أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ؟ ألكم الذكر وبه الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى ! إن هي إلا أسماء سعتتموها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن يتبعون إلا بطول وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى أم للإنسان ما تمنى ؟ فله الآخرة والأولى . وكم من ملك في السموات لا تغنى شفعاتهم شيئاً . إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى . إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنبياء وما لهم به من علم ، إن يتبعون إلا بطول ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً » .

(السجدة : ١٩-٢٨)

وانحطت عبادة الأصنام فيهم حتى كانوا يعبدون جسس الحجر !

روى ابن جباري عن أبي رجاء العطاردي قال « كنا نعبد الحجر فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأحدنا الآخر ! فإذا لم نجد حجراً حثوة من تراب ، ثم حث بالشارة فحلبنا عليه ، ثم طقمناه » (١) .

وقال الكشي في كتاب الأصنام : كان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أحد أربعة أحجار فطمر إلى أحسها ، فجعله رثاً ، وجعل ثلاث أثافي لقطره . وإذا ارتحل تركه » (٢) .

(١) الجامع الصحيح كتاب العزى

(٢) لأصنام للكشي ص ٣٤

وعرفوا عبادة الكواكب . كما عرفها الفرس من بين عبادتهم - قال صاعد كنت
 حير تعد الشمس وكبة القمر وتقيم الديوان وتقيم وحداً المشتري وطي
 سهيلاً . وقيس الشعري العنور . وأسد عطارد ^(١)

وقد جاء عن هذا في سورة فصلت :

« لا تسجدوا للشمس ولا للقمر . واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه
 تعدون » .

(فصلت ٣٧)

وجاء في سورة النجم :

« وأنه هو رب الشعري » . . .

(النجم : ٤٩) .

وكررت الإشارات إلى خلق لاجوم والكواكب وروية الله سبحانه هذه كيفية
 خلأقه . وذلك لنفي ألوهية الكواكب وعبادتها . .

وعلى العموم فقد تعدلت عقائد اشرك في حبيتهم فقامت على أساسها
 الشعائر الفاسدة ، التي أشار إليها القرآن الكريم في مواضع كثيرة من ذلك
 جعلهم بعض نهار لررورع ، وبعض شاح الأعدم خاصا هذه الآلهة المدعاة ، لا
 نصيب فيه لله - سبحانه - وأحياناً يحرمونها على أنفسهم . أو يحرمون بعضها على
 ربانهم دون ذكورهم أو يمعون ظهور بعض الأنعام على الركوب أو الذبح
 وأحياناً يقدمون أساءهم دنائح لهذه الآلهة في بدر . كالذي روى عن بدر عبد المطلب
 أن يذبح له العاشر ، إن وهب عشرة أبناء يحموه فكان العاشر عبد الله ثم
 اقتناه من الآلهة ستة ناقة ١ وكان أمر الفتوى في هذه الشعائر كلها للكواهن
 والكهات ١

وفي هنا يقول القرآن الكريم :

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هـ لله - برعهم -
 وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى

(١) طبقات الأسم صاعد من ٤٣٠ (فلا عن كتاب ماذا حمر العالم باسحطاط المسلمين)

شركائهم سواء ما يحكمون ا وكذبت رئين لكثير من المشركين قبل أولادهم
 شركائهم ، ليردوهم ، وليلبسو عليهم ديبهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما
 يفترون وقالوا هذه أنعام وحرت حجر ، لا يطعمها إلا من شاء - برعهم - وأنعم
 حرمت ظهورها . وأنعم لا يدكرون اسم لله عليها - افتراء عليه - سيحريهم بها كانوا
 يفترون وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ، ومحرم على أرجاسنا
 وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيحريهم وصنعهم إنه حكيم عليم قد خسر
 الدين قتلوا أولادهم سبها بغير علم ، وحرمو ما رزقهم الله افتراء على الله . قد
 صلوا وما كانوا مهتدين .

(الأنعام : ١٣٦ - ١٤٠)

وكانت فكرة التوحيد الخاصة هي أشد الأفكار عربة عندهم ، هي وفكرة البعث
 سواء ذلك مع اعتقادهم بوجود الله - سبحانه وتعالى - وأنه الخالق للمساوات
 والأرض وما سبها ولكمهم ما كانوا يريدون أن يعترفوا بمقتضى الوحدانية هذه وهو
 أن يكون الحكم لله وحده في حياتهم وشؤونهم ، وأن يتلقوا منه وحده خلال
 والحرام ، وأن يكون إله وحده مرد أمرهم كله في الدنيا والآخرة وأن يتحاكموا في كل
 شيء إلى شريعته ومعهجته وحده . . . الأمر الذي لا يكون بغيره دين ولا إيمان . يدل
 عن ذلك ما حكاه القرآن الكريم من معارضتهم الشديدة غايتين الحقيقتين
 « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل
 الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشيء عجاب وانطلق الملائمهم أن امشوا واصبروا
 على آفتكم إن هذا لشيء يراد ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ، إن هذا إلا
 حلال » . . .

(ص : ٤ - ٧)

« وقال الذين كفروا هو يدكم على رحى يسكنكم - إذا مرقم كل مرق - إكم
 لفي خلق جديد ؟ افتري على الله كذبا أم به حة ؟ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في
 العذاب والضلال البعيد »

(سبأ : ٧ ، ٨)

هذه هي الصورة الشائنة لتصورات في الحرية العربية نضيقها إلى ذلك الركز من بقايا العقائد السماوية المنحرفة ، التي كانت سائدة في الشرق والغرب ، يوم جاء الإسلام ، فنجمع منها صورة مكتملة لذلك الركز الثقيل ، الذي كان يحتم على ضمير البشرية في كل مكان ، ولدى كانت ستق منه أنظمتهم وأوصاعهم وأدائهم وأحلاقهم كذلك^(١)

ومن ثم كانت عناية الإسلام الكرى موجهة إلى تحرير أمر العقيدة ، وتحديد الصورة الصحيحة التي يستقر عليها الضمير البشرى في حقيقة الألوهية ، وعلاقتها بالخلق ، وعلاقة الخلق بها . فتستقر عليها نظمهم وأوصاعهم ، وعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وآدابهم وأحلاقهم كذلك . فما يمكن أن تستقر هذه الأمور كلها ، إلا أن تستقر حقيقة الألوهية ، وتبين خصائصها واختصاصاتها . وعى الإسلام عناية خاصة بربصاح طيعة لخصائص والصفات الإلهية ، لتعققة بالخلق والإرادة والهيمنة والندير . ثم بحقيقة الصلة بين الله والإنسان . فلقد كان معظم الركز في ذلك التيه الذى تحيط فيه العقائد والفلسفات ، مما يتعلق بهذا الأمر الخطير الأثر في الضمير البشرى وفي الحياة الإنسانية كلها

ولقد جاء الإسلام - وهذا ما يستحق الانتباه والتأمل - بما يعد تصحيحاً لجميع أنواع البلبلة ، التي وقعت فيها الديانات المنحرفة ، والفلسفات الخاطئة في الطلام وما يعد رداً على جميع الانحرافات والأخطاء التي وقعت فيها تلك الديانات والفلسفات . سواء ما كان منها قبل الإسلام وما حذ بعده كذلك . فكانت هذه لظاهرة العممية إحدى الدلائل على مصدر هذا الدين . المصدر الذى يحيط بكل ما همجس في حاطر البشرية وكل ما يهيجس ، ثم يسأوله بالتصحيح والتنقيح ! والذى يراجع ذلك الجهد المنظاول الذى بذله الإسلام لتقرير كلمة الفصل في ذات الله - سبحانه - وفي صفاته . وفي علاقه بالخلق وعلاقة الخلق به . .

(١) أم الصورات والفلسفات والمذهب البنى وحدث بعد الإسلام ، وبخاصة البنى قام عليها الفكر العربى وحياة العربية ، والبنى يعيش بها البشرية اليوم في عرب أوروبا وفي شرقها كذلك . فلم تجزى محج من هذا الركز . ويستندول بعضها بالبيباك في مواضعه المدسية في قصور الكتاب

ذلك الجهد الذى تمثله النصوص الكثيرة - كثره ملحوظة - فى القرآن الحكيم بصفة خاصة ، وفى القرآن كله على وجه العموم .

الذى يراجع ذلك الجهد المتطاوّل ، دون أن يراجع ذلك الركن الثقيل ، فى ذلك التيه الشاسع ، الذى كانت لشريعة كلها محط فيه ، وندى ظلت محط فيه أيضاً كما انحرقت عن مهج لله أو صدت عنه ، واتسعت السبيل ، فتنفرت به عن مسيبه الواحد المستقيم . .

الذى يراجع ذلك الجهد ، دون أن يراجع ذلك الركن ، قد لا يدرك مدى الحاجة إلى كل هذا البيان المتكرر فى القرآن ، وإلى هذا التدقيق لدى يتسع كل مسائل الضمير وكل مسائل الحياة

ونكن مراجعة ذلك الركن تكشف عن ضرورة ذلك الجهد ، كما تكشف عن عظمة الدور الذى حامت هذه العقيدة لتؤديه فى تحرير الضمير البشرى وإعتاقه ، وفى تحرير الفكر البشرى وإطلاقه ، وفى تحرير الحياة وإحياء تقوم على أساس التصور الاعتقائى كفى كان

عندئذ يدرك قيمة هذا التحرر فى إقامة الحياة على منهج سليم قويم ، يستقيم به أمر الحياة البشرية ، وتنحو به النساد والتخبط ومن انظلم أو الاستدلال . . ويدرك قيمة قول عمر - رضى الله عنه - " بنقص الإسلام عروة عروة من شأ فى الإسلام ولم يعرف الجاهلية " . فالذى يعرف الجاهلية هو الذى يدرك قيمة الإسلام ، ويعرف كيف يحرص على رحمة الله المتمثلة فيه ، ورحمة الله بتحقيقه به

إن حمان هذه العقيدة وكملها وتبسطها ، وبساطه الحقيقة لكثرة التى تمثها إن هذا كله لا تحل للقلب والعقل ، كما يتجنى من مراجعة ركام جاهلية - سابقة للإسلام واللاحقة - عندئذ تدو هذه العقيدة رحمة رحمة حقيقية . رحمة للقلب والعقل ورحمة بالحياة والأحياء رحمة بما فيها من همال وبساطة ، ووضوح وناسق ، وقرب وأس ، وتجذوب مع العطرة مباشر عميق وصدق الله العظيم :

« أَمَرَ بِمَشَى مَكَا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى ؟ أَمْ مِنْ يَمْشَى سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ؟ » .

خصائصُ التصوّر الإسلامي

«صِفَةُ الْإِلهِ وَمِنْ أَحْسَنُ مِنْ الْإِلهِ صِفَةُ»

للتصوّر الإسلامي خصائصه المميزة ، التي تفرده من سائر التصورات ، وتجعل له شخصيته المستقلة ، وطبيعته الخاصة ، التي لا تتلص بالتصور آخر ، ولا تستمد من تصور آخر .

هذه الخصائص تتعدد وتنوع ، ولكنها تتصم وتتحجم عند خاصية واحدة ، هي التي تنشق منها وترجع إليها سائر الخصائص خاصية الربانية . .

إنه تصور رباني جاء من عند الله بكل خصائصه ، وبكل مقوماته ، وتلقاه «الإنسان» كاملاً بخصائصه هذه ومقوماته ، لا ليزيد عليه من عنده شيئاً ، ولا ليقتصر كذلك منه شيئاً ولكن لينكيف هو به ويلصق مقتضياته في حياته

وهو - من ثم - تصور غير متطور في ذاته ، إنما تتطور اشترية في إطاره ، وترتقى في إدراكه وفي الاستجابة له . وتصل تتطور وترقى ، وتتمو وتتقدم ، وهذا الإطار يسعها دائماً ، وهذا للتصور يقوده دائماً لأن المصدر الذي أنشأ هذا التصور ، هو نفسه مصدر الذي خلق الإنسان هو الخالق المدبر ، الذي يعلم طبيعة هذا الإنسان ، وحاجات حياته المتطورة على مدى الزمن . وهو الذي جعل في هذا التصور من الخصائص ما يلبي هذه الحاجات المتطورة في داخل هذا الإطار

وإذا كانت لتصورات والمذاهب والأنظمة التي يصنعها البشر لأنفسهم - في معزل عن هدى الله - تحتاج دائماً إلى التطور في أصرها ، وانتحور في قواعدها ، والانقلاب أحياناً عليها كلها حين تصبى عن البشرية في حجمها المتطور أو في حاجاتها المتطورة . إذا كانت تلك لتصورات والمذاهب والأنظمة التي هي من صنع البشر ، تعرض لهذا وتحتاج إليه ، فذلك لأنها من صنع بشر أو البشر القصار البصر الذين

لا يرون إلا ما هو مكتشف لهم من الأحوال والأوضاع واحتاجت في فترة محدودة من الزمان ، وفي قطاع خاص من الأرض رؤية فيها - مع هذا - قصور الإنسان وجهل الإنسان ، وشهوات الإنسان ، وتأثيرات الإنسان - فأما التصور الإسلامي - ربوبيته - فهو يخالف في أصل تكوينه وفي خصائصه ، تلك التصورات البشرية ، ومن ثم لا يحتاج - في ذاته - إلى التطور والتغير - فابدى وضعه يرى بلا حدود من الزمان والمكان . ويعلم بلا عوائق من الجهل ولقصور ويختار بلا تأثير من الشهوات والاضغالات - ومن ثم يصع للكينونة البشرية كلها ، في جميع أزمائها وأطوارها . أصلاً ثباتاً تتطور هي في حدوده وترتقى ، وتتم وتقدم دون أن تحتك بحدود هذا الإطار !

إن الحركة قانون من قوانين هذا الكون - فيما يبدو - وهي كذلك قانون الحياة البشرية - بوصفها قطاعاً من الحياة الكونية - ولكنها ليست حركة مطلقة من كل قيد ، وليست حركة يعبر صباط ولا نظام . فكل نجم ولكل كوكب فلكه ومداره ، وله كذلك محوره الذي يدور عليه في هذا المدار . وكذلك الحياة البشرية لا بد لها من محور ثابت ، ولابد لها من فلك تدور فيه - وإلا انتهت إلى العوصى وإلى الدمار . كما لو انتهت نجم من مداره ، أو ظل يعبر محوره بلا صباط ولا نظام ! ومن ثم كان هذا التصور الرباني ثباتاً ، لتدور الحياة البشرية حوله ، وتتحرك في إطاره ، وهو مصوغ بحيث يسعها دائماً ويشدها دائماً وهي تتمر وترتقى ، وهي تتطور وتتحرك إلى الأمام .

وهو - من ثم - كامل متكامل لا يقل تسمية ولا تكميلاً ، كما لا يقل « قطع عيار » من خارجه . فهو من صنعة الله ، فلا يتناسق معه ما هو من صنعة غيره . والإنسان لا يملك أن يصيب إليه شك ، ولا يملك أن يعدل فيه شيئاً - إنه هو جاء ليصيب إلى الإنسان لسميه وبعده ونظوره ويدفع به دائماً إلى الأمام - جاء ليصيب إلى قلبه وعقله ، وإلى حياته وواقعه - جاء ليوقف كل طاقات الإنسان واستعداداته ، ويطلقها تعمل في إيجابية كاملة ، وفي ضبط كذلك وهداية ، وتؤتي أقصى لمراتب الطبيعة ، مصوبة من التمدد في عبر ميدانها ، ومن انتعاض عن إبرار

مكتوب ، ومن الانحراف عن طبيعته ووجهتها ، ومن انفساد نأى من عوامل الفساد وهو لا يحتاج فى هذا كنه إلى استعارة من خارجة ، ولا إلى دم غير دمه ، ولا إلى منهج غير منهجه بل إنه لمتعمد أن يتفرد هو فى حياة البشر ، بمفهوماته وإيجاءاته ومنهجه ومبادئه وأدواته كى تتناسق حياة البشر مع حبه الكون - أى فى عيش فى إطاره - ولا تضطرب حركتها بحركة الكون فصعها لعطب والدمار!

وهو - من ثم - شامل متوارى مطور فيه إلى كل جوانب الكيفية البشرية أولاً ومطور فيه إلى توارى هذه الجوانب وتناسقها أخيراً ومطور فيه كذلك إلى جميع أطوار الحسن البشرى ، وإلى توارى هذه الأطوار جميعاً بما أن صانعها هو صانع هذا الإنسان الذى خلق ، وبنى يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير عيسى أممه سبحانه - مجهول بعيد عن أفق النظر من حياة هذا الحسن ، ومن كل الملائكات التى تحيط بهذه الحياة ومن ثم فقد وضع له التصور الصحيح الشامل لكل جوانب كسوته ، وبكل أطوار حياته المتوارى مع كل جوانب كسوته ومع كل أطوار حياته الوقعى المتناسق مع كسوته ومع كل ظروف حياته

وهو - من ثم - الميران الموحيد الذى يرجع إليه الإنسان فى كل مكان وفى كل زمان ، بتصوراته وقيمه ، ومنهجه ونظمه ، وأوصافه وأحواله ، وأخلاقه وأفعاله ليعلم أن هو من الحق وأين هو من الله وليس هالك مبرح بحر يرجع إليه ، وليس هالك مقررات سائمه ولا مقررات لاحقة يرجع إليها فى هذا السأبب بل هو بخلق قيمه ومواريه من هذا النصور ، ويكلفها عدله وقوله ، ويطعها سعوره وسوكة ، ويرجع فى كل أمر يعرض له إلى ذلك الميران « فىل يدعهم فى شىء مردوه إلى الله ورسوله ، كسم يؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تأويلاً » (النساء : ٥٩)

وفى حاضيه التصور الإسلامى الأساسى التى تحدد طبيعته - وفى سائر الخصائص التى نشأت منها يرى نصوص نفرد هذا النصور ، وتغير ملامحه ، ونصوص شخصيته بحيث يصح من الخطأ السهوى لأصل محدود استعارة أى مبرح ، أو أى منهج من منهج اسفكر المتداولة فى الأرض فى علم البشر - لتعامل

مهام هذا التصور الخاص المستقل لأصيل أو الأقسام منها والإضافة إلى ذلك
التصور الرباني الكامل الشامل .

وسنرى هذا بوضوح كلم تقدمنا في هذا البحث فكنتمى الآن بتحرير هذه
القاعدة اننى لابد من مراعاتها جيداً في كل بحث إسلامي ، في أى قطاع من
قطاعات الفكر الإسلامية أو المنهج الإسلامي . . فهذا هو مفرق الطريق
والآن فلننظر في هذه الخاصية الأساسية ، وفي الخصائص لتي تبثق منها ،
شيء من البياد والتعصين . .

الرَّيَانِيَّة

« قُلْ : إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »

الريانية أولى خصائص التصور الإسلامي ، ومصدر هذه الخصائص كذلك فهو تصور اعتقادي موحى به من الله - سبحانه - وعصور في هذا المصدر لا يسلم من غيره . وذلك تميراً من لتصورات الفلسفة التي يشتها الفكر البشري حول الحقيقة الإلهية ، أو الحقيقة الكونية ، أو الحقيقة الإنسانية ، والارتباطات القائمة بين هذه الحقائق ، وتمييراً له كذلك من المعتقدات الوثنية ، التي تنشئها المشاعر والأحيلة والأوهام والتصورات البشرية .

ويستطيع الإنسان أن يقول - وهو مطمئن - . إن التصور الإسلامي هو التصور الاعتقادي الوحيد الباقي بأصله « الرباني » وحقيقته « الربانية » . والتصورات الاعتقادية السماوية ، التي جاءت بها الديانات قبله ، قد دخلها التحريف - في صورة من الصور - كما رأينا - وقد أضيفت إلى أصول الكتب المنزلة ، شروح وتصورات وتأويلات وزيادات ، ومعلومات بشرية . أدجت في صلبها ، بدلت طبيعتها « الربانية » . وبقي الإسلام - وحده - محفوظ الأصول ، لم يشب نعه الأصل كدر ، ولم يفس فيه الحق بالباطل وصدق وعد الله في شأنه « إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون » . .

(الحجر : ٩)

وهذه هي الحقيقة المسلمة ، التي تجعل هذا التصور قيمته الفريدة . ومفروق الطريق بين تصور الفلسفي والتصور الاعتقادي - بصفة عامة - أن التصور الفلسفي يشأ في الفكر البشري - من صنع هذا الفكر - لمحاولة تفسير لوجود

وعلاقة الإنسان به وبكيفية بنى في حدود المعرفة الفكرية الباردة فأما التصور
لاعتقادي - في عمومته - فهو تصور يثق في التصدير ، ويتعامل مع لمشاعره ،
وبليس بالحياة فهو وشيجة حية بين الإنسان والوجود أو بين الإنسان وحال
الوجود

ثم يتميز التصور الإسلامي بعد ذلك عن التصور الاعنقادي - في عمومته - بأنه -
كأي أسلم - تصور رباني ، صادر من الله للإنسان . وليس من صمم الإنسان
تشفاه الكيوية الإنسانية بجمالها من درئها . ويست الكيوية الإنسانية هي التي
نشئت ، كأي تشيئ التصور الوثني ، أو التصور الفسفي - على اختلاف ما بينهما -
وعمل الإنسان منه هو تلقيه إدراكه والتكيف به ، وتطبق مقتضياته في الحياة
الشرية .

ويصن المصدر الإلهي الذي جاء بهذا التصور - وهو القرآن الكريم - على أنه كله
من عند الله - هبة للإنسان من لديه ، ورحمة له من عنده - وأن الفكر الشرقي -
مختلاً ابتداءً في فكر الرسول - صني الله عليه وسلم - أو فكر المرسل كنهم - باعتد
أهم جمعياً أرسلوا بهذا التصور في أصله - لم يشرك في إسنائه ، وإنما تلقاه تنقياً ،
ليتهدي به ويهدي وأن هذه هداية عطية من الله كذلك ، يشرح ها الصدور
وأن وظيفة الرسول - أي رسول - في شأن هذا التصور ، هي مجرد النقل الدقيق ،
والتلويح الأمين ، وعدم خلط الرحي الذي يوحى إليه من عند الله بأي تفكير شرقي -
أو كما يسميه الله سبحانه بالهوى ! أما هدية لقلوب به ، وشرح الصدور له ، فأمر
خارج عن اختصاص الرسول ، ومردّه إلى الله وحده في إسنائه

« وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان
ولكن جعلناه نورا آنهدي به من شاء من عبادك وإناك نتهدى إلى صراط مستقيم
صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله نصير الأمور » . .
(الشورى ٥٢ - ٥٣)

« والنجم إذا هوى ما صلت صاحبكم وما عوى ، وما يطلق عن الهوى إن هو
إلا وحي يوحى »

(النجم ١٠ - ٤)

« ولو تقول عليّ بعض الأقاويل لأحدنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين .
فما منكم من أحد عنه حاجزين » . .

(الخاقعة : ٤٤ - ٤٧)

« أيها الرسلون بلغ ما أُرسل إليكم من ربك وإن لم تعملوا بما بلغت رسالتكم »
(المائدة : ٦٧)

« بك لا تهدي من أحست ، ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم
بالمهتدين » .

(القصص : ٥٦)

« فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره
ضيقاً ضيقاً كأنها يصدّق في السوء » . .

(الأنعام : ١٢٥)

وهذا التوكيد على مصدر هذا التصور ، هو الذي يعطيه قيمته الأساسية ،
وقيمة الكبري . فهو وحده مناط الثقة في أنه التصور المبرأ من القصور ، المبرأ من
الجهل ، المبرأ من الهوى . هذه الخصائص المصاحبة لكل عمل بشري ، ولتى تراها
مجمعة في جميع التصورات التي صاغها البشر ابتداء من وثنيات وفلسفات أو إلى
تدخل فيها البشر من العقائد السماوية السابقة ، وهو كذلك مناط الصبر في أنه
التصور الموفق للمصيرية الإنسانية ، المنبجى لكل حوسنها ، المحقق لكل حاجتها ومن
ثم فهو التصور الذي يمكن أن يستق منه ، ويقوم عليه ، أقوم منهج بالحياة
وأشمله .

* * *

ونكن إذا كان الفكر البشري لم يشق هذا التصور ، فإنه ليس ممب من مجاله ،
ولا محطوراً عليه العمل فيه . بيد أن عمله هو التلقى والإدراك والتكيف والتطبيق في
واقع الحياة . غير أن القاعدة المهجنة الصحيحة لتلقى - كما أشرنا في « كلمة عن
منهج » - هي هذه : إنه ليس للفكر البشري أن يتلقى هذا التصور بمقررت
سابقة ، يستمدّها من أى مصدر آخر ، أو يستمدّها من مقولاته هو نفسه ، ثم

بحاكم إليها هذا التصور ، ويريه بمواريتها إنما هو يتلقى مواربه ومقرراته من هذا لتصور ذاته ، وينكيف به ، « يستقيم على مهجه . كما يتلقى الحقائق الموضوعية في هذا التصور من المصدر الإلهي الذي جاء بها ، لا من أى مصدر آخر خارجها . ثم هو الميراث الذي يرجع بكفة ما يعين له ، من مشاعر وأفكار ، وقيم وتصورات ، في محوى حياته الواقعية كذلك ليرها عنده ، ويعرف حقها من باطلها ، وصحيحها من رائلها :

« فإن تارعم في شيء فردوه إلى الله والرسول » . .

(النساء . ٥٩)

وفي الوقت ذاته يعتبر الفكر البشرى - في ميراث هذا التصور - أداة قيمة وعظيمة ، يوكل إليها إدراك خصائص هذا التصور ومقوماته - مستقاة من مصدرها الإلهي - وتحكيمها في كل ما حوله من القيم والأوضاع . دون زيادة عليها من خارجها ، ودون نقص كذلك منها . ويبدل منهج التربية الإسلامي لهذه الأداة العظيمة من الرعاية والعناية ، لتقويمها ونسديدها وانتعائها للعمل ، في كل ميدان هي مهياة له . الشيء الكثير^(١) .

على أن « الفكر » ليس وحده الذي يتلقى هذا التصور إنما هو يشارك في تلقيه . فميرة هذا التصور - المشتقة من خاصية الربانية - أنه يبنى الكينونة الإنسانية بحملتها . ويدخل كذلك في دائرة إدراكها والذي لا تدركه منه إدراك ماهية وحقيقة ، أو إدراك عية أو كيهية . لا يتعذر عليه التسييم به في طمأينة لأنه داخل في مفهوم مطلق المعقول منطقها الذي يسلم بالحقيقة البسيطة - حقيقة أن المحال الذي يسارله هذا التصور - بما فيه من حقيقة الدات الإلهية وصفاتها ، ومن تمنق إرادة الله بالخلق وكيهيته - أكبر وأوسع من الكينونة الإنسانية بحملتها . فهو محال السرمدية الأزلية لأبدية الكية المطلقة . والكينونة للإنسان - ككل ما هو مخلوق حادث - متحيرة في حدود من الزمان والمكان ، لا تملك مجاوزتها على الإطلاق ، ولا تملك من باب أولى الإحاطة بالكل المطلق بأي حال

(١) تراجع بتوسع فصل . « تربية العقل » في كتاب « منهج التربية الإسلامية » (محمد قطب)

* يا معشر اجن والإنس إن استطعتم أن تعدوا من أقطار السماوات والأرض فاعدوا . لا تفذون إلا بسلطان ...

(الرحمن . ٣٣)

« لا تدركه لأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو الطيف الخبير »

(الأنعام : ٣ . ١)

ومن ثم فلا قدرة لأكسورية إنشورية بجماليتها - لا انمكر وحده - على العمل خارج هذه الحدود . إنه وظيفتها أن تتلقى من الذات الإلهية المطلقة المحيطة بوجودها وأن تنفى في حدود طبيعة الإنسان ، وفي حدود وظيفته

وتزبد هذه الحملة الأخيرة بصاحاً . فالإنسان محكوم أولاً ، بطبيعته - طبيعة أنه مخلوق حادث . ليس كلياً ولا مطلقاً . ليس أربى ولا أدنى . ومن ثم فإن إدراكه لا بد أن يكون محدوداً بما تحده به طبيعته . ثم هو محدود بوظيفته . وطبيعة الخلافة في الأرض بتحقيق معنى العبادة لله فيها - كما سيحيى - . ومن ثم فقد وهب من الإدراك ما يناسب هذه الخلافة . فلا نقص ولا زيادة . وهناك أمور كثيرة لا يحتاج إليها في وطيفته هذه . ومن ثم لم يوهب القدرة على إدراكها - إدراك ماهية أو إدراك كمية - وإن كن موهوباً أن يدرك إمكها . وأن يحمل هذا على معرفته بطلاقة المشيئة الإلهية من ناحية ، ومن ناحية أخرى على معرفته بأنه هو محقو حادث ، غير كن ولا مطلق ، فلا يمكن من ثم أن يحيط بخصائص الأربى الأبدى ، الذي هو بكر شىء محيط

والقرآن الكريم يشير إلى بعض هذه الجواب ، الى لم يرؤد الإنسان بالقدرة على الإحاطة بها . . بيهيتها أو بكميبتها . إما لأنها لا تدخل في حدود طبيعة الشربة المحدودة . . إما لأنها لا نرم له في الهوص بوظيفته المحدده كذلك . كما يشير إلى طريقه العطرة السليمه المؤمه في بلهى هذه الجواب ، وطريقة العطرة المحرفه الرائغة :

من هذه الجواب مسألة كه الذات الإلهية فانكسوة الإنسانية لا تدركها وليس مما تعرفه شىء بيائنها فيمكن أن تقابلها به ، وتقيسها عليه

« لا يدركه لأبصار وهو يدرك الأنصار » (الأنعام : ١٠٣)

« ليس كمثله شيء » . . . (الشورى : ١١)

« فلا تصربوا لله الأمثال » . . (الحج : ٧٤)

ومنها مسألة المشئة الإلهية وكيفية تعلقها بالخلق :

« قل : رب أنى يكون لى علام ، وقد بلغى لكرو ومرأتى عاقر ؟ قال : كذلك

الله يفعل ما يشاء » .

(آل عمران : ٤٠)

« قالت : رب أنى يكون لى ولد ، ولم يمسسى بشر ؟ قال : كذلك الله يخلق ما

يشاء . إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » . . .

(آل عمران : ٤٧)

هكذا دور بدن للكيفية ، لأنها فوق إدراك الكيونة الشرية . وكل من أراد من

الشر بدن الكمية تحط وحنط ، لأنه قاسها على كيفية عمل الإنسان ، وشتان

شتان (١) !

ومنها مسألة الروح سواء كان المقصود به « الحياة » أو « جبريل » أو

« ابوحى » .

« ويسألونك عن الروح . قل : الروح من أمر ربي . وما أنيتم من العلم إلا

قليلاً »

(الإسراء : ٨٥)

ومنها مسألة العيب المحجوب عن العلم الشرى ، إلا بالقدر الذى يأذن به الله

لمن يشاء :

« وعنده مفاتيح العيب لا يعنمها إلا هو » .

(الأنعام : ٥٩)

(١) وكذلك أرسطو وأخطأ أفلاطون وغيرهما حين أرادوا أن يسر كنهه تعلق عمل الخالق

بالمحسوفات ، لأنهم قاسوه بـ يعرفونه من كيفية تعلق عمل الإنسان بما يعمله والله ليس

كمثله شيء .

« علم لعب فلا يظهر على عبه أحد ، لا من نصي من رسول »
(الحن : ٢٦ ، ٢٧)

« قل لا أقول بكم عدى حرائ الله ولا أعدم العب »
(الأعام : ٥)

« وما تدرى نفس مدد تكسب عدأ ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت »
(لقمان : ٣٤)

ومن هذا العب خاصة مسألة موعد الساعة :
« إن الله عبه عدم الساعة » .

(لقمان : ٣٤)

« سألتك عن الساعة أبى مرساها ؟ هم أبى من ذكرها ! إلى ربك
منهاها إنما أنت مدبر من يحشها كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو
صباحا »

(البارعات : ٤٢-٤٦)

« بل تأتيهم بغنة فتهتهم ، فلا يستطيعون ردها ولا هم يطورون »

(الأنبياء : ٤٠)

ويس الله - سبحانه - كيف يسعى بلهى هذه وأمثاه ، ما هو فوق مدركات
الكيونة الشرى :

« هو لى أربل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر
متشابهات ، فأما الدين فى قلوبهم زيغ فيتعنون ما تشابه منه ، انتعاء الفتنة وانتعاء
تأويله - وما يعلم تأويله إلا الله - والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ، كل من عند
ربنا - وما يذكر إلا أولوا الألباب - وما لا ترجق قلوبنا بعد إدهيشنا ، وهب لنا من
لحمك رحمة إنك أنت الوهاب » .

(آل عمران : ٧-٨)

وفيا عدا هذه اخوت فإن الفكر الشرى - أو الإدراك الشرى بتعبير أشمل -
مدعو للتدبر والتفكر ، والسطر والاعتدال ، والتكيف والتأثر ، والتطبيق ، فى عالم
الصمير وعالم الواقع ، لمقتضيات هذا التصور ، والإجابة فى العمل والتنفيذ وفق هذا
التصور الشامل لكبير

وما من دين احتفل بالإدراك الشرى ، وإيفاضه ، وتقويم مهبجه فى النظر ، واستجاشته للعمل ، وإخلافة من فيود الوهم والخرافة ، وحريره من قيود الكهانة والأسرار المحظورة . وصيانتة فى الوقت ذاته من النديد فى غير محله ، ومن الخط فى التيه بلا دليل . ما من دين فعل ذلك كما فعله الإسلام .

وما من دين وجه النظر إلى سنن الله فى الأنفس والآفاق ، وإلى طبيعة هذا الكون وطبيعة هذا الإنسان ، وإلى طاقاته اندحورة وحصائمه الإيجابية ، وإلى سنن الله فى الحياة البشرية معروضة فى سجل التاريخ . ما من دين وسع على الإدراك فى هذا كله ما وسع الإسلام

فى تربية الإدراك وتقويمه وتقويم مهبج النظر والحكم
« ولا تقف ما ليس لك به علم . إن السمع والبصر والأنف والأبصار وكل أولئك كان عنه مسؤولاً » . .

(الإسراء : ٣٦)

« أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض ظن إثم » .

(الحجرات : ١٢)

« وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ، إن الظن لا يعنى من الحق شيئاً » .

(يونس : ٣٦)

« ما هم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون » . .

(الرحمن : ٢٠)

وفى النظر إلى آيات الله فى الأنفس والآفاق .

« قل : انظروا ماذا فى السماوات والأرض »

(يونس : ١٠١)

« وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسهم آيات لتصورون ؟ »

(النازيات : ٢٠ — ٢١)

« سربهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

(فصلت : ٥٣)

وفي النظر إلى سس الله في الحياة البشرية وفي مصائر من قبلهم ودلائلها التاريخية .

« قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله يشيء الشئ الآخرة إن الله على كل شئ قدير »

(العنكبوت : ٢٠)

« أو لم يسيروا في لأرض فينظروا كيف كد عاقبة الدين من قبلهم ؟ كانوا أشد منهم قوة وأناروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ثم كان عاقبة الدين أساءوا السوء أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون » . . .

(الروم : ٩ - ١٠)

« أو لم يروا أنما تأتي الأرض تنقصها من أطرافها ؟ والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب » . .

(الرعد : ٤١)

وأمثال هذه لتوجيهات كثير كثيرة ملحوظة في القرآن الكريم ، يتكون منها منهج كامل لترسية الإدراك الشرى وتقويمه وتوجيهه^(١) . وستأتى منه بسادج كثيرة في

الفصول التالية



على أن الله ، وطر هذا للإنسان ، لعالم بحقيقة طاقته ، كان يعلم أنه بقدر ما وهه من القدرة على إدراك قوايين المادة ، ولتعرف إلى طاقات الكون في هذا المجال ، تتسحيرها في الخلافة بقدر ما روى عنه من أسرار « الحياة » - كنهها وكيمية وجودها وتصرفها - وأسرار تكوينه الروحي والعقلي وحتى تكوينه الجسمي المتصل بشاطئه الروحي والعصى لايران معظمه خافاً على علمه وإدراكه ، على نحو ماكشف له في «قرن لعشرين عام من أكر العلماء المتخصصين في إحلاص وصراحة وهو لدكتور « الكسيس كريل » في كتابه « الإنسان ذلك «جهول » وهو يقول

(١) يراجع توسع فصل « تربية العقل » في كتاب « منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب

• لقد نال الجنس البشرى مجهوداً حاداً لكي يعرف نفسه ، ولكن بالرغم من أن بملك كبراً من الملاحظة حتى كدسها العناء والهلوسة والشعراء وكبر العلماء الروحانيين في جميع الأمان ، فإن استطعنا أن نفهم جواب معية فقط من أنفسنا . إنما لا نفهم الإنسان ككل . إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة وحتى هذه الأجزاء تدعته وسائلاً ! فكل واحد من مكونات من الأشباح ، تسير في وسطها حقيقة مجهولة !

« وواقع الأمر أن جهلنا مطلق . فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب ، لأن هناك مناطق غير محدودة في ديانا الباطنية ما زالت غير معروفة . ونحن لا نعرف - حتى الآن - الإجابة على أسئلة كثيرة مثل :

- كيف تتحد جزيئات المواد لكيوية لكي تكون المركب والأعضاء المؤقتة للخلية .
- كيف تقرر « الجنس » - وحدات الوراثة - الموحدة في نواة البويضة المنفحة صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة ؟

● كيف تنظم الخلايا في جماعات من تلقاء نفسها ، مثل الأسجة والأعضاء ؟ فهي كاسمل والحل تعرف مقدماً الدور الذي قدر لها أن تلعبه في حياة المجتمع وتساعد على عمليات الميكانيكية الخفية على بناء جسم بسيط ومعقد في الوقت ذاته

● ما هي طبيعة تكوين المساسي والمسولوجي ؟ إننا نعرف أننا مركب من الأنسجة والأعضاء ، والنواش ، والشعور ولكن العلاقات بين الشعور وادج ما زالت لغزاً

● إننا نرسل بحاجة إلى معلومات كاملة تقريباً عن « فيسيولوجية » الخلايا العصبية إلى أي مدى تؤثر الإرادة في الجسم ؟ كيف يتأثر العقل بحياة الأعضاء ؟ على أي وجه تستطيع الخصائص العصبية وعقليه ، التي يرثها كل فرد ، أن تتغير بواسطة طريقة الحياة ، والمواد الكيوية الموحدة في لطعم ، وساح ، ونظم النسبة والأدوية ؟

● إننا ما دلنا بعيدين جداً من معرفة ماهية العلاقات الموحدة بين الهيكل العظمي

- والعصلات والأعضاء ، ووجوه النشاط العقلي والروحي وما رلنا من جهل العوامل التي تحدث التوازن العصبي ، ومقاومة التعب ، والكفاح ضد الأمراض
- إننا لا نعرف كيف يمكن أن يردد لإحساس الأدبي ، وقوة الحكم ، وخرأه
- ولا ما هي لأهمية السية لنشاط العقلي لأدبي كذا نشاط الديني
- أي شكل من أشكال النشاط مسؤول عن تبادل الشعور أو الخوطر ؟
- لا شك مصفاً في أن عوامل فيسيولوجية وعصبيه معينة هي التي تقرر السعادة أو العاسة السحاح أو العشل ولكننا لا نعرف ما هي هذه العوامل
- بما لا نستطيع أن نهب أي فرد ذلك الاستعداد لقبول السعادة بطريقه صاعية وحتى الآن فإننا لا نعرف أي الينات أكثر صلاحية لإنشاء الرجل المتمدين وتقدمه . .

● هل في الإمكان كبت روح الكفاح والمجهود ، وما قد نحس به من عاء بسبب تكوين الفسيولوجي والروحي ؟

● كيف نستطيع أن نحول دون تدهور الإنسان وانحطاطه في الندية العصرية ؟
بالسنة لنا ولكنها ستظل جميعاً بلا حوب فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان مازال غير كاف ، وأن معرفتنا بأنفسنا مزال تدائية في العالب ^(١)

هذا هو مدى جهل حقيقة « الإنسان » - إحدى الحقائق التي يتألف منها التصور الاعتقادي الشامل - من جهلنا بأصغر وأظهر حاسب من حواسب هذه الحقيقة كما يقره عالم من أكبر العلماء في القرن العشرين ، غير منهم في علمه ، وغير مارع في مكائته في العالمين القديم والحديد
أما أسباب هذا الجهل ، من وجهة نظره القائمة على « المنهج العلمي » كما هو معروف في العرب ، وعلى انطباعاته في حو بيئته العربية وفي حو « البحث العلمي » ، وفي حدود « العلم » كما يقرر هو في مقدمة الكتاب أما أسباب هذا الجهل من وجهة نظره هذه ، التي يوافقها في بعضها ويخالفه في بعضها فهي كما يقول

(١) الإنسان بعدا لمجهود أليف دكتور ألكسيس كاريل وترجمه شعبي أسعد فريد ص ٦ ١٨

« قد يعزى جهلنا في الوقت ذاته ، إلى طريقة حياة أجدادنا وإلى طبيعتنا المعقدة وإلى تركيب عقولنا . . . » .

ويتحدث عن السنين الأوبى حديثاً دقيقاً ، ولكنه لا يعيبها ها فتعلم إلى حديثه عن السبب الثالث :
يقول .

« ونم نسب آخر للطء الذى اتسمت به معرفتنا لأنفسنا . وذلك أن تركيب عقولنا يجعلنا نتهج بالتفكير فى الحقائق البسيطة إذا أننا نشعر بصرب من الأمور حين يضطر إلى تولي حل مشكلة معقدة مثل . تركيب الكائنات الحية والإنسان . . . فالعقل - كما يقول برحسون - يتصف بعجز طبيعى عن فهم الحياة . وبالعكس فإننا نحس أن نكتشف ، فى جميع العوالم ، تلك الأشكال الهندسية الموجودة فى أعماق شعورنا . . إن دقة النسب المادية فى تماثيلها واتقان آلاتها يعبران عن صفة أساسية لعقلنا . فاهندسة غير موحودة فى ديانا ، وإيا أشأناها نحن إذ أن وسائل الطبيعة لا تكون أبداً باندقة التى تتصف بها وسائل الإنسان !!! فحين لا نجد فى العالم ذلك اوضوح وتلك لدقة التى يتصف بها تفكيرنا . ومن ثم فلما نحاول أن نستخلص من تعقد الظواهر ، وبعض الظلم البسيطة التى تحمل عناصر ، لإحداها بالآخرى علاقات معينة ، تكون قابلة للوصف حسابيا . وقدرة الاستخلاص هذه التى يسمح بها العقل لشئى ، مسؤولة عن ذلك التقدم الرائع الذى أحرره علماء الطبيعة والكيمياء .

« وقد لقيت الدراسة المتقدمة - الكيمياء والكائنات الحية نجحاً مماثلاً فقواس الطبيعة والكيمياء ، متماثلة فى عام الكائنات الحية وعالم الجهاد - كما نخطر ببال كلود برنار منذ أمد بعيد - وهذه الحقيقة توضح لماذا اكتشف علم وظائف الأعضاء الحديث مثلاً أن استمرار قنوية الدم وماء المحيط نهرها قونين متماثلة ، وأن انشيط الذى تستهلكه العضلات المتصلة يقدمه نحر السكر الح . إن الواحى الطبيعية - لكيمياء الكائنات حية بسهل نفرياً فحصها ، مثل تلك الواحى فى الأشياء الأخرى موجوده فى لعالم المادى . وبلك هى المهمة التى نجح علم وظائف الأعضاء فى تحقيقها

« إن دراسة الظواهر المسبولوجية الحقة - أى تلك الظواهر التى تتتح من تنظيم الكائن الحى - توحه عقبات أكثر أهمية - إذ أن شدة ضآلة الأشياء التى يجب تحليلها، تجعل من المسحيل اسخدام الصور العادية لعلمى الطبيعة والكيمياء ، فأى طريقة يمكن أن تكشف القناع عن لتركيب الكيمياوى لسواه الخلية الحسية ، والكروموسومات ؟ والخيس « نافلات اوراة » التى تؤلف هذه الكروموسومات ؟ مهما يكن - إن المجموع الكلى للمواد الكيوية شديدة لصلآه ، على أعظم جانب من الأهمية ، لأنها تحتوى على مستقل الفرد والجس^(١) . كما أن قادية أنسجة معينة لسرعة العطب ، مثل المادة العصبية ، عظيمة إلى درجة أن دراستها فى حالة الحياة مستحبة تقريباً . ونحن لا نملك أى من يمكن من الصوذ إلى أعماق المح وعوامصه ، أو إلى الاتحاد المتناسق بين خلاياه . وعقنا الذى يجب ذلك الحما السيط للتركيب الحساويه ، بتناه الفرع حبا يفكر فى تلك لأكدام اءئلة من اخلايا والأحلاط والإحساسات ، التى يتكون منها الفرد ، ومن ثم فونت محاول أن يطبق على هذا المحلوط ، الأفكار التى ثبتت فائدتها فى مملكة الطبيعة والكيمياء واميكانيكيات كذا فى النظم لفلسفية والدينية . . ولكن مثل هذه المحاولة لا تلقى نجاحاً كبيراً . لأن أحسامنا لا يمكن أن تحتل إلى نظام طيعى كيمائى أو إلى كيان روحى . بالطبع إن على علم الإنسان أن يستعدهم آراء جميع العلوم الأخرى ولكن عليه أيضاً أن ينمى آراءه الخاصة لأنه علم جوهرى ، مثل علوم الجزئيات والدرات والإلكترونات »

ويهى هذا الفصل بقوله :

« صفوة اقول : أن التقدم البطيء فى معرفة نى الإنسان - إذا قورن بالتقدم الراجع فى علوم الطبيعة والفلك والكيمياء والميكانيكيا ، يعرى إلى حاجة أجدادنا إلى وقت الفراغ . وإلى تعقد الموضوع وإلى تركيب عقولنا » وهذه العقبات أساسية - وليس هالك أمل فى تدليلها . وسيطر التعلب عليها شفا ، ستدم جهوداً مضية . .

(١) مذت أخيراً محاولات فى هذا الحقل - ولكن المدى لا يراى بعداً جدداً ، رغم الأخبر التى تداع بقصد الدهاية من مراكز الدهاية للمذهب المادية !

« إن معرفة أنفس من نفس أبدأ بل تلك امرتة من الساطة المعرة ، والتجرد ،
والخيار ، التي بلعها علم الله . إذ ليس من المحتمل أن تحتفى العاصر التي أشرت
تقدم علم الإنسان فعليا أن يدرك بوصوح ، أن علم الإنسان هو أصعب العلوم
جميعاً »^(١)

هذا هو نعليل ذلك الخهل بحقيقة الإنسان ، أو بأصغر وأظهر جانب من
جوانب هذه الحقيقة . من وجهة نظر العلم العربي الكبير ومهما يختلف معه في
طريقة النظر إلى القصة كلها . فبب سكتفى هذه الشهادة وبراه قد لمس فيها
سبب لأساسى - وهو طبيعة تكوين عقلا - فهد التكوين مرتبط بوظيفة الإنسان
في الأرض - وظيفه الخلافة - وهى تقتضى أن يكون بركيب عقله على هذا التصميم
لأنه أنسب تصميم للقيام بالوظيفة ! وسيتقدم في إدراك قوانين المادة وتسجيرها ، كما
سيتقدم في معرفة جوانب من « حقيقة لإنسان » أكثر مما عرف ولكن أسرار
التكوين الإنسانى ستنظر حافة على أبدأ . سطر من الحنة ، وسر الموت ،
حافى تمام . وسيطر سر الروح الإنسانى بعد عن مجال إدراكه لأن شيئاً من
هذا كنه لا يلزمه في وظيفته لأساسية

وعلى أنه حال ، فإنه من خلال هذه الشهادة وحدها - نرر لنا حقيقتان
حائرتان

أولاهما حقيقة رحة الله هذا الإنسان ، حين لم يدعه - جهه هذا الذى يشهد
به علم كبير من علمائه في القرن العشرين - بصنع تصويره الاعتقادى لله وهذا
التصور يشتمل تصور شاملاً - لا لحقيقة الإنسان المجهول له بحسب ، ولكن
كذلك الحقيقة الألوهية لكبرى والحقيقة الكون وحقيقة الحية ، وسائر لارباطات
بين هذه الحقائق جميعاً . وحين لم يدعه - جهله هذا بحقيقة ذاته يصنع مسح
حياته وشكل بطامه ، وشريعته وقوابله وكلها تقتضى علماً كاملاً شاملاً لا
بحقيقة لإنسان وحدها ولكن كذلك بحقيقته تكون الذى يعيش فيه الإنسان
وبحقيقة الحياة التى يسبب إليها ثم بحقيقة القوة الكبرى الخلفة المدبرة هذا
الكون وما فيه ومن فيه

(١) المصدر السابق ص ٨ - ٢٣

وثانيهما . حقيقة اسجح الذي نتجحه كل من تصدى من حسن اشهر - قديماً وحديثاً - لوضع ذلك التفسير الشامل للكون والحياة والإنسان ولوضع مساهم للحياه وأنظمه للناس وشرائع حياتهم . يمثل هذا الجهل ، الذي لا يمكن أن يؤدي ، إلا لمثل مآدى إليه من تيه وركام في التصورات ومن فساد وفصور في المذهب . ومن شقاء وتعاسة في الحياة . . فهذه كلها هي النتائج الطبيعية واشهر المآلة لدنك اسجح الكريه ! وللدنك الجهل العميق^(١)

ب. لتصور لرباني الذي يتلقاه الإنسان من « الله » هبة لدسة حاصمة قد أعنى اشهر الصعاف الجهال من لكذ فيها ، ووفر عديهم هم إنشائها ، وتبديد طاقتهم في هذا المجال الذي لم يهبهم الله دليبه ولا أداته . وذلك ليفرغوا لتلقى هذه الهبة وإدراكها ، والتكيف بها ، واتحادها بأسس منهج حياتهم ، وميراثاً لقيمتهم ، وديلاً هادياً يصلون به ومعهم فردا فارقه صنوا وتاهوا ، وحبطوا وحلطوا ، وحاءوا بها بصحك وبسكى من التصورات والاحراوت ، وشقوا وتعسوا بمنهج والأنظمة التي يقيمونها على أساس من ذلك الجهل العميق^١ ومن دنك الخط والتخليط ! وفي هذا يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه القيم « ماذا خسر العالم بالمعطاط المسلمين »

« وقد كاب الأنبياء - عليهم السلام - أحررو الناس عن ذات الله وصفاته وأفعاله وعن بداية هذا لعالم ومصيره . وما يهجم عليه الإنسان بعد موته . وأتاهم علم ذلك كله بواسطتهم عموا بدون تعب ، وكفوههم مؤونة البحث والمحصص ، في علوم ليس عندهم مآدتها ، ولا مقدمتها التي يسون عليها بحثهم ، ليسوصلوا إلى مجهول لأن هذه العلوم وراء الحسن والطبيعة ، ولا تعمل فيها خواصهم ، ولا يؤدي إليها بطرهم ، وليست عندهم معلوماتها الأولية

لكن الناس لم يشكروا هذه النعمة ، وأعادوا الأمر حذراً ، وبدأوا البحث أنباء ، وبدأوا رحلتهم في مساطق مجهولة ، لا يجدون فيها مرشداً ولا حريته^(٢) وكبوا في

(١) يراجع بتوسع كتاب « الإسلام ومشكلات الحضارة » للمؤلف

(٢) حبير

ذلك أكثر صلاحاً ، وأشدّ سعاً وأعظم اشتعلاً بالمعصول من رائد لم يقتنع بما أدى إليه العلم الإنسانى فى الجغرافية ، وما حدد وصعد فى الخرائط على تعاقب الأحيال ، وحاول أن يقيس ارتفاع الجبال وعمق البحار من جديد ، ويخبر الصحارى والمسافات والحدود بنفسه على قصر عمره ، وضعف قوته ، وفقدان آله فلم يلبث أن انقطع به مطيته ، وحاشته عريته ، فرجع بمدكرات وإشارات محتده . وكذلك الدين حصو فى الإلهيات ، من غير بصيرة ، رعى غير هدى ، حاءوا فى هذا العلم نراء فحه ، ومعلومات ناقصة ، وخواطر سائحة ونظريات مستعجلة فصلوا وأصلوا^(١)

على أن أمر الدين حاولوا إنشاء تصورات اعتقادية من عند أنفسهم ، أو إنشاء تصورات فلسفية لتفسير الوجود وارتباطه كانوا أشدّ صلاحاً من هذا الذى صوره الأستاذ البدوى ، وأكثر خطراً على حياة البشرية . أما الأحقر من هذا كله ، فكان هو تحريف العقيدة السماوية - وبخاصة المصرية - وقيام كيسة فى أوربا تمثلت الشيطان باسم هذه المصرية المحرفة ، وتعرض تصوراتها الباطلة بالقوة كما تعرض معلوماتها الخاطئة والناقصة عن الكون المادى ، وتعارض بوحشية خط البحث العلمى فى مسانه الأصل ، بحقولات تعطى طابع الدين . والدين منها بوى . . . وقد شأ هذا كله من تدخل الفكر الشرقى بالإضافة والتأويل ولتحريف للأصل الربانى للعقيدة المصرية وللتصور المصرى وإلحاق هذا كله بالأصل الربانى والعقيدة السماوية

فإذا نحن تذكرنا أن جمع الرعاب الأوربية ، التى شأت معادمة لمدى ولفكر الدينى ، كن مشؤف هو هذا الانحراف ، وهذه الأوصاف التى قامت على أساس هذا الانحراف « من عقيدة مثالية » إلى « وضعيه حسية » إلى « جدلية مادية » . إذ تذكرنا هذا أدركنا أن هذا الملاء الذى يعم البشرية كلها اليوم ، إنما شأ من عقايل تدخل الفكر الشرقى ، فى أصل الصور الربانى وهو ملاء لا يعدله ملاء آخر فى تاريح البشرية الطويل

(١) مادا حشر العالم بسخطات المسلمين ص ٦٨

ولعله يحس - لتكون هذه النقطة واضحة وضحاً - بأن ندكر خلاصة موجزة للخط الذي سار فيه الفكر الأوربي ، بوصفه نتيجة طبيعية مباشرة لانحراف التصور الديني . يتدخل الفكر الشرى فيه ، ويحصاه للعوامل السياسية ، والخلافات العنصرية والمذهبية .

ولعل هذه الخلاصة أب تكشف - عن حكمة الله ورعايته في حفظ أصول التصور الإسلامى بعيدة عن تحريف البشر - وعن خطورة أية محاولة باسم « التحديد الدينى » أو « التطور فى الفكر الدينى » أو غيرها ، لإدخال أى عنصر شرى على التصور الراسى . فهذا التصور هو الواحد لائق من غير أن يعث به جهل الشر وقصورهم وهو وحده ملاد البشرية ، لتبقى إليه فى يوم من الأيام فتحد عنه الهدى والسكينة ولاطمئنان .

وسكتفى فى هذا لتلخيص لخط سير الفكر الأوربي فى اتجاه مصاد للكبسة وتفكيرها الدينى - بمقتنسات من الفصل الذى كتبه الدكتور محمد الهى بعنوان « الدين مخدراً » فى كتابه « الفكر الإسلامى الحديث وصنعه بالاسم العربى » :

« الصراع بين الدين والعقل والحس فى تاريخ الفكر الغربى أربع مراحل فى تاريخ التفكير الأوربي ، منذ القرن الرابع عشر إلى الآن . شهدت فيها العقيدة الأوربية صراعاً فكرياً ، واتجاهات عملية مختلفة ، تدور حول « بربر » مصدر عن مصادر المعرفة ، التى عرفتها الشرية فى تاريخها حتى ابوقت الحاضر . وهى : الدين والعمل والحس أو الواقع ، وفى كل مرحلة من هذه المراحل ينشأ سؤال عن « قيمة » أى واحد من هذه لثلاثة كمصدر للمعرفة المؤكدة ، أو اليقينية . ثم يكون الجواب على هذا السؤال إيجاباً أو سلباً . ومن أسؤال وما يدور حوله من جدل ، وأخذ ورد ، تتكون المذاهب الفلسفية التى تعبر عن قيمة المصدر ، الذى وضع للاحتار والتقدير .

« سيادة النص أو الدين » كان الدين أو النص طوائف العرون الوسطى سائداً فى توجيه الإنسان فى سلوكه وتنظيم جماعته ، وفى فهمه لطبيعته . وكان يقصد بالدين « المسيحية » ، وكان يراد من المسيحية « الكشكة » ، وكانت الكشكة تعبر عن

«البابوية» ولبابوية نظام كسرى ركر «السلطة العليا» باسم الله - في يد الباب ، وقصر حق تفسير «الكتاب المقدس» على البابا وأعضاء مجلسه من لطقة الروحية الكبرى ، وسوى في الاعتدال بين نص الكتاب المقدس وأفهام الكنيسة الكاثوليكية ، وحمل عقيدة «التثليث» عقيدة أصيلة في المسيحية ، كما حمل «الاعتراف بالخطأ» و«صكوك العفراء» من رسوم معاده وغير ذلك مما يصل الكاثوليكية كمذهب وكظم لاهوتى .

«حتى كان القرن الخامس عشر ، وحتى ابتدأت الحروب الصليبية ثمرتها الإيجابية في العملية الأوربية» فقام مارتى لوتر (Luther) (١٤٥٣ - ١٥٤٦م) وكافح «تعاليم الشيطان» - كما سماها - وهى تعاليم البابوية والكنيسة الكاثوليكية ، وحارب صكوك العفراء ، وطرأ إليها كوسائل للرق والعبودية - وحارب عقيدة «التثليث» ، كما حارب سلطة البابا وحمل السلطة الوحيدة في المسيحية هى اكتاب المقدس ، وكلمه الله - «نص» وطأ بالخرية في بحث الكتاب ولكن ليست أبة حرية على العموم . ومع ذلك حمل الكتاب المقدس نفسه هو مصدر الحقيقة فيما يتصل بالإيمان ثم حمل الإيمان في الاعتدال ، سابقاً على أى شيء آخر عداه ، من العقل أو الطبيعة .

«وجاء بعد لوتر في طريقه كاهن (Cavin) (١٥٠٩ - ١٥٦٤م) وأمر بوتر على أن الإنجيل وحده هو المصدر «لحقيقة المسيحية» وأن عقيدة التثليث لا تقبلها المسيحية الصحيحة .

«وبحركة لوتر وكاهن الإصلاحية تعرضت المسيحية للجدل الهكرى ، وأصبحت موضوعاً لنقاش العقلى ، واندثت الفلسفة . والمسيحية التى تعرضت لذلك هى المسيحية التى تناوها لوتر بإصلاحه أى الكاثوليكية البابوية ومن أنكر من الفلاسفة على الدين أن يكون له «سلطة» أنكر سلطة لبابوية . ومن وضع العلاقة بين الدين والعقل كشيئين متقابلين أو مساقطين ، حدد العلاقة بين الكشكافة وما فيها من عقيدة التثليث ومراسم صكوك العفراء - وبين العقل الإنسانى العام . ومن دافع عن المسيحية من فلاسفة ، كهجيل ، دافع عن «العالم النفسى

للمسيحية « التي احتصنها لوثر ، في مقابل تعسف الكنيسة الكاثوليكية »
 « وهكذا كان « الدين » الذي جعل موضوعاً للصراع العقلي الأوربي ، نوعاً
 خاص من الدين ، والذي قبل منه باسم الفلسفة ، كان حملة خاصة من تعاليمه
 والذي رفض منه باسم الفلسفة أيضاً ، كان كذلك حملة خاصة من تعاليمه
 « سيادة العقل » استمر اعتبار الوحي ، كمرجع أخير للمعرفة ، على خلاف
 في تحديد تعاليمه ، حتى كان النصف الذي من انقروا الثامن عشر ، وهو عصر
 « السوير » في تاريخ الفلسفة الأوربية وعصر السوير له طابعه الخاص ، الذي يتميز
 به العصر السابق عليه والآخر اللاحق له ، وله طابعه المشترك في الفكر الألماني
 والإنجليزى والفرنسى ، في لفظة ارمية التي تحده ، وله فلاسفه في دوائر الفكر
 اثلاث كونه الطابع الفكرى الذي عرف به . .
 « وطابعه الفكرى

(أ) ترايد شعور العقل وإحساسه بنفسه ، وبقدرته على أن يأخذ مصير مستقل
 الإنسانية في يده ، بعد أن يرين كل عبوديه ورثها هو ، حتى لا تحجبه عن
 التخطيط الواضح لهذا المصير^(١) .

(ب) الشجاعة والجراة اننى لا تتأرجح في إخضاع كل حدث تاريخى لامتحن
 لعقل . وكذلك في تكوين لدولة والجماعة ، والاقتصاد ، والقانون ، والدين ،
 والزينة ، تكويناً حديداً ، على الأسس السليمة المصفاة ، التى لكل واحد منها!
 (جـ) الإيرون يتعدون جميع المصالح والمنافع ، وبالأخوة فى الإنسانية ، على أساس من
 هذه الثقافة العقلية ، المستمرة فى التطور .

« ومعنى ذلك كنه « سيادة » العقل » - كمصدر للمعرفة - على غيره وغيره
 الذى يمارعه « السيادة » هو الدين أى المسيحية الكاثوليكية أولاً وقد تكون معها
 البروتستانتية ، كمدى عرف للإصلاح الدينى هناك
 « وللعقل الحق فى الإشراف على كل اتجاهات الحياة ، وما فيها من سياسة ،
 وقانون ، ودين ، و « الإنسانية » هى هدف الحياة للجميع

(١) وقد رأينا في فضاء من الدكتور ألكسيس كارين مدى معرفه العقل الحقيقية بالإنسان ، لا في
 القرن الثامن عشر بل في القرن العشرين أيضاً

« وكما يسمى هذا العصر بـ « عصر التنوير » يسمى أيضاً بـ « العصر الإنساني » ، وكذا عصر الـ Deism أي عصر الإيمان العقلاني باله ، ليس له وحى ، وغير خافق للعالم . بكل مسميات هذه الأسماء تعبر من خواصه والتنوير لا يقصد به إلا إبعاد الدين عن مجال التوجيه ، وبحلال العقل فيه علمه . والإنسانية التي يشتر بها هذا العصر ليست إلا عوضاً عن « القرين من الله » كهدف للإنسان في سلوكه في الحياة . والإله ، الذي ليس له وحى ولا خلق ، يتفق مع تحكيم العقل وحده ، وطلب سيادته عن أحداث الحياة واتجاهاتها

« وإذن في عصر التنوير كانت الخصومة الفكرية بين الدين والعقل واتجه التفكير فيه إلى إحصاء الدين للعقل وبذلك عد زمن هذا العصر فترة سيادة العقل كما عد العصر السابق عليه فترة سادة الدين

« ومن هذا يتضح أن صراع العقل مع الدين ، هو صراع الفكر الإنساني مع مسيحية الكنيسة وأن دوافع هذا الصراع هي الظروف التي أقامتها الكنيسة في الحياة الأوروبية سواء في مجال التوجيه والبحث ، أو في مجال السياسة ، أو نطاق العقيدة والإيمان . .

« سيادة الحسن » . انتهى عصر التنوير بانتهاء القرن الثامن عشر تقريباً ، وابتدأ عصر آخر من عصور الفكر الأوروبي ، ويظهر فجر القرن التاسع عشر وموضوع الصراع واحد لم يختلف عن ذي قبل ، هو ، الدين ، والعقل ، والطبيعة ولكن تغير القرن التاسع عشر بمسألة معينة لأن اتجاه الفكر فيه دل إلى « سيادة طبيعة » عن لدين والعقل ، وإلى استغلال « الواقع » كمصدر للمعرفة اليقينية إزاء الدين والعقل . تغير القرن التاسع عشر بأنه عصر « الوضعية » (Positivism) والوضعية نظرية فلسفية نشأت في دائرة « المعرفة » وقامت في حوز معين ، وعلى أساس خاص ، أم جوها المعين فهو أولاً وبالذات سيطرة الرعنة على بعض العلماء والفلاسفة في معارضة الكنيسة والكنيسة بملك نوعاً خاصاً من المعرفة ، وتستعنه في حصومة المعارضين لنعوذه من بعناء والباحثين وقد تسود به على هؤلاء المعارضين فترة من الزمن وهذا النوع هو « المعرفة المسيحية الكاثوليكية » بوجه

خاص - كما سبق أن ذكر - أو هو المعرفة الالهيّة ، أو المعرفة الميتافيزيقية بوجه عام يضاف إلى هذه الرغبة القوية في معارضة الكنيسة ، ومعارضة ما تمتد من معرفة خاصة ، أن فلسفة عصر « التوير » وهي الفلسفة « العملية » أو « المثالية » قد أفسدت - في نظر فلاسفة « الوصعية » - فيما أرادت أن تصل إليه - وهو بإعادة توجيه الكسبي كلية عن توجيه الإنسان ، وتنظيم الجماعة الإنسانية . فقد مالت هذه الفلسفة على عهد « هيجل » إلى تأييد نوحى والدين من جديد !

« فالعامة الأولى للمذهب الوصعي ، من منطق ، هي معارضة الكنيسة ، أو معارضة معرفتها - ومن باب التغطية باسم « العلم » ! هي معارضة الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) والمثالية العقليّة ، ولا فالمذهب الوصعي في الوقت الذي ينكر فيه دين الكنيسة يصنع ديناً جديداً بدله ، هو دين « الإنسانية الكبرى » ، ويقوم على « عبادة » و « طقوس » - كما تقوم المسيحية - وله قداسة واحرام على نحو ما للكثيكة !

« وأما الأساس الخاص الذي قامت عليه الوصعية فهو تقدير « الطبيعة »

والطبيعة ، والحقيقة ، والواقع ، واخص - كلها سواء في نظر الوصعيين . وتقدير الطبيعة - لا كمصدر مستقل فحسب للمعرفة - بل كمصدر فريد للمعرفة اليقينية أو المعرفة الحقة . ومعنى تقدير الطبيعة على هذا النحو أن لطبيعه هي التي نقش حقيقته في عقل الإنسان ، وهي التي نوحى بها ، ويرسم معالمها الواضحة وهي التي تكون عقل الإنسان ، والإنسان - هذا - لا يملأ عليه من خارج لطبيعه ، مما وراءها ، كما لا يملأ عليه من ذاته . إذ ما يأتي من « ما وراء الطبيعة » حذرع للحقيقة ، ولبس حقيقة ! وما يتصوره العقل من نفسه وهم وتخيل للحقيقة ، وليس حقيقة أصلاً وساء على ذلك الدين وهو وحي « ما بعد الطبيعة » - حذرع هو وحي ذلك الموحود ، لدى لا يحدده ولا يمثله كائن من كائنات الطبيعة هو وحي الله الخارج عن هذه لطبيعة كلية . وكذلك « المثالية العملية » وهم لا يتصل بحقيقة هذا الموحود الطبيعي إذ هي تصورات الإنسان عن نفسه ، من غير أن يستلهم فيها الطبيعة المنشورة ، التي يعيش فيها ، وتدور حوله .

« وإذن ما يتحدث به الإنسان ، ككائن شخصي ، عن الإنسان ، كموضوع

لنوصف أو ما يتحدث به الإنسان عن الطبيعة التي يعيش فيها ، كموضوع للحكم عليها . مستمدا حديثه عن هذه أو ذاك من معارف الدين ، أو المثالية العقلية - - هو حديث بشيء غير حقيقي ، عن شيء حقيقي هو حديث غير صادق ، نخصص فيه الإنسان المتحدث إلى حدٍّ معين بحكم التقليد ، أو إلى «الوهم» بحكم غرور الإنسان بنفسه !

« إن عقل الإنسان - أى ما فيه من معرفة - وليد الطبيعة ، التى تتمش فى الورثة ، واسبطة ، والحياة الاقتصادية ، والاجتماعية ، إنه مخلوق ولكن خالقه الوجود الحسى . . إنه يفكر ولكن عن مدخل مع الوجود المحيط به . إنه مقيد عمر . وصانع القيد والحر هو حياته المادية . ليس هناك عقل سابق ، كما أنه ليست هناك معرفة سابقة للإنسان . عقل الإنسان ومعرفة بوجدان تبعاً لوجود الإنسان . هما انطباع لحياته الحسية المادية .

« الطبيعة تنطق عن نفسها . ويجب على الإنسان أن يعتمد مطلقها إذا أراد أن يعيش فيها . ومطلقها وحده - لامنطق المؤلمين ، ولا منطق العقليين ، ولا منطق أصحاب النظرية السيكلوجية فى معرفة الإنسان - هو الذى يخطط الطريق استقيم فى حياة الإنسان فيها وهو الذى يحدد أهدافه فيها !

« وطريق الإنسان فى حياته الطبيعية يستدئ من الفرد ، وينتهى بالجماعة ، وذن الفرد نفسه ليس غاية . وحياته التى يعيشها ليست هدفاً لسعيه . إنها غاية الأخيرة التى يجب أن يسعى إليها ، وتذهب فيها - كما بذهب العابد الصوفى ، صاحب عقيدة « الاتحاد » فيما يؤلفه ويعبده - هي « الجماعة » وطال كانت الجماعة هى غاية لفرد الأخيرة ، فهي معبوده ، وتذهب حريره ، لتبقى لها الحرية ! ونصى حياته لتبقى لها الحياة !^(١) »

(١) ومن هذا مهانة الفرد فى نظم التى قامت على أساس هذا المذهب ، وهذا كل مقوماته الدانية من مقوماته الإنسانية كذلك وسيرد الحديث عن هذا بالتفصيل فى صلب هذا بحث عن الكلام عن « الإنسان » فى الصور الإسلامى (فى القسم الثانى من هذا البحث)

« الماركسية » الجدلية لمادية - ولما ركس نظرية مادية ، تأثر فيها بكومت (من فلاسفة الرضعية) وهو لا يسكر وجود « العقل » كما يسكر المذهب المادى الميكانيكى ولكنه لا يدعى بحسب أن المادة توحد كل أب يوحد العقل ، بل أيضاً المادة أكثر أهمية واعتباراً من العقل . إذ العقل متوقف على المادة في وجوده ، ولا يمكن أن يوجد منفصلاً عنها . ونتيجة ذلك أن ماركس لا يرفض فقط أن ينفى العقل (أو الروح) بعد الجسم - كما يذكر الدين - بل يرفض الفكرة الأساسية في الدين وهى الإيمان بالله . كموجود أرى مستقل تماماً ومتجرد تماماً على المادة وكحقيقة واضحة : كل دين بالنسبة لماركس - من حيث المبدأ - لعمى وهو يحدثنا أن « كل دين محذر للشعب » !

« وتعبية العقل للمادة ، يصورها ماركس في صورة ، أن العقل انعكاس للمادة ، وليس كما يصرح « هيكل » بأن المادة انعكاس للعقل وهذا يعنى أن العقل نوع من مرآة العاكسة للعالم المادى وهذا التصور الماركسى لتحقيقه مادية ، على أنها الأصل ، يشمل في عموم منطق الماركسية كل لأحداث الصبغية وما يحيط بها من وجهة نظر متعددة ، هى القوة ، المادة الرئيسة أيضاً . أما الأحداث السياسية والاجتماعية ، والأخلاقية ، فهى انعكاس للأحداث الاقتصادية الراهنة . وماركس وإنجلز ، إن وجدنا معنى التاريخ في أحداث الحياة الاجتماعية بصفة عامة ، لكنهما يطران إلى الحساب الاقتصادى بالذات ، من بين أحداث هذه الحياة ولأحوال الاقتصادية تعال ذلك ، هى العوامل المتعددة في كل الحالات الاجتماعية ، وهى التى تكون السواعد الأخيرة ، لكل الأفعال الإنسانية في تاريخ الجماعة البشرية . وتعير الأحوال الاقتصادية وتطورها يؤثر لذلك وحده - على حياة الدولة ، وعلى سياستها ، وكذلك على العلم ، والدين . وهكذا كن الإبحار الثفانى والدهشى فرع عن الحياة الاقتصادية . وكل اسريح هذا يجب أن يكون تاريخ اقتصاد »^(١)

* * *

وهكذا انتهت محولة الهروب من الكيبه ، وتصورتها السببه لا المحرفه المشبوهة

(١) مقتطفات من ص ٢٨٣ - ٣١٧

بالأفكار الشرية ، وسوء استعمالها لسطح باسم الدين انتهت أولاً إلى
المسمة العقلية المثالية - على اختلاف اتجاهاتها ما بين معارضة الدين و إعلان سيطرة
العقل في رأي فيشيه . وبين تأييد الدين باعتباره أن الله - سبحانه - عقل أتى رأي
هيجل - ثم انتهت ثانياً إلى الفلسفة الحسية الوضعية على يد كومنت واشتبين تان . ثم
إلى الحديثة المادية على يد كارل ماركس ورميله إنجلز

وكان هذا الخط الطويل من الانحراف في الفكر الأوربي نتيجة مباشرة تشويه
التصور الديني بمقولات وتصورات شريه ، من صرع الكنائس والمجامع المتواليه
هذه المقولات التي استعنتها الكنيسة ذلك الاستغلال المهر الغبص .

ولا فإن نظرة إلى هذا التحط في خطواته المتعثرة تكشف للباحث المتثبت أن
المهازيين من « الله » . لكي يهربوا من قصة الكنيسة - لم يصلوا إلى أية حقيقة
« مصسوطة » يصح أن تكون عدراً أو حجة من يريد أن يقول ، إنه ينجأ إلى هذا هروباً
من معصيات وراء الطبيعة ؟

وإلا فأى شيء « مصسوط » وصبت إليه الفلسفة العقلية المثالية مثلاً ؟ ما هو
هذا « العقل » الذي وكلت إليه أمر المعرفة بعيداً عن الله وعن الطبيعة ؟ ماذا تعرف
عن ماهية العقل أو عن خصائصه ؟ وماذا تعرف عن طريقة عمله وتأثيراته وتأثيراته ؟
أين يقع هذا العقل ؟ أين يوجد ؟ ما طبيعته ؟ ما قانونه ؟ كلها أسئلة لا جواب
عندها حتى في القرن العشرين !

ثم هذه المقولات التي ابتدعتها هذه الفلسفة ، وجعلتها حتمية ، وبست عليها
كل قصاياه ؟

« مبدأ التقبص » الذي قام عنه المذهب - والذي اعتمد عليه كارل ماركس فيما
بعد - ما هو ؟ ما قيمته الواقعية ؟ به سنسوى مقولة عقلية مجردة ، لا تتعامل مع
الواقع في شيء :

استخدم « فيشته » مبدأ التقبص على النحو التالي
« تصور الإنسان لنفسه - وحده - هو بداية الطريق وأشبه بالمقدمات التي
تستلزم نتائجها ، على النحو الذي حدد به غاية فلسفته . فإذا تصور الإنسان نفسه ،
أي إذا « أنا » تصورت « أنا » شأ عنه أن « أنا » هو « أنا » و« ما ليس أنا » هو « غير

«أنا» فينت «أنا» وهنا أبصاً «ليس أنا» ولكن وجود «ليس أنا» مطور في وجود «أنا الحقيقي» وإذن «أنا» باعتباره أنه يطوى في ذاته وجود «ليس أنا» هو «أنا وليس أنا». وتصور الإنسان لنفسه أنتج إذن خطوات ثلاثاً في الفكر - أو ثلاثية !
«وبما أنه ليس هناك في الأصل ، عندما تصور الإنسان نفسه ، إلا «أن»
والأشياء الخارجة عن أنفسنا - أي الأشياء التي هي «ليس أنا» - بنصورها فقط عن طريق أن «أنا» يطوى في نفسه حقيقة أخرى ، وهي ، «ليس أنا» . وهذه الأشياء الخارجة عن أنفسنا ليست مطوية فقط في «أنا» بل هي عمل بـ «أنا» ومن إنتاجه»^(١)!

والآن ما الذي يحتم - من الواقع - أن يكون «أنا» هو وحده الموجود وأن يكون «ليس أنا» لا وجود له ابتداءً ، إنما هو من عمل «أنا» ومنطوق في «أنا» ؟ ومن إنتاجه ؟

ماذا يحتم هذه لقولة من الواقع ؟ لا شيء ! وإنما هو مجرد تحكم عقلي من «فيشته» لساء مذهب ! ومن هنا يكون هذا الأساس العقلي «المثالي» لا يتعاضد مع الواقع في شيء . وليس له رصيد في حياة البشر ! وكان من حق المدرسة الوضعية أن تسحر من هذه «المثالية» التي لا مدلول لها في دنا الواقع ، ولا ماعلية لها في حياة الناس ! لولا أنها لم تسحر منها لتأتى بها هو خير . بل هو أشد إحالة وأبعد عن الصواب !

إن فيشته يتخذ من المبدأ السادس ، لدى لا رصيد له من الواقع كما رأينا ، قاعدة يثبت بها أن العقل هو الموجود الحقيقي الذي لا يتوقف وجوده عن غيره
«ومنطق هذا المبدأ - على هذا النحو الذي استخدمه فيشته - أن العقل مستقل تماماً عن غيره . وموجود عن أجل نفسه . ووجوده هو وجوده هو ، لا وجود غيره وماهية العقل تنضح إذن من العقل نفسه . وليست عما هو خارج عنه . إذ لو توقف العقل على غيره الخارجى عنه ، لكان معنى ذلك أن «ليس أنا» هو نقطة البداية .

(١) عن كتاب الفكر الإسلامي الحديث رصده بالاستعمار العربي ص ٢٨٩ - ٢٩٠

وإذا كنت إلهاء للعقل نفسه ، قبل أن يصل إلى غيره ، لأنه لا معنى لوجود « ليس أنا » إلا نفى وجود « أنا » أى معنى العقل «^(١)!

فما الذى يحتم - من الواقع - أن يكون معنى وجود « ليس أنا » هو معنى وجود «أنا»؟ ولماذا هذا التحميم؟ إنه مجرد تحكم ينقضه العقل ذاته ، حين يتخصص من إसार المذهب!

فإنه ليس هناك ما يجمع - عقلاً - أن يكون «أنا» موجوداً و «ليس أنا» موجوداً كدلت ، ولا يتوقف وجود أحدهما على وجود الآخر!

ولكن المسألة كلها كانت هي إدامة انه آخر ، غير إله لكنيسة ! إله ليس له كهنة ولا كرادلة ولا باب ولا كبسة ! ومن ثم أقيم هذا «العقل» بها ، لاسددة له ولا كهنة ! وهذا هو الهدف النهائي المقصود !!

كذلك استخدم هيجل مبدأ النقيض ، مع استخدام مصطلحات جديدة غير مصطلحات هيشته

« وإذا كان فيشته قد استخدم مبدأ « النقيض » في دعم سيادة العقل كمصدر للمعرفة ، مقابل الدين أو الطبيعة - على نحو ما رأينا - « هيجل » استخدم نفس المبدأ لتأكيد قيمة العقل . ثم لدعم فكرة الألوهة من جديد ، وتأكد « الروحى » كمصدر أخير « للحقيقة » على اعتبار أن الله عقل . وبدل المصطلحات الثلاثة التى تعرف لـ « فيشته » في استخدامه مبدأ النقيض ، والتى تعبر عن الخطوات الثلاث للفكر عند تطبيقه - يعبر هيجل عن ذلك بعبارات خاصة به ، هي الدعوى ومقابل الدعوى . وجامع الدعوى ومقابلها

« فقد تصور - في مجال « الفكرة » - أن هناك فكرة مطلقة أسماها « العقل المطلق » ولهذا لعقل المطلق وجود ذاتى أرقى قبل حلول الطبيعة وتبين خلق العقل المنتهى . هذا العقل المطلق هو الله وقد استثقت منه « الطبيعة » وهى تعابره . إذ أنها بعيدة منفرقة بين العقل المطلق واحد وحدة مطلقة من كل قيد . وبوجود الطبيعة ظهرت أو انقلب « لفكرة » في العقل المطلق غير المحدد ، في وجوده مقيد محدد .

(١) المصدر السابق ص ٢٩٠ - ٢٩١

فالمطبعة هي حروح « الفكرة » من دائرتها الأولى ومن أحل ذلك هي ضرورة
 وصدفة وبسببها حرية واختيار . ونعتبر بذلك عقابلاً وقيصاً للفكرة في العقل
 المطلق وإذا كان العقل المطلق « دعوى » فالمطبعة عندئذ « معادل لدعوى »
 و« لفكرة » بذلك انتقلت من المطلق إلى المفيد ، أو من القيصر إلى قيصره . فالمفكرة
 من حيث هي فكرة ، انطوت على بقيصها ، حتى الآن ، ولكن « المفكرة » في
 الطبيعة ، تسعى من جديد لتكسب الوحدة ، بعد أن اعتقدتها في تفرق الكائنات
 فيها ، وتسعى لتحصيلها وتحقيقها . وتحصيلها هو « العقل المجرد » . والعقل المجرد
 هو نهاية الطبيعة ورغابتها وهو عندئذ جامع الدعوى ومقابل الدعوى ^(١) .
 وهذا نموذج كذلك من « المثالية » التي صاغت بها « الوضعية » في أورب . وحق
 ما أن تصيق ! وهي هكذا تتعامل مع تصورات عقلية مجردة ، ومع مصطلحات لا
 رصيدها من الواقع ولا علاقة لها بالإنسان لواقعي ولا بالحياة الواقعية !
 ولكن السادة الوصفيين حين كفروا بإله الكيسة ، ثم كفروا بإله « العقل » ، لم
 يذهبوا إلى ما هو أبعدى لقد أقاموا من الطبيعة إلهاً ولكن ما هي هذه الطبيعة ؟
 ما هي هذه لطبيعتها التي « خلقت » لعقل ، والتي كما يقولون « تنقش الحقيقة في
 لعقل » ؟ أم هي كائن محدد ؟ أم هي ذات كمية ؟ أم هي هذه « الأشياء » المتفرقة من
 أجرام وأشكال وحركات وحيثات ؟ أم هي شيء له حقيقة مستقلة عن تصور العقل
 الإنساني ما ؟ أم هي الصورة التي تنطبع في العقل عن المحسوسات التي يدركها ؟ أم
 هي شيء له حقيقة في ذاته ، وما ينطبع منها في العقل قد يطابق حقيقتها وقد لا
 يطابقها ؟

وإذا كانت هذه الطبيعة هي التي « خلقت » العقل الشرى ، فهل هي « خالق »
 له . يجابية « الخلق » من العدم ؟ وإذا إدركت العقل في الإنسان ولم تحقده في
 الحيوان ؟ أو في النبات ؟ أم هي ذات إرادة بميرة مختارة ؟ تحار كثناً بعينه من الكائنات
 لتمنحه هذه المنحة الفريدة ؟

أما إذا كانت حقيقتها لا تتجلى إلا في الفكر الشرى أفلا يكون ظهور هذه
 الحقيقة إذن متوقفاً على وجود العقل الشرى ؟ فكيف تكون هذه الطبيعة « خالقة »
 له ، بعبء لا يظهر إلا فيه ؟

(١) عن كتاب الفكر الإسلامى الحديث وعلاجه بالاسمى العربى ٢٩٣ - ٢٩٥

ثم إن هؤلاء السادة يحبون على معنى لا ضابط له ولا حدود وهم يشيرون إلى الطبيعة !!!

فما الطبيعة ؟ أهى مادة هذا الكون ؟ وما هى ماهية هذه المادة ؟ إن ما كانوا يسمونه « المادة » ويحسونه شيئاً ثابتاً قد تبين لهم هم أنفسهم أنهم لا يستطيعون تحديد ماهيته . إن المادة تحل فإدا هى شعاع فهل الإشعاع هو الطبيعة وهو المادة ؟ أم إن المادة - والطبيعة كذلك - هى الصورة التى يتجسم فيها هذا الإشعاع ؟ إنه لا يشت على حال هذا الإله ! - هو متجسم إذا هو منطلق . وبينه هو مطلق إذا هو محسوس ! - فى أى حالة من حالاته ياترى تكون له القوة الخالقة للعقل البشرى ؟ وهل هو الذى يخلق كذلك صور نفسه المتوالية بحركة أنداً ؟ من إشعاع إلى ذرات ومن ذرات إلى كتل . ومن كتل إلى ذرات . ومن ذرات إلى إشعاع ! - ودع عنك الحياة واخذية الحية و الحياة المتفرقة ! - متى يكون هذا الإله قوة الخلق ؟ فى أى حاله ؟ ومن الذى خلق الإنسان لى يخلق الطبيعة وعقله ؟ أهى خلقته ابتداء ؟ أم اكتمت بأن تخلق عقله بعد وجوده ؟ !

وإذا كانت الطبيعة هى التى « تنقش الحقيقة فى العقل الإنسانى » . فلماذا العقل الإنسانى بالذات ؟ أليست تنطق وتسمعها كل الكائنات الحية ؟ فهل ياترى تنقش هذه الحقيقة كذلك فى عقول الغاب والحمير والسغاوات والقرود أم لا تنقشها ؟ وهل الحقيقة التى نقشتها فى عقل السعاء أو عقل القرود هى ذاتها التى نقشتها فى عقل « أوجست كومت » أو عقل كارل ماركس ؟ !

وإذا كانت لطبيعة هى التى تنقش الحقيقة فى العقل الإنسانى فما هى الحقيقة الصحيحة ؟ هل كانت هذه الحقيقة والعقل يحرم بأن الأرض مركز الكون ؟ أم وهو يحزم بأنها ليست سوى تابع صغير من توسع الشمس ؟ هل كانت والعقل يحزم بأن المادة هى هذه الأشياء الصلبة المحسوسة ؟ أم وهو يحزم بأن المادة ليست سوى طاقة متجمعة ، فى صور متحولة ؟ هل كانت والعقل يحزم بأن الطبيعة ليست شيئاً سوى « عمل العقل » ؟ أم هو يحزم بأن العقل ليس شيئاً سوى انطباع المادة ؟

أتى هذه المبررات لعقله كانت هى الحقيقة التى نقشتها الطبيعة فى العقل البشرى ؟ تراه تخطئ فى النقش ؟ أم أن العقل نفسه هو الذى يشوه النقش ؟ وهل به

إذن فاعلية ذاتية وشخصية مستقلة ؟ في حين يقو السادة الوضعيون : إنه ليس شيئاً آخر سوى ما تنقشه هذه الطبيعة !؟

وندع الحياة وشأنها وأسرارها - كما قلنا - إلى موضع مناقشة هذا السر في التصور الإسلامي ولتصورات الأخرى . ندع الحياة وأسرارها فلا ساقشها هنا وسأل أي إله هذا الذي يقدمه لنا السادة الماديون ؟ إننا لا نجد بين أيدينا ولا في عقولنا ولا في واقعنا منه شيئاً « مضبوطاً » فلماذا نأثرى بحتاره وبدوره - وهو هناك لا نشأ على الشمس ، ولا نشأ على الرؤية ، ولا نشأ على النظر العقل أيضاً ؟ ونحس - والحمد لله - لسنا هاربين من الكيسة !!؟

أما هذا المسيح الذي يثير الاشتمرار في تصور كارل ماركس وسجلر للحياة البشرية ودوافعها ومحالها الذي تتحرك فيه ، وحصرها في جحر « الاقتصاد » فإن شعور بالاشتمرار منه يرداد ، عديم بفع لإنسان أمام عظمة تكون ، مادي نفسه . وما فيه من موافقات عظيمة عجيبة ، ييدر فيها كلها كأنها هي تمهيد للحياة البشرية بوجه خاص : فلا يمالك نفسه من الاحقار والاشتمرار لمثل هذا التفكير الصغير ، ومثل هذا الشعور الذي لا تروجه عظمة هذا الكون ذاته ، ولا تروجه لموافقات انكاملة فيه لاستتعال الحياة البشرية . . فإذا به يدير ظهره لكل هذه العظمة ، ولكل هذه الروعة ، ليحس في جحر الاقتصاد ، والآلة والإنتاج - لا بوصفها عية للإنسان ومحركاً فحسب - ولكن بوصفها كدس لعبة الأولى ، والإله الخالق ، والرب المتصرف ، المتصرف لهذه الحياة !

ولكننا نعود بعد ذلك كله فندكر أن هذا البلاء كله - من مدته إلى نهايته - إنما جاء ثمرة طبيعة لانحراف انكيسة والمجامع بالتصور الرئاسي ومحاولة الفكر الأوربي أن يأتي من وجه الكيسة وإلهها الذي يستطيع به ! فحمد الله أن حل انتصور الإسلامي « الرئاسي » محوفاً ! وإن لم تقم عية كيسة ! وإن لم يقع به ريس العقل البشري والعلم البشري ذلك الصدم ، الذي فد الفكر الأوربي إلى هذا التيه وهذا الركام !

ونذكر أن التصور الإسلامي يدع سعفر البشري وللعلم البشري مدانه وامنه

كاملاً - فما وراء أحسن التصور ومعوماته - ولا يقف دون العقل يصده عن البحث في
الكون بل هو يدعو إلى هذا البحث ويدفعه إليه دفعا ، ولا يقف دون العلم
البشري في المجال الكوني بل هو يكل أمر الخلافة كله - في حدود لتصور الرياضي
للعقل الشري وللعلم الشري - ونذكر مقدار نعمة الله ومقدار رحمته في تفصيله
عليها بهذا التصور الرياضي ، وفي إنقائه وحفظه عن أهله الرياضي .



الشَّكَايَات

«فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ إِنَّ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ»

من الخصائص الأساسية للتصور الإسلامى - خاصية الربابية - تبنى سائر الخصائص الأخرى . وبما أنه «ربى» صادر من الله ، وطبيعة الكينونة الإنسانية فيه هى التلقى والاستجابة والتكيف والتطبيق فى واقع الحياة . وبما أنه ليس نتاج فكر بشرى ، ولا بيئة معينة ، ولا فترة من الزمن خاصة ، ولا عوامل أرضية على وجه العموم . إنما هو ذلك الهدى الموهوب للإنسان هبة إلهية مخصصة من خالق الإنسان ، رحمة بالإنسان .

بما أنه كذلك . فمن الخاصة فيه نشأ خاصية أخرى . . خاصة «الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت» .

هناك «ثبات» فى «مقومات» هذا التصور الأساسية ، و«قيمة» الذاتية . وهى لا تتغير ولا تتطور ، حياً تتغير «ظواهر» الحياة الواقعية ، و«أشكال» الأوضاع العملية . فهذه التغير فى ظواهر الحياة وأشكال الأوضاع ، يظل محكوماً بالمقومات والقيم الثابتة لهذا التصور

ولا يقتضى هذا «تجميد» حركة الفكر والحياة . ولكنه يقتضى السماح لها بالحركة بل دفعها إلى الحركة . ولكن داخل هذا الإطار الثابت ، وحيز هذا المحور الثابت . .

وهذه السمة - سمة الحركة داخل إطار ثابت وحول محور ثابت - هي طابع الصبغة الإلهية في كونه كله - فيما يبدو له - لا في البصور الإسلامي وحده .
 « مادة » هذا الكون - سواء كانت هي الذرة أو الإشعاع البسيط - مطبق عند تحطيمها ، أو أية صورة أخرى - ثابته الماهية ولكنها تتحرك ، فتتحد أشكالاً دائمة التغير والتحرر والتطور .

وإذرة ذات نواة ثابتة تدور حولها الإلكترونات في مدار ثابت وكل كوكب وكل نجم له مداره ، يتحرك فيه حول محوره ، حركة منتظمة ، محكومة بنظام خاص

و« إنسانية » هذا الإنسان ، المستمدة من كونه مخلوقاً فيه نفحة من روح الله اكتسب بها إنسانيته المتميزة عن سائر طبائع المخلوقات حوله إنسانية هذا الإنسان ثابتة^(١) . ولكن هذا « الإنسان » يمر بأطوار حينية شتى من النطفة إلى الشيخوخة أو يمر بأطوار اجتماعية شتى ، يرتقى فيها ويحط حسب أقرانه واستعداده من مصدر إنسانيته ولكن هذه الأطوار وتلك لا تخرجه من حقيقة « إنسانيته » الثابتة وبوازعها وطاقتها واستعداداتها منبثقة من حقيقة إنسانيته

وتروع هذا الإنسان إلى الحركة لتغيير الواقع الأرضي وتطويره حقيقة ثابتة كذلك منبثقة أولاً من الطبيعة الكونية العامة ، المثلثة في حركة المادة الكونية الأولى وحركة سائر الأجرام في الكون ومشتقة ثانياً من فطرة هذا الإنسان وهي مقنصية وظيفته في خلافة الأرض فهذه الخلافة تقتضي الحركة لتطوير لواقع الأرضي وترقيته أما أشكال هذه الحركة فتتوسع وتغير وتتطور^(٢)

وهكذا تبدو سمة « الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت » سمة عميقة في

(١) بدأت الدراوية الحديثة تصحح الداروية القديمة فتقرر أن الإنسان مخلوق فريد من الناحية السبوجية ، ومن الموحى العقيدة والنفسية كذلك وأنه في هذا يتميز تميزاً تاماً عن جمع الحيوانات . ويبين هذا ويبين القوي بأن إنسانية الإنسان خاصية ثابتة فيه منذ البدء . فخطوه ، وإن كان لا يزال يعر على الدارويين أن يحطوها !

(٢) يراجع بوسع في عرض هذه القاعدة كتاب « معركة النفوس » لمحمد طيب الطبعه الأخره (دار الشروق) ص ٨٢ - ٨٣

الصيغة الإلهية فيها . ومن ثم فهي تارزه عميقه في طبيعة التصور الإسلامى
 ونحن نسق السياق هنا ، فنستعرض بمادح من المفومات والقيم الثابتة في هذا
 التصور (سيحىء تفصيل الكلام عنها في موضعه في القسم الثانى من هذا البحث)
 وهى التى تمثل « المحور الثابت » الذى يدور عليه المنهج الإسلامى في إطاره الثابت .
 إن كل ما يتعلق بالحقيقة الإلهية - وهى قاعدة التصور الإسلامى - ثابت الحقيقة ،
 وثبت المفهوم أيضاً ، وغير قابل للتغيير ولا للتصوير
 حقيقة وجود الله ، وسمديته ، ووحدانيته - بكل إشعاعاته - وقدرته ، وهيمته ،
 وتسييره لأمر الخلق ، وطلاقة مشيئته . إلى آخر صفات الله الفاعلة في الكون
 والحياة والناس .

وحقيقة أن الكون كله - أشباهه وأحياءه - من خلق الله وبإداعه - أرادته الله -
 مسجانه - فكأن . وليس لشيء ولا لخلق في هذا الكون ، أثارة من أمر الخلق في هذا
 الكون ، ولا التدبير ولا الهيمنة ولا مشاركة في شيء من حصائص الألوهية
 بحال

وحقيقة العبودية لله . . عبودية الأشياء والأحياء . وعموم هذه العبودية للناس
 جميعاً ، فيهم الرسل - عليهم الصلاة والسلام - عبودية مطلقة ، لا تتلص بها أثارة
 من حصائص الألوهية مع تساويهم في هذه العبودية .

وحقيقة أن الإيمان بالله - بصفته التى وصف بها نفسه - وملائكته وكتبه ورسله
 وليوم الآخر وإلقد حيره وشره . شرط لصحة الأعمال وقبولها ، ولا فهى باطلة من
 الأسس ، غير قابلة للتصحيح ، ومردودة غير محتسنة وغير مقبولة
 وحقيقة أن الله لا يقل من الناس دناً سواء - وأن الإسلام معناه إفراد الله -
 مسجانه - بالألوهية وكن حصائصها والاستسلام لمشيئته ، والرعى بسحاكم إلى
 أمره ومنهجه وشريعته . وأن هذا هو دينه الذى ارتضاه - لا أى دين سواه .

وحقيقة أن « الإنسان » - بجسده - محبوق بمكرم على مائر الخلائق في الأرض
 مستحلف من الله فيها - مسعر له كل ما فيها - ومن ثم هيست هناك قيمة مادية
 في هذه الأرض تعلق قيمة هذا الإنسان ، أو تهدر من أجلها قيمته

وحقيقته أن الناس من أصل واحد ومن ثم فهم - من هذه الناحية متساوون .
وأن القيمة الوحيدة التي يتفاضلون بها - فيما بينهم - هي التمرى والعمل لصالح . لا
أية قيمة أخرى ، من سب ، أو مال ، أو مركز ، أو طقة ، أو حس . إلى آخر
القيم الأرضية

وحقيقة أن غاية الوجود الإنسانى هي لعبادة الله . بمعنى العبودية المطلقة لله
وحده . نكل مقتنيات العبودية ، وأنها لا تهر بأمره - وحده . ن كل أمور الحياة
صغيرها وكبيرها ولنوحه إليه - وحده - بكل بية وكل حركة ، وكل خالصة وكل عمل
والخلافة فى الأرض وفق مسهحه - أو تتعر القرآن وفق ديه - إذ هما تعبران متر دوان
عن حقيقة واحدة . .

وحقيقة أن ر بطة التجمع الإنسانى هي العقيدة ، وهي هذا المسهج الإلهى . لا
الجنس ، ولا انقوم ، ولا الأرض ، ولا اللون ، ولا الطقة ، ولا المصالح الاقتصادية
أو السياسية ، ولا أى اعتبار آخر من الاعتبارات الأرضية

وحقيقة أن الدب دار ابتلاء وعمى وأن الآخرة در حساب وجرأ وأن لإنسان
ملى وممنح فى كل حركة ، وفى كل عمل ، وفى كل حير بباله أو شر ، وفى كل
نعمه وفى كل ضر . . وأن مرد الأمور كلها إلى الله . .

. هذه وأمناها من المقومات والقسم - التى سنعرض لها - لتفصيل فى مواضعها
فى القسم الثانى من هذا البحث - كلها ثابته ، غير قابلة للتغير ولا للتطور . ثابته
لتحرك طواهر الحياة وأشكال الأوصاع فى إطارها ، وتطل مشدودة إليها . ولتراعى
مقتضياتها فى كل تطور لأوصاع الحياة ، وفى كل ارساط بقوم فى المجتمع ، وفى كل
تصميم لأحوال الناس أفراداً وجماعات ، فى جميع الأحوال والأطوار .

وقد تتسع المساحة التى تتحل فىها مدلولات هذه المقومات والقيم ، كلما اتسعت
حوت الحياة الواقعية ، وكلما اتسع محل العلم الإنسانى ، وكلما تعددت لمفاهيم
التي تتحل فىها هذه المقومات والقيم . ولكن أصلها يظل ثابتاً . وتتحرك فى إطاره
تلك المدلولات والمفاهيم .

حقيقة أن لإنسان مستحلف فى هذه الأرض . مثلاً . تتجلى فى صور شتى

تتجلى في صورته وهو يزرع الأرض لأن أوصاع حياته ومدى تجاربه تجعل الزراعة هي التي تفي في ذلك، التطور باحتياجاته الضرورية، وبها تتحقق الخلافة وتتجلى كذلك في صورته وهو يصجر ليرة، ويرس الأقطار الصناعية لتكشف له طبيعة انعلاف الحرى للأرض، أو طبيعة الكواكب والتوابع من حوله هذه وتلك - وما يبيها وما بعدهما - صور من صور الخلافة في الأرض، قسمة دنيا للريادة والاتساع ولكن حقيقة الخلافة في الأرض ثابتة على كل حال يقتضى مفهومها الثابت ألا يحال بين الإنسان ومزاولة حقه في الخلافة وفق مسيح الله المرسوم. وألا يعلو شيء في هذه الأرض على « الإنسان ». وألا تهدر قيمته « الإنسانية » بشئ قمر صاعيا، أو ليصاعف الإنساح المادى! فهو سيد الأقطار الصناعية، وسيد الإنساح المادى!

وحقيقة أن غاية لوجود الإنسانى هي العباد - مثلاً - تتمثل في كل نشاط تنه به الإنسان إلى الله. وألوان النشاط غير محدودة فهي تابعة لمقتضيات الخلافة اسامة المنحددة. وتتمثل في عبوديته لله وحده، بالحاكم إلى منهجه وحده، في كل شؤون الحياة. وهذه الشؤون غير محدودة فهي كذلك تابعة لمقتضيات الخلافة الدمية المتجددة. ولكن حقيقة لغاية ثابتة لا تتغير وإذا لم يتجه إلى الله بكل نشاط وإذا لم يتحكم إلى مسيح الله في كل شأن، فقد أحل هذه الحقيقة، وخرج على غاية وجوده الإنسانى. واعتبر عمله باطلاً غير قابل لتصحيح المستأنف، ولا بالقبول من المؤمنين.

وهكذا - على هذا النحو - تسع مساحة مدلولات هذه المقومات، وتوسع الصور التي تتجلى فيها. ولكنها هي ثابتة في التصور الإسلامى، لا يتأولها التعبير ولا التطور على كل حال



وقسمة وجود تصور ثابت للمقومات والقسم على هذا النحو، هي ضبط الحركة البشرية، والتطورات الحيوية فلا تمنص شاردة على غير هدى. كما وقع في الحياة الأرضية عند أبلت من عروة العقيدة - فنتهت إلى تلك النهاية الدائسة، داب الربيق الخادع وللألاء الكادب، الذى يحفى في طياته الشهوة والحيرة وسكسة والارتكاس.

وقسمته هي وجود ميراث الثالث الذي يرجع إليه « الإنسان » بكل ما يعرض له من مشاعر وأفكار وتصورات ، وبكل ما يحدث في حياته من ملاسات وظروف وارتباطات عبرها هذا ميراث الثالث ، لبري قرعها أو بعدها من الحق والصواب . . ومن ثم يطل دنيا في الدائرة المأمونة ، لا يشرذ إلى التيه ، الذي لا دليل فيه من حجم ثقت ، ولا من معالم هادية في الطريق !

وحيثه هي وجود « مقوم » للفكر الإنساني معوم مضط بذاته يمكن أن ينصسط به الفكر الإنساني فلا يتأرجح مع الشهوات والمؤثرات وإذا لم يكن هذا المقوم لضابط ثابتاً ، فكيف ينصسط به شيء إطلاقاً ؟ إذا دار مع الفكر الشرى - كبها دار - ودار مع الواقع الشرى - كبها دار - فكيف تصبح عملية الصسط ممكنة . وهي لا ترحع إلى ضابط ثابت يمسك بهذا الفكر الدوار ؟ أو هذا الواقع الدوار ؟ إنها ضرورة من ضرورات صيانة النفس البشرية ، والحياة البشرية ، أن تتحرك داخل إطار ثابت ، وأن تدور عن محور لا يدور ! إنها على هذا النحو تمضي على السة الكونية الظاهرة في الكون كله ، والتي لا تختلف في جرم من الأحرام ! إنها ضرورة لا تظهر كما تظهر اليوم وقد تركت البشرية هذا الأصل الثالث ، وأفلت رماها من كل ما يشدها إلى محور وأصبحت أشبه بحرم فلكي خرج من مداره ، وهرق محوره الذي يدور عنيه في هذ المدر . ويوشك أن يصطدم ويدمر نفسه ويصيب الكون كله بالدمار .

« ولو اتع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن . »

(المؤمنون : ٧١)

والعاقل « الواعي » الذي لم يأخذه الدوار اندى يأخذ البشرية اليوم . حين ينظر إلى هذه الشرية المنكودة يراها تتحط في تصوراتها ، وأنظمتها ، وأوضاعها ، وتقاليدها ، وعاداتها ، وحركاتها كلها تحطاً منكراً شيعاً . . يراها تحلج ثيابها وتغرقي كنهووس ' وتتسج في حركاتها وتتحط وتتلط كالمسوس . . يراها تغير أرياءها في الفكر والاعتقاد ، كما تغير أرياءها في الملابس ، وفق أهواء بيوت لأرياء ! . يراها تصرخ من الألم ، وتجري كالطارد ، وتصيح كالبحور ، وتعيد كالسكير .

ونسحب عن لاشيء ، ونجري وراء أحيله ! وتقذف بأثمن ما تملك ، وتختصم أقدر ما
تملك به يداها من أحجار وأوصار !

لعنة ! لعنة كالتى تتحدث عنها الأساطير !

إنها تقتل « الإنسان » وتحوله إلى آلة . . لتصاعف الإنتاج !

إنها تقضى على مقوماته « الإنسانية » وعلى إحساسه بالجمال والخلق والمعاني
السامية لتحقيق الربح لعدد قليل من المرائين وتجار الشهوات ، ومسحى الأفلام
السينمائية وبيوت الأرياء

وتنظر إلى وحده الناس ، وبطراتهم ، وحركاتهم ، وأريائهم ، وأفكارهم ،
وأرائهم ، ودعواتهم . فيخيل إليك أنهم هاربون ! مطاردون ! لا يدرون على شيء ،
ولا يتشبثون من شيء ! ولا يترشثون لبروا شيئاً من رؤية واضحة صحيحة . وهم
هاربون فعلاً ! هاربون من نفوسهم التى بين حوسهم ! هاربون من نفوسهم الخائفة
القلقة الخائرة ، التى لا تستقر على شيء « ثابت » ولا تدور على محور ثابت ، ولا
تتحرك فى إطار ثابت . والنفس البشرية لا تستطيع أن تعيش وحدها شادة عن
نظام الكون كله . ولا تملك أن تسعد وهى هكذا شاردة ذئبة ، لا تطمئن إلى دليل
هاد ، ولا تستقر على قرار مريح !

وحول هذه البشرية المكودة ومرة من المستنقص هذه الحيرة بطاعية ، وهذه
الشروذ القتائل . مرة من المرائين ، ومتحى السنن ، وصانعى الأرياء والصحفيين ،
والكتاب . يهتفون لها بالمرء من الصرع والنعص والدور ، كما تعبت وكلت
خطها ، وحتى فى المدار المنصط والمحور الثابت ، وحاولت أن تعود !

زمرة تهتف لها التطور الانطلاق التجديد بلا ضوابط ولا
حدود . وتدفعها بكلتا يديها إلى المتاهة كما قاربت من المثابة باسم لتطور .
وباسم الانطلاق . وباسم التجديد .

إنها احرمة الجريمة المنكرة فى حق البشرية كلها وفى حق هذا الحبل
المسكود^(١) !

(١) يراجع بتوسع كتاب . « الإسلام ومشكلات الحضارة »

ومكرة « انتطور » المطلق ، لكل الأوصاف ، ولكل القيم ، ولأصل التصور الذى ترجع إليه انقيم فكرة تناقص - كما قد - الأصل الواضح فى سوء الكون ، وفى سوء المظرة . ومن ثم يث عنها الفساد الذى لا عاصم منه . - إنها تمنح حق الوجود ، ومرر الوجود ، لكل تصور ، ولكل قيمة ، ولكل وضع ، ولكل نظام مادام بالياً فى الوجود الرسمى ! وهو مرر بانه ، عرصى ، لا ينبغي أن يكون به ورد فى الحكم على تصور أو وضع أو قيمة أو نظام - إنها ينبغي أن يكون الورود لمقومات ذاتية فى ذات الوضع أو ذات النظام .

و نحن نعرف أن الفكر لأوربي - فى هرويه من الكيسة ، ورعته الخفية والظاهرة فى خلع بيرها - قد مار إلى نهي فكرة « اثبات » - على الإطلاق - واستعاض عنها فكرة « التطور » - على الإطلاق - لم يستش منها أصل العقيدة والشرعية . بل لقد كانت فكرة ثبات مقومات العقيدة والشرعية بالذات هى التى يريد التعلت منها وتخلص والخلاص !

وسبوك الفكر العربى هذا المسلك مفهوم لنا جيداً من خلال الاستعراض السابق . وما يفسره - وإن لم يكن له مدبره على إطلاقه - ونحن لا نشد فى يوم الفكر العربى على موقفه هذا . وإن يكن موقفاً خاطئاً معاً فقد صادف عقيدة منحرفة مشوهة مشوبة بالوثنيات والأساطير منذ اللحظة الأولى ثم واجه كيسة مستندة فاسدة فى الوقت ذاته ، تستصيل على الفكر والعلم والناس باسم هذه الحرافات التى تجعلها أساس العقيدة « الثابتة » !

نحن لا نشد فى يوم الفكر العربى على هذا الموقف ولكننا - فى الوقت ذاته - يجب أن نعطف إلى الأساس الحقيقية لخرق الفكر العربى - أو حموحه - لتعليق فكره « التطور » المطلق ، الذى لا يتقيد بأى أصل ثابت ، ولا بأية قيمة ثابتة ، ولا بأية حقيقة ثابتة . فليست هذه « حقيقة علمية » وإنما هى شهوة حاججه ، وهوى شارد ، معته الرعبه فى التملص من وثاق الكيسة الجبار !

إن دارون - وهو يقرر مذهب انتطور فى حط سير الحياة - لم يكن يبحث ، ولم يكن يحثه يتناول ، إلا حربة سطحية من حربيات هذا الكون . تبدأ بعد وجود الحياة

ولا تمتد إلى مصدر الحياة ، ولا إلى الإرادة التي صدرت عنها الحياة ، وحتى عن فرص صحة نظريته - والآ - توجه معاون الهدم إلى صلب النظرية ^(١) فإن حظ التطور يثبت أن هناك إرادة ناشئة من ورائه ، وأنه يتم وفق حط مرسوم لا مجال للمصادفة فيه ، وأنه جزء من « الحركة » التي هي قانون من قوانين الكون ، وحركة الكون كما فهمنا ليست فوضوية ، وإنما هي تتم حول قاعدة ، ثابته ، ويتم في إطار « ثابت » .

وعلى أية حال فلم يكن لا « المذهب العلمي » ولا « الحماة العلمنة » هي التي أمّلت على دارون - حين لم يمتد إلى سر الحياة ، ولم يستطع تعييدها علماً - أن يهرب من ردها إلى الله ، ووجودها ذاته يحتم الاعتراف بموحد هـ ، وانتظم حط سيره ونسبها مع الكون يحتم الاعتراف بأن موحد هـ لابد أن يكون مريداً محضاً فيما يريد ، علياً حياً ، قادراً على تحقيق ما يريد ، وبكر دارون كان هارباً من « الله » لأنه كان هارباً من الكسبة وإلهها الذي تصور باسمه وتجوّل ، ومن ثم ردّ إحياءه إلى « الصنع » - التي لا حد لقدرتها كما يقول ! ومن ثم حاول أن يوهم أن لا ثبات لشيء - عن الإطلاق - بينما بحثه كنه كان في دائرة حط سير حياة بعد وجود الحياة ، ولم يكن يتناول « كل شيء » على الإطلاق ^(٢) !

والمذهب الماركسي ، هو أشد انداهب « الوضعية » معارضة الحقيقة « الحركة داخل إطار ثابت وحوار محور ثابت » ، لأن الاعتراف بهذه الحقيقة الدرة في طسعة تكون « المادي » ذاته ، يفقد المذهب ركبته الأولى التي يقوم عليها ، ومخطم دعوه في « التقدم » كما يفهمها !

« وماركس له جدل (Dialektik) ومطو استخدم فيه مبدأ « القصص » الذي عرف للفيلسوف الألماني قبله شتبه وهحل ، وبكر استخدمه في محال آخر غير محال « لتصور » عبد بيتشه وغير محال « الفكرة » عبد هيجل استخدمه في محال « الاقتصاد » مستنداً إلى تاريخ الجماعة .

(١) راجع جوان هكس في كتابه « الإنسان والعلم الحديث » ، وثريسي موريون في كتابه

« الإنسان لا يقوم وحده » راجع محمود صالح الفدكي بعنوان « العلم : عز إلى الإله »

(٢) راجع بوسع كتاب « الإنسان بين ماديه وإسلام » وكتاب « معركة التقاليد » لمحمد مطب

« فكل « شيء » في نظره يتضمن نقبضه بحيث أن كل « شيء » يهدم نفسه

وهذا هو التصوير اعلم لبدأ النقيض ولكن ماركس يستخدمه لتدليل على وقوع انهيار « الجماعات » التي قامت على « الرأسمالية » والجماعات المصادقة عليها . وهي دول الملوك ، والجماعات الإقطاعية (أصحاب المزارع الكبيرة) انهارت - بناء على تفكير ماركس - لأنها تضمنت عنصر المقابلة أو النقيض . وعلى هذا النحو كذلك سبهار هذه الجماعة الحديثة « الرأسمالية » وسحول إلى المقابيل والنقيض . وهو الجماعة « الشيوعية » ذات الطغمة الواحدة من العمال .

« ومع أن مبدأ النقيض لا يقف يتحول الشيء إلى مقابله فقط بل سيتحول الشيء ومقابله إلى جامع فيما ثم هذا الجامع يصير إلى « شيء » يتحول أيضاً إلى مقابله . ثم إلى جامع . . . وهكذا . مع أن منطق هذا المبدأ هو الاستمرار في التحول . . . فالماركسية تقف برقب تحول الجماعة ولا تتحدث - فضلاً عن أن نرقب - من انهيار الجماعة الشيوعية وسقوطها . وهدم نفسها في جماعة مقابلة بناء على أن كل شيء يتضمن نقيض نفسه ، وفيه عامل الهدم لنفسه !! »

« وكشيحة لحد (أي للتحول الدائم الذي يقف به ماركس عند الشيوعية تحكماً وهوى) أن الذي يعتقد القيم الأثرية هو مصدق بأشياء لا يوجد . حتى هؤلاء الذين يعتقدون أن بعض القيم للوقت الحاضر ، أو لحال الراهن ، يجب أن يحتفظ بها ، هم مصدقون بها لا ينفذ . فإذا اعتقد شخص أن كل شيء يتغير فمن السذاجة أن يكون محافظاً »

« وعلى نحو صريح هيحل في صياغة مبدأ النقيض ، توضيح الماركسية أن كل شيء يتضمن قوتين رئيسيتين متقابلتين واحدة تسمى « الدعوى » والأخرى تسمى « مقاس الدعوى » وهاتان القوتان يهدم إحداهما الأخرى ولكن يشأ من الهدم حالة جديدة تسمى « جامع الدعوى ومقابلها » ثم يسقط هذا الجامع ويتحول إلى مقابله . وعندئذ نحصل على دعوى ومقابل الدعوى من جديد ثم يشأ من تقابلها وتناقضها جامع جديد في تسلسل لا نهاية له^(١)

(١) ولكن الماركسية كما رأيت نقف نقابها دونه عند هروا ، فلا عمله إلا فيما من نام « الشيوعية » ثم يبطه بعد أن تبلغ « عرصها » من « رنسى » من تفكير علميا . وذلك هو من مبدأ النقيض ذاته من تحكيمية نظرية لا رصيد لها من الواقع كما أسلفنا

وصياغة مبدأ لتقيض في هذه العبارات تناسب تطبيقه في دائرة « الجماعة » التي احتارتها الماركسية محالاً لتطبيق كما تناسب « الصراع » بين الطبقات في جماعة ، التي حرصت هي أيضاً على أن يكون مصطلحها لها ، بدلاً عن « التفاضل » بين الشيء ومقبله ، الذي اصطلاح عليه ينتشه وهيجر من قبل في شرح لتقيض

« واستخدام مبدأ التقيض في دائرة « الجماعة » - كما احتارت الماركسية - يعطيها دليلاً على أن لشيوعية - كجماعة - هي أسمى في القبة من كل جماعة وجدت سابقاً فالجماعة ذات انظم الملكى سقطت ، وبحولت إلى الحاسب ،نقائل - وهو حكم الملك من جانب والعييد والفقراء من جانب آخر - ومن لكفاح بين الفريقين المتقابلين تكوّن الجامع بين لشيء ومقايده - وهو الجماعة الإقطاعية - وبعد ذلك سقط الإقطاع في بقوة لمقايده - وهي قوة الملاك من جانب والفلاحين من جانب آخر - ومن الكفاح بين الملاك والفلاحين نشأ الرأسمالية - وتريد للماركسية أن تقول الآن : « الرأسمالية (في الصناعة) تستسقط في لقوة المقابلة - وهي قوة العمال من جانب وأصحاب العمل من جانب آخر - والجماعة الجديدة هي الجماعة الاشتراكية الماركسية ذات الطبقة الواحدة !

« ولكن أيقف « مبدأ التقيض » عند هذه الجماعة الجديدة ؟ أم تستسقط هي بدورها في مقابل لها - كما هي ضرورة منطق هذا المبدأ - كضرورة حتمية في الوجود ؟ !

« وانتقد الجماعة من حال إلى حال يصعبه في نظر الماركسية التطور في « القيمة » فالإقطاع أسمى من دولة الملك ولرأسمالية أسمى من الإقطاع والشيوعية أسمى من الجماعات الرأسمالية !

« وادعاء أن كل جماعة أسمى من سابقتها مصدر ررق للدعاية الشيوعية وكثير من الناس يصيرون أتباعاً للشيوعية ، لأنهم يعتمدون أنهم يعملون من أجل عالم أحسن من أي عالم وجد قبل ذلك » (١) !!!

وصاهر من هذا العرض لأصول المذهب الماركسي أنه قائم على « التحكم » الذي تملبه الرعة في الوصود إلى نتائج معينة مرسومة من قبل لا على الواقع ولا على تتبع هذا الواقع

(١) « الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار العربي » للدكتور محمد سهى ص ٣١١ ٣١٥

فبدأ القيص تداء - كما هو في فلسفة بيته وهيكل - مجرداً لتحكم « تصويرى
فكرى » لا رصيده له من الواقع - كما أسما - وحين يطفه كارل ماركس على تاريخ
الجماعة البشرية ، يعتمد أولاً أن يسقط جميع « مقومات » الجماعات البشرية ، أى
يمكن أن تجرى فيها تحول - إذا صح بدأً أسقيص - ويعتمد فقط المقوم الانصاري
ويشرح التحول فيه - وهو على كل أهميه - لا يمثل كل مقومات الحياة الإنسانية
ثم هو بعد ذلك كله يعتمد تاريخ جماعة معيه - هى الجماعة الأوربية - ثم هو يتحكم
في تاريخ هذه الجماعة احصاه فيختار بقطاً معيه فيه فصلاً عن استحاله إدراك
فرد واحد ، في حيل من الأحيال ، جميع اعمول وامؤثرات التى لعبت ادوارها في
حياة هذه الجماعة على مدار انهرود ! فختار مطهراً واحداً من مظاهر نشاطها ويهمس
سائر المظاهر ! ثم يتحكم مرة رابعة أو خامسة أو عشرة ، فيعتبر أن كل وضع تال
خير من لوضع السابق به عن الإطلاق ومع ذلك لا يريد أن بدع لعجلة قمصى
إلى وضع خير من الشيوعية بن يوقف سير ستاريخ عند هذه النقطة ! ويصيحى
سأخير الآتى !!!

ومع هذا لهاف في بناء مذهب على مجرد لتحكم وهوى ، فقد صححته نوثة في
ورد القيم لم تقتصر على معتقيه ، بل تجاوزهم إلى المعارضين به كدث في أوربا وفي
أمر بكا ! نوثة التحلى عر كل ما هو سبى ، والتقاط كل ما هو لاحق ولوثة التحلل
من كل قيمة تصد الشهوات عن الانطلاق بلا حدود ولا قيود ولوثة السحرية من
ثبات القيم الأخلاقية وغير الأخلاقية اللوثة اتى كد بركسية من ورائها هدف
خاص ، وعامه مرسومه سمياً وم تكن هى مداتها شحه مطمية لأية دراسة
« علمية » !

فالتطور المطلق هو مجرد عملية تبرير لكل ما يريد عمله وهو أولاً وصل كل
شئ عملية تبرير لما تريده « الدوة » بالأفراد ، بحيث لا يكون هناك مبدأ ثابت ،
ولا قيمة شبة ، يتود بها الأفراد في مواجهه الدوة وبحيث لا يكون هناك « حق
ثبت » يعى إليه الجميع ، ولا دستور ثابت يتحكم إنيه الجميع !
وفي نصير إطلاق يد ندوة تحه لأفراد من كل قيد ، نطلق الدوة « شهوات »
الأفرد من كل قيد ليحددوا في هذا الانطلاق « الحيوانى » نعويصاً عن قيمهم

المسلوبة ، وحرمانهم المسلوبة ، وحقوقهم المسلوبة !
 انطلاق حيواني للشهوات ، يقابله انطلاق استبدادي للسلطة . واحدة
 بواحدة . وبدلاً من أن تقوم هذه الصفقة على مجرد الاصطلاح العرفي الصامت بين
 الفريقين ! فإنها تقوم على مبدأ « فلسفي » ، وعنى مذهب « علمي » ، تقوم على « مبدأ
 النقيض » وتقوم على « المادية الجدلية » !
 وهذا هو المذهب الذي يرغم أن « الدين مخدر » وأن ثبات القيم في الدين مقصود
 به خدمة الطبقة الحاكمة !



إن « الثابت » في مقومات التصور الإسلامي وقسمه - فضلاً على أنه امتداد للنظام
 الكوني . هو الذي يصمم للحياة الإسلامية خاصة « الحركة داخل إطار ثابت حول
 محور ثابت » فيصمم للفكر الإسلامي وللحياة الإسلامية مزية التناسق مع النظام
 الكوني العام ، ويقية شر الفساد الذي يصيب الكون كله لو اتسع أهواء الشر . فلا
 ضابط من قاعدة ثابتة لا تتأرجح مع الأهواء
 وهو الذي بقي الفكر الإسلامي وبقي المجتمع الإسلامي مثل تلك الوثبة في
 الفكر الماركسي وفي الجماعة الشيوعية . وهي الوثبة دائماً التي أصابت الفكر لعربي
 والمجتمعات لعربية بصفة عامة - حتى وهي تعرض الماركسية من الناحية المذهبية
 والسياسية - وذلك منذ أعيد من نطاق العقيدة ، في ظل تلك الملابس النكدة .
 وهو الذي يثبط انعطافية في الصميم مسلم ، وفي المجتمع المسلم الطمأنينة
 إلى ثبات الإطار الذي تنحرك فيه حياته ، وثبات المحور الذي تدور حياته حوله
 فيشعر أن حركته إلى الأمام ، نامة الخطو ، موصولة الخيط ، عمدة من الأمان إلى
 اليوم إلى الغد . نامة مصرده لعمو . صاعدة في مرتقى مرسوم ، بالنقد والإلهي
 التقويم

ثم هو - في النهاية - الذي يصمم للمسلم في المجتمع الإسلامي مبادئ ثالثة
 يتحاكم إليها هو وحكامه على السواء - فلا يطلق هؤلاء أيديهم في مقوماته وحرمانه
 وحقوقه ، في مقابل أن يطلقوا هم حربته الشهوات والروايات الحيوانية للحماهير
 المكبوتة في قبايق الاستبداد !

وبعد فإن التصور الإسلامى - من ثم - يقوم على أساس أن هناك حالين اثنين للحياة الشريفة - ولا علاقة للزمان أو المكان في تقدير قيمته هاتين الحالتين إما القيمة لدات كل حده ولورها في ميران الله الثابت ، الذى لا يتأثر بالزمان والمكان . .

حالتان اثنتان تتعوران الحياة الشريفة على مدى الرمد واحتلاف المكان حالة الهدى وحالة الصلال - مهما تنوعت ألوان الصلال - حالة الحق وحالة الباطل - مهما تنوعت ألوان الباطل - حالة نور وحالة الظلام - مهما تنوعت ألوان الظلام - حالة الشريعة وحالة الهوى مهما تنوعت ألوان الهوى - حالة الإسلام وحالة الخاهلية - مهما تنوعت ألوان الخاهلية - حالة الإيمان وحالة الكفر - مهما تنوعت ألوان الكفر - وإما أن يلتزم الناس الإسلام ديباً (أى مهجاً للحياة ونظاماً) والإف هو الكفر والخاهلية وهوى والظلام والباطل والصلال .

« إن الدين عند الله الإسلام » . . (آل عمران . ١٩)
 « ومن يتبع غير الإسلام ديباً فليس يقبل منه » . (آل عمران ٨٥)
 « فماذا بعد الحق إلا الصلال ؟ » (يونس ٣٢)
 « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » . . . (الجاثية ١٨)

« وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » . . . (الأنعام : ١٥٣)

« الله ولى الدين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور . والذين كفروا أولياؤهم انطاغوت يخرجهم من النور إلى الظلمات » . . (البقرة ٢٥٧)
 « ومن لم يحكم بما أمر الله فأولئك هم كفرون » (المائدة ٤٤)
 « أمحكم الخاهلية يبعون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ؟ »

(المائدة : ٥٠)

« فإن تدبرتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » (النساء : ٥٩)

فإد، ثبت هذا الإطار استطاعت الحياة . فكرة وتصوراً وواقعاً و نظاماً . أن تتحرك في داخله بحرية ومروية ، واستجابة لكل تطور فطري صحيح ، مستمد من التصور الكلي الثابت القويم .

والقيمة الكبرى هذه الخاصة ، هي تثبيت الأهل الذي يقوم عليه شعور المسلم وتصوره ، فنقوم عليه الحياة الإسلامية والمجتمع الإسلامي في استقرار وثبات . مع إطلاق الحرية للنمو لطبيعي في الأفكار والمشاعر ، وفي الأنظمة والأوضاع فلا تنحصر في قالب حديسي ميب . كالذي أرادته الكنيسة في العصور الوسطى . ولا تنفلت كذلك من كل صياغة أمثلة الحجم الهالك من مداره وفلكه ! وانفلات القطيع الشارد في المهلكة المقطوعة ! كما صنعت أوردا في تاريخها الحديث ، حتى انتهت إلى ذلك التفكير الماركسي الشائه !

ولعل هذه الخاصة هي التي صممت للمجتمع الإسلامي تماسكه وقوته مدى ألف عام . على الرغم من جميع اهزات ، ومن جميع الصربات ، ومن جميع الهجمات لوحشية عليه من أعدائه المحيطين به في كل مكان . ولم يبدأ تفككه وضعفه إلا منذ أن تخلى عن هذه الخاصة في تصوره ، وإلا منذ أن أفلح أعداؤه في تحجيه لتوجيه الإسلامي ، وإحلال التوجيهات الغربية مكانه في العالم الإسلامي^(١)

وما لا شك فيه أن المجتمع الذي يجري دائماً وراء تصورات متقلبة أبداً ، لا تستند إلى أصل ثابت إطلاقاً ، تنبع من الفكر لشري المحدود المعرفة ، الظني المعرفة كذلك ، الذي ينشئ علمه - مهما عظم - على الظن والحدس والخرص ، والفروض المتقلبة أبداً . ثم يجعل من هذا العلم الظني لها ، أو يجعل من الهوى المتقلب لها ، يتلقى منه التصورات والقيم والموارد

وما لا شك فيه أن مجتمع كهذا معرض دائماً للهرات العيفة ، والأرجحة المستمرة ، التي تشي في عقله الحيرة ، وفي ضميره البلبلة ، وفي أعصابه التعب ، وفي حياته الشرد ، وفي كيانه الفساد

وهذا هو الذي حدث في المجتمعات الأوروبية الممتدة من كل أصل ثابت وهذا

(١) يراجع كتاب : هل نحن مسلمون ؟؟ لمحمد قطب

هو الذي تشقى به لشربة كنها لوم وهي تخطط في التيه ، وراء لمجتمعات الأوربية الشاردة^(١) !

لا بد من تصور ثابت المقومات والقيم ، يحىء من مصدر ثابت العلم والإرادة ! مصدر يرى المجال كنه ، وخطط كله ، فلا تحفى عليه محببات اندرب ، ولا يقدر ايوم تقديراً يقنهر في عد حظؤه ويقصه ، ولا تتلصق به شهوة أو هوى يؤثر في مواريه ونمديراته . ولا صير بعد هد من الحركة ، والتعير ، والتطور ، والسو والترقى . بل تصح كلها مطلوبة ، وتصح كلها مأمونه ، ونصح كنها تنية للمطرة القائمة على الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت . ولكنها حركة راشدة واعية ، مدركة للعدية الثابتة التي نتجه إليها ، في حطو منرن ، مستقيم راصح . وهذا هو ضمان احياء الطويلة المدى ، المتسقة التصميم .

ولا يحتاج إلى اخطه ضد التجمد في قالب حديدى ، ونحن ستمسك هذه الخاصة في التصور الإسلامى - خاصه الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت - وحاطر التجمد لا يرد على مثل هذا التصور ، ولا على احياء التي تتحرك في إطاره . والحركة كما قلنا هي القاعدة فيه ، كى أب هي القاعدة في التصميم الكونى والكون لا يتجمد ولا يأس ولا يفسد ولا يركد . فهو في حركة دائمة ، وفي تعير دائم ، وفي تطور دائم ، وفي تشكّل مستمر في كل لحظة . ولكنه يتحرك مع استقاء حقيقه الأصلية كما قلنا في مطلع هذه الفقرة .

وحيث يطالع مذهب الفكر العربى ، يرى الصانع العال علىه هو اعتر «التطور» المطلق - دون الرجوع إلى أى أصل ثابت - فحب أن نكون وعين للعوامس الريحية التي جعلت هذا الفكر يجمع - أو يجمع - هكذا . ويجب أن نعطى لما اندس في هذا الفكر من عداء عميق كامر للتفكير الدينى على الإطلاق ، والأمساب انقاعة وراء هذا العداء . ويجب أن ندرك أن مذهب هد الفكر - ب اندس في صلبها من هذا اعداء - لا تصح للتطبيق على مذهب الإسلاميه ، ولا تصلح للاستعانة بها في بحوثنا الإسلامية كندث !

لنا نقنص من هذا الفكر - تاره مباحه - ونرة النتائج التي وصل إليها ، ونرة

() براجع كتاب « الإسلام ومشكلات الحضارة »

رفعاً مرمقة منه - ثم يحيط هذا كله بحديث عن الإسلام ، أو عن المجتمع ، أو عن
مناهج الفكر والطرق وهذه كلها جهالة تنتهي وهي تندى في ثياب المعرفة !
وأحياناً يضاف إلى اجهالة التعاطة وسوء النية كذلك !

يقول الأستاذ المهدي محمد أسد (ليونولد فيس) في كتابه القيم « الإسلام على
مشرق الطرق »

بحر التزييح أن جميع الثقافات الإنسانية ، وجميع المذبيات ، أحسن عصبية
تشبه الكائنات الحية . إنها تمر في جميع أدوار الحياة العصبية ، التي يجب أن تمر
بها . إنها تولد ، ثم تنضج وتنضج ، ثم يدركها الممات في آخر الأمر . والثقافات
كالكائنات التي بدوى ثم يستحيل تروا . يموت في واحة أنمها ، وتفسح المجال
لثقافات أخرى ولدت حديثاً .

« أهذه إذن حال الإسلام ؟ ربما ظهرت كذلك عند إنقضاء أول نظرة سطحية . مما
لاشك فيه أن الثقافة الإسلامية شهدت نهضة عجيبة ، وعهداً من الازدهار . وكان
لها من القوة ما يلهم الرجال حلالات الأعيان ، وأنواع التصحية . ولقد غيرت معالم
الشعوب ، وحلقت دولاً جديدة . ثم سكنت وركدت ، وأصبحت كلمة
خوفاء . وهما نحن أولاء ليوم تشهد انحطاطها انتم وانحطاطها . ولكن من هذا كل
ما في الأمر ؟

« إذا كنا نعتقد أن الإسلام ليس مدينة من المذبيات الأخرى ، وليس شأناً بسيطاً
لآراء البشر وجهودهم ، بل هو شرع سبه الله لنعمل به الشعوب في كل مكان ورماد ،
فإن الموقف يتبدل تماماً .

« وإذا كانت الثقافة الإسلامية - في اعتمادها - نتيجة لاتساع شرعاً مبرلاً . فبما
حيث لا يستطيع أدأ أن يقول إنها كسائر الثقافات ، حاصلة مرور الزمن ،
ومقيدة بقوانين الحياة العصبية . ثم إن ما يظهر انحلالاً في الإسلام ليس إلا موتاً
وحلاء بحلال في قدرها ، التي سيع من خموف وكسبها أنها لا تستمع إلى نصوب
لأرلى . ثم ليس ثمة علامة طاهرة تدل على أن الإنسانية مع نموها مع الحاضر -
قد استطاعت أن تنشب عن الإسلام . إنها لم تستطع أن تسي فكره الإحياء الإنساني

على أساس عملي ، كما استطاع الإسلام أن يفعل ، حسبما أتى بفكرة القومية العدا « الأمة » إنها لم تستطع أن تشدد صرحاً اجتماعياً يتصاعد التصادم والاحتكاك بين أهله فعلاً على مثال ما تم في النظام الاجتماعي الإسلامي . إنها لم تستطع أن ترفع قدر الإنسان ، ولا أن تزيد في شعوره بالأمن ، ولا في رجائه لروحي وسعادته « فني جميع هذه الأمور يرى الحس الشرى في كل ما وصل إليه ، مقصراً كثيراً عما تضمنه المذهب الإسلامي . فأين ما يبرر انقباض إدراك الإسلام قد ذهبت أيما ؟ أدل ذلك لأن أسسه دينية حالصة . والاتجاه الديني رى غير شائع اليوم ؟ ولكن إذا رأينا نظاماً يبنى على الدين ، قد استطاع أن يقدم مساهمة عملياً للحياة أتم وأمن وأصلح للمجتمع الإنساني في الإنسان ، من كل شيء آخر يمكن العن الشرى أن يأتي به عن طريق الإصلاح والافراج . أفلا يكون هذا نفسه حجة بالغة في ميدان الاستشراف الديني ؟

« لقد تأيد الإسلام - ولدينا جميع الأدلة على ذلك - بما وصل إليه الإنسان من أنواع الإنتاج الإنساني ، لأن الإسلام كشف عنها ، وأشار إليها ، على أنها مستحقة ، قبل أن يصل إليها الناس بزمان طويل .

« ولقد تأيد أيضاً - على السواء - بما وقع في أثناء التطور الإنساني من قصور وأخطاء وعثرات لأنه كان قد رفع لصوت عدلياً واضحاً بالتحديد منها ، من قبل أن تتحقق استشرية أن هذه أخطاء . وإذا صرفنا النظر عن الاعتقاد الديني بحد من وجهة نظر عقيدة محض كل تشويق إلى أن نتبع الهدى الإسلامي ، بصورة عملية ، وشقة تامة » . . .

« نحن لا نحتاج إلى فرص إصلاح على الإسلام - كما يظن بعض المسلمين - لأن الإسلام كما من نفسه من قبل أما الذي نحتاج إليه فعلاً ، فهو إصلاح موقفنا من الدين ، معالجة كسلنا ، وعزورنا ، وقصر بظننا ، وبكلمة واحدة : معالجة مساوئنا . . .

« إن الإسلام - كمؤسسة روحية واجتماعية - عني عن كل تحسين وإن كل تعبر في مثل هذه الحال يظراً على مدركاته ، وعلى تنظيمه الاجتماعي ، باعتبارات من

ثقافة أحذية ولو بوشاق صئيل - سيكون مدعاة إلى الأسف الشديد ، وسترجع الخسارة حتماً علينا نحن^(١) .

ونحن نقول ، إن الخسارة لن ترجع علينا - نحن المسلمين وحدها - ولكنها سترجع على البشرية كلها . . . سترجع على البشرية كلها بتشويه وتحريف المصدر الوحيد الباقي لها من هدية الله . وتكدير - أو تسميم - مورد الوحيد ، الذي يمكن أن يستقى منه الهدى الرباني الخالص . وسترجع على البشرية كلها بحرمانها هذه المثانة الثابتة المستقرة ، في الأرض المرححة التي تنور بالأهواء والى طهر فيها الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس . ولم يعبها سبحانه إلا في هذه المثانة الأمانة المستقرة ، الموصولة بالله . . .

والدين يحاولون رغرة هذه المثانة . سواء باسم التحديد والإصلاح واستطور ، أو باسم التخلص من مخلفات القرون الوسطى ! أو تحت أي شعار آخر ، هم أعداؤنا الحقيقيون هم أعداء الحسن الشري . وهم الذين ينبغي أن نطاردهم ، وأن نطلب إلى الحسن الشري مطاردتهم كذلك !

إنهم يتحدثون باسم « التقدمية » ضد « الرجعية » في حين أنهم لا يزالون يقنانون على نتائج القرن التاسع عشر ، أو القرن ثامن عشر - تح أوربا لا تحهم ! - ولم يصلوا بعد إلى نتائج القرن العشرين « إنهم منحلصون في تفكيرهم نصف قرن على الأقل . لم يعلموا بعد أن التفكير المصاد للماركسية ، واللحيوية ، قد أخذ يبدو كظاهرة عامة في الفكر الأوربي نفسه ، بينما هم يتعدون لمادة وحدلية الفكر الماركسي ومشتقاته ! ولشوء وارتقاء دارون ومشتقاته ! إنهم « رجعيون » يرفعون أنهم « تقدميون » ! بينما « التقدمية » الحقيعية اليوم تجد نفسها مضطرة أن تعود إلى الدين . تتطلب هذه الصمائية والراحة واليقين بعد الحيرة والتفكك والشروخ خلال ثلاثة قرون !

ونحن الذين وقنا الله شر تلك الانلاسات لتاريخية التي شردت الفكر الغربي في مجاهل انتيه . . . نكون أحق الحمقى إذا نحن شردنا في التبه مختارين بدون عذر ولا سبب ولا ملايسة من ملايسات لتاريخ

(١) الإسلام عن معتزق الطرق تأليف محمد أسد . ترجمه عمر مروح ص ١٠٩ - ص ١١٢

ولا يكون مصيحين لأنفسا في التبه فحسب ، بل يكون مصيحين للشرية كلها ،
حين يُفقدن أشدة الذنوب ، انتهى يعكس أن تقيء إليها ذات يوم فتجد عند هذا الأمر
والطمأنينة والاستقرار ، بعد طول الشرود والقلق والعدو
فينفدر تعتد الخطرة تجاه أنفسنا ونجاه الشرية كلها في هذا الأمر الخطير

الشُّمُول

«وَكُلُّ شَيْءٍ اخْتِصَاءٌ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ»

والخاصية الثالثة من خصائص لتصور الإسلامى هى . الشمول . وهى كذلك ناشئة من طبيعة الخاصية الأولى . خاصية أنه ربانى ، من صمغ الله لا من صمغ الإنسان . والشمول طالع الصنعة الإلهية الأصيل !

* * *

فالإنسان لأنه أولاً محدود الكيونة من ناحية الزمان والمكان . إذ هو حادث فى زمن ، يبدأ بعد عدم ، وينتهى بعد حدوث . ومتحيز فى مكان ، سواء كان فرداً أو كن حلاً أو كان حسباً ، لا يوجد إلا فى مكان ، ولا ينطلق وراء المكان . كما أنه لا يوجد إلا فى زمان ولا ينطلق وراء الزمان . ولأنه محدود الكيونة من ناحية لعدم والتجربة والإدراك . يبدأ علمه بعد حدوثه ، ويصل من العلم إلى ما يتناسب مع حدود كيونه فى الزمان والمكان ، وحدود وظيفته كذلك . كما أسلفنا . ولأنه فوق أنه محدود الكيونة . بهذه الاعتبارات كلها . محكوم بضعفه وميله وشهوته وزعته . فوق ما هو محكوم بقصوره وجهله . . .

الإنسان وهذه ظروفه ، حيس يفكر فى إنشاء تصور اعتقادى من ذات نفسه ، أو فى إنشاء منهج للحياة الواقعية من ذات نفسه كذلك ، يحىء تفكيره محكوماً بهذه السمة التى تحكم كيونه كلها . يحىء تفكيره جرتياً . يصلح لزمان ولا يصلح لآخر . ويصلح لمكان ولا يصلح لآخر . ويصلح لحال ولا يصلح لآخر ، ويصلح لمستوى ولا يصلح لآخر . فوق أنه لا يتناول الأمر الواحد من جميع روابيه وأطرافه ، وجميع ملاسته وأطواره ، وجميع مقوماته وأساسه . لأن هذه كلها ممتدة فى الزمان

والمكان ، وممتدة في الأسباب ولعلل ، وراء كيونه الإنسان ذاته ، ومحمل إدراكه
وذلك كله فوق ما يعثور هذا التفكير من عوامل الضعف والهوى وهما سمتان
إنسانيتان أصيلتان !

وكذلك لا يمكن أن تحيى فكرة بشرية ، ولا أن تحيى مهج من صبح الشرية
يمثل فيه « الشمول » أبدأ . . . إنها هو تفكير حرثي وتفكير وقتي ومن جرثبه
يقع النقص ، ومن وقبیه يقع الاضطراب اذى يحسم التغيير ، ويتمثل في الأفكار
التي استقل الشر بصعبه ، وفي المناهج التي استقل الشر بوضعها دوام « الناقص »
أو دوام « الجدل » المتمثل في التاريخ الأوربي !

فأما حين يتولى الله - سبحانه - ذلك كله فإن التصور الاعتقادي ، وكذلك
المهج الحيوي المستق منه ، يجئان برئين من كل ما يعثور الضعفة البشرية من
الفصور والنقص والضعف والتضارب وهكذا كان « الشمول » خاصة من
خواص « التصور الإسلامي »

وتمثل خاصية الشمول التي يتسم بها هذا التصور في صور شتى .
إحدى هذه الصور وأكبرها : رد هذا الوجود كله - شأنه ابتداء ، وحركته بعد
شأته ، وكل اشاقة فيه ، وكل محور وكل تغير وكل تطور - وأهيمه عليه وتديره
وتصرمه وتنسقه . . . إلى إرادة الدات الإلهية اسرمدية الأرية الأندية المطلقة . .
هذه الدات المريدة ، القادرة ، المطلقة المشيئة ، المدعة لهذا الكون ، ولكل شيء
فيه ولكل حي - ولكل حركة ، وكل اشاقة ، وكل محور ، وكل تغير ، وكل تطور
بقدر خاص . . . وبمجرد توحه الإرادة . .

فله سبحانه هو الذي أشأ هذا الكون ابتداء ، وهو الذي يحدث فيه بمشيئته
كل تغيير جديد ، وكل اشاق وليد . .

وهذه هي حقيقة « التوحيد » الكبيرة ، التي هي المقوم الأول للتصور الإسلامي
وتقرير هذه الحقيقة يشغل مساحة واسعة من القرن الكريم لا يملك أن
نستعرضها هنا فسحىء بعضها عند ذكر خاصية « الإيجابية » في هذا القسم كما
سبحىء بعضها الآخر عند ذكر خاصية التوحيد في نهاية هذا القسم من البحث ثم
يجيىء التفصيل الكامل بوصفها المقوم الأول من مقومات التصور الإسلامي ، في

القسم الثنى من هذا البحث الخاص بالمقومات فكتفى بها بتقدير قيمة هذه الخاصة :

إن هذا التصور - عن طريق خاصية الشموخ في صورتها هذه - يملك أن يعطيا تفسيراً مفهوماً لوجود هذا الكون ابتداء ثم لكل حركة فيه بعد ذلك وكل انشاقة ويعطى عن الأحص - تفسيراً مفهوماً لانشاق ظاهرة « الحياة » في المادة الصماء وهى بدون شك شىء آخر غير المادة الصماء شىء هائل وشىء عجيب وشىء مقصود . وبين خصائصه المادة لصماء من الأبعاد ، ما يلى مباشرة ما بين العدم والوجود من الأبعاد

إن هذا الكون يوجه الكيونة الإنسانية ابتداء بوجوده ! ويتطلب منها إدراكاً وتفسيراً لهذا الوجود ثم يواحبها تناسقه وموازيه وموافقه العجبية - التى يستحيل أن تأتى به المصادفة - فلمصادفه كذلك فانور يستحيل معه أن تتجمع هذه الموافقات كلها مصادفة ^(١) . ويتطلب منها إدراكاً وتفسيراً هذا التناسق والتوازن والموافقات العجبية ! . . .

والحياة - كذلك توجه الكيونة الإنسانية بعلامات استههام كثيرة ، لا تقل - إن لم نرد عمقاً - عن علامات لاستههام التى يثيرها الكون بوجوده وتناسقه : هذه الحياة كيف انشقت في المادة الميتة ؟ وكيف سدرت - وتسير - سيرتها هذه العجبية المحوطة بآلاف الموفقات والموازبات والتقديرات المرسومة المحسوبة بهذا الحساب الدقيق ؟

ب التصور الإسلامى هو - وحده - الذى يملك أن يقدم لى التفسير المفهوم لكل هذه الموافقات في « تصميم لكون » هو الذى يملك أن يقدم لى تفسيراً بواحه به كل علامة استههام عن وجود هذا الكون ابتداء ، وعن كل شافة تقع فيه كى أنه هو الذى يملك أن يفسر لى سر انشاق الحياة في المادة الميتة ، وسر سيرتها هذه السيرة العجبية دون أن يضطر إلى اهروب من سؤال واحد ، أو إلى المماحكة والمماحلة والإحالة إلى جهات غير محددة المفهوم - كالإحالة إلى الطبيعة !

(١) راجع فصل « المصادفة » في كتاب « العلم يدعو إلى الإيمان » تأليف أ كريس موريسون وترجمة محمود صابح المللكى ص ١٩١ - ١٩٤ من النسخة العربية طبعه مكتبة النهضة الطبعة الأولى

إن المسافة بين الوجود و عدم مسافة لا يكاد يعبرها العقل البشرى فكيف وحد
 هـد لعالم ؟ كيف وحدت هذه « الطبيعة » إن كانوا يعنون به الوجود المادى ؟ كيف
 يعبر العقل البشرى هذه المسافة هائلة إلا بالإحانة على الإرادة المدعة ، التى تقول
 لشيء . كن فكون ؟ إنه إذا لم يعترف بهذه الإرادة المدعة عجز عما عمن التعليل
 والتفسير . أو تحبط تحبط العلامسة فى شتى العصور ا

ومسافة بين المادة الخامدة والحلية الحية بن المسافة التى بين الوجود وانعدم . إنها
 كذلك مسافة هائلة لا يعبرها عقل البشرى إلا بالإحانة على تلك الإرادة المدعة ،
 التى تنشئ ما تريد إنشاء ، وتدعه إساعاً . إرادة الله « الذى أعطى كل شيء خلقه
 ثم هدى » .

والعقل البشرى ، والكيونة اشترية كلها تجد فى هذا الخواب ما يريح . لأنه مهر
 من ان يحيى حياة إلى امدادة الميتة من مصدر آخر غير المادة الميتة العاقدة بحياة
 فها قد اشيء لا يعطيه . ولا يمكن القول بأن احياء خاصة من خواص المادة الكامنة
 فيها . وإلا فكيف ظلت كامنة فيها مالا يخصى من السيى ، لتظهر فى وقت
 معلوم ، دون مدبر وراءها ودون قصد مرسوم ؟ ا

وحسباً هذه لعجاجة عن الكون والحياة فى هذا الموضع ، فسبحىء الكلام
 المفصل عنهما فى موضعه فى القسم الثانى . ولبعد إلى خاصية الشمول التى تتحدث
 عنها ، والتى تتجس فى رد كل شيء فى هذا الكون إلى الله . وشمول إرادته وتديره
 وهمته وسلطته بكل شيء . فورد بعض النصوص القرآنية التى ترسم هذه
 الخاصية .

- « إنا كل شيء خلقناه بقدر » (القمر : ٤٩)
- « وخلق كل شيء فقدره تقديراً » (الفرقان : ٢)
- « وكل شيء عنده بمقدار » . (الرعد : ٨)
- « الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » (طه : ٥٠)
- « إنا قول لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » (اسحل : ٤٠)
- « إن ربكم بى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش »

نُعْشِي اللَّيْلَ الْهَارَ يَطْلُبُهُ حَشًّا ، وَلَشَّمْسٍ وَالْقَمَرِ وَالنَّجْمِ مَسْحَرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقَ وَالْأَمْرَ ، تَبَارَكَ اللَّهُ ذَا الْعَلَمِينَ » (الأعراف . ٥٤)

« وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مَظْلُومُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي مَسْجَرًا . ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مِثْلَ حَاقِقِ الْحَزَنِ إِذْ جَاءَكَ الْحَزَنُ فَلَتَلَوَّاهُ قَدْرًا لَا لَشَّمْسٍ يَنْفِي لَهَا أَنْ تَدْرِكَ الْقَمَرَ ، وَلَا اللَّيْلُ سَاقِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي هَٰذَا يَسْتَبَحُونَ » . (يس : ٣٧-٤٠)

« وَاللَّهُ حَقٌّ كُلُّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ . فَهُمْ مِنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ، وَهُمْ مِنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ، وَهُمْ مِنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَحْكُمُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ . إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (النور . ٤٥)

« وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ » . (الأنبياء : ٣٠)

« إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْخَيْلِ وَلَمُؤِي يَجْرَحُ الْخَيْلَ مِنْ بُيُوتِهِمْ ، وَيَجْرَحُ الْمَوْتِ مِنْ أَهْلِهَا . ذَلِكَ اللَّهُ ، فَابْتَغُوا تَوْفِيقَهُ ! فَالِقُ الْإِصْبَاحِ ، وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْنًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْحَيَاةَ لِتَتَدَوَّلُوا فِي ظِلْمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَهُوَ الَّذِي أَشْرَأَكُمْ مِنْ بَعْضِ وَاحِدَةٍ فَهَسْتُمْ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ نَبَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ ، فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ، نَحْرُجُ مِنْهُ حَبًّا مَتْرَاكًا وَمِنْ أَسْحَلٍ مِنْ طُلُعِهَا قِوَارٍ دَابِيَّةٌ ، وَحَبَاتٍ مِنْ أَعَابٍ ، وَلَزَيُونَ وَالرَّهْمَانَ مَشْنَهٍ وَعَصْرٍ مِثْلَانِهِ . انْطَرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » . (الأنعام ٩٥-٩٩)

وحتى الأحداث التي يبدو فيها سبب قريب ظاهر . يعنى التصور الإسلامى بردها إلى إرادة الله من وراء الأسباب القريبة

« نحن حلصاكم فلولا تصدقون ؟ أفأرأيتم ما تقومون ؟ أنتم تخلقونه أم نحن خالقون ؟ نحن قدرنا بكم الموت وما نحن بمسوفين . على أن تبدل أمثالكم وبشئكم فيها لا تعلمون ولقد عنتممنا أشياء الأولى ، فلولا تذكرنا أفرأيتم ما نحرثون ! أنتم تررعونه أم نحن الرارعون ؟ لو شاء لجعلناه حطاماً فظننتم تفكهنون ! إنا

لعموم ! بل نحن محرومون ! أفأرىتم الماء الذى تشربون ؟ أنتم أنزلتموه من المزن ؟ أم نحن المنزلون ؟ لو شاء جعلناه آحاحاً فتولوا تشكرون ! أفأرىتم النار التى تورون ؟ أنتم أشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ نحن جعلناه تذكرة ومتاعاً للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم (الواقعة - ٥٧ - ٧٤)

« فلم تقتلوهم ، ولكن الله قتلهم . وما رميت - إذ رميت - ولكن الله رمى . وليبلغ المؤمنين منه بلاء حساً » . (الأنفال . ١٧)

ولا يملك فى هذا الموضع أن نمضى - أكثر من هذا - فى تصوير خاصية الشمول فى صورتها هذه - صورة التوحيد - فسيجىء تفصيلها فى القسم لثانى من الكتاب عند الكلام عن « مقومات التصور الإسلامى » . . . فحسب هذا المحمل فى بيان هذه الخاصة

وحسب أن نقول إن التصور الإسلامى - عن طريق هذه الخاصة فى صورتها هذه - يمنح القلب والعقل راحة وطمأنينة ، واتصالاً بحقيقة المؤثرات الداعلة فى هذا الوجود . كما هى فى عالم الحقيقة والواقع - ويعمى المكر الشرى من الضرب فى التيه بلا دليل ، ومن الإحالة على أسس غير مصبوبة - وأحياناً غير موجودة - كإحالة على « لطسعة » ! أو الإحالة على « العقر » ! أو الإحالة على كائنات أسطورية كانت تصورها الوثنيات ، وتنسب لها الفلسفات ، على مدار التاريخ

وذلك كله فضلاً على العنصر الأخلاقى الذى يشته هذا التصور ويثبته . فى القلب البشرى فى الحياة الشريفة وهو يرد حيرط لكون والحياة كلها إلى يد الله ، ورقابته ، وهيمنه ، وسلطانه (مما فصل حديث عنه فى خاصية الإيجابية)

* * *

وصورة أخرى من صور خاصية الشمول فى التصور الإسلامى فهو كما يتحدث عن حقيقة الألوهية وخصائصها وآثارها وصفاتها ، باعتبارها حقيقة الأولى ، والحقيقة الكبرى ، والحقيقة الأساسية فى هذا التصور . كذلك يتحدث عن حقيقة لعبودية وخصائصها وصفاتها . يتحدث عن هذه الحقيقة مثثة فى الكون ، والحياة ، والإنسان . فيتحدث عن حقيقة لكون ، وعن حقيقة الحياة ،

وعن حقيقة الإنسان ، ويتناول في هذا الحدث - طبيعتها وشأها وصفاتها وأحوالها ، وعلاقتها فيما بينها ، ثم علاقتها بالحقيقة الإلهية الكبرى ويربط بين مجموع تلك الحقائق ، من جميع جوانبها ، في تصور واحد منطقي فطري ، يتعامل مع بديهة الإنسان وفكره ووجدانه ، ومع مجموع الكيفية الشريفة في يسر وسهولة .

وهكذا تكون من مجموع الحقائق التي يتناولها هذا التصور في شمول وسعة ودقة وتفصيل ، صورة كاملة شاملة ، وتفسير جامع مفصل ، لا يحتاج إلى إضافة من مصدر آخر بل لا يقلل إضافة من مصدر آخر لأنه أوسع وأشمل ، وأدق وأعمق ، وأكثر تناسقاً وتكاملاً من كل مصدر آخر .

ولقد وقع الفساد في التصور الإسلامي ، ووقع التفتيد والتحليل ، حينما شاء جماعة ممن عرفوا في التاريخ باسم « فلاسفة الإسلام » أن يستعيروا بعض التصورات الفلسفية الإغريقية ، وبعض الاصطلاحات - وبخاصة من أرسطو وأفلاطون وبعض اللاهوتيين المسيحيين - ويدخلوها في جسم « التصور الإسلامي » !

إن هذا التصور من الشمول والسعة ، ومن الدقة والعمق ، ومن الأصالة والتناسق بحيث يرفض كل عنصر غريب عليه ، ولو كان هذا العنصر « اصطلاحاً » تعبيرياً من الاصطلاحات التي تقصصها أرباب التفكير الأحسية فكل اصطلاح له تاريخ معين ، وله إحياء معينة مسمدة من ذلك التاريخ ، ولا يمكن تجريده من هذه الملائمات ، والبرج به في محل حديد ، مقطوع عن تاريخه وللتصور الإسلامي اصطلاحاته الخاصة المتفقة في طبيعته اشتقاقها العلوي ، وفي ملائمتها التاريخية والموضوعية ، مع طبيعته وإحياءاته وهذه ظاهرة دقيقة ، تحتاج إلى حس لطيف ، يدرك مقاصد هذا التصور في الشعور ، ومقاصباته كدلت في التعبير

إن هذا التصور يقوم أسداً على تعريف أساس برهم تعريف دقيقاً كاملاً شاملاً يعرفهم بذاته سبحانه ، ويعرفهم بصفاته ، ويعرفهم بخصائص الألوهية المتفرده ، التي تفرقها تماماً عن خصائص العبودية كما يعرفهم بأثر هذه الألوهية في الكون ، وفي الناس ، وفي جميع العوالم والأمم والجنات ، ومع هذا التعريف على نطاق واسع جداً

في القرآن الكريم ، يصبح معه لوجود الإلهي في النفس البشرية ، وجوداً أكثراً
واضحاً ، موحياً ، مؤثراً ، يأخذ النفس من أقطارها جميعاً ، وتعيش معه النفس
مشدوده إليه ، لا تملك انتقلت منه ، ولا سببه ، ولا إعماله ، لأنه من القوة
والوصوح والمعاني ، بحيث يراجه النفس دائماً ، ويرى لها دائماً ، ويؤثر فيها
دائماً

« الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين » .

(الفاتحة : ٢ - ٤)

« الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تحده سنة ولا نوم له ما في السماوات وما
في الأرض . من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ؟ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا
يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده
حفظهما . وهو العلي العظيم » .

(لقطة ٢٥٥)

« الله لا إله إلا هو الحي القيوم رآه عليّ الكتاب بالحو مصداقاً ما بين يديه ،
وأرسل التوراة والإنجيل ، من قبل هدى للناس ، وأرسل الفرقان إن الدين كفروا
بآيات الله لهم عذاب شديد ، والله عزيز ذو انتقام إن الله لا يخفى عليه شيء في
الأرض ولا في السماء هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو
العزيز الحكيم »

(آل عمران : ٢ - ٦)

« قل . اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء ، وتسرع من تشاء ، وتعرف
من تشاء ، وتدبر من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير . تولج الليل في
النهار وتولج النهار في الليل ، وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي ، وترقى
من تشاء بغير حساب »

(آل عمران : ٢٦ - ٢٧)

« قل من ما في السماوات والأرض ؟ قل الله كتب على نفسه الرحمة
ليجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه الدين حسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون وله

ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم قل أعير الله أتخذ ولي فاطر
 السموات والأرض ؟ وهو يُطعم ولا يُطعم قل ؛ إني أمرت أن أكون أول من أسلم ،
 ولا تكون من المشركين قل ؛ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم من
 نُصرت عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك القول المبين وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف
 به إلا هو ، وإن يمسسك بحير فهو على كل شيء قدير وهو القاهر فوق عباده ،
 وهو الحكمم الخبير قل أي شيء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بيني وبينكم ،
 وأوحى إلي هذا القرآن لأُنذركم به ومن بلغ أنكم لتشهدون أن مع الله إلهة أخرى ؟
 قل لا أشهد قل : إنما هو إله واحد ، وإني بريء مما يشركون ۝

(الأنعام : ١٢-١٩)

١ الله يعلم ما تحمل كل أنثى ، وما نغيض الأرحام وما ترداد ، وكل شيء عنده
 بمقدار عالم الحب والشهادة الكبير المتعال سواء منكم من أسرت القول ومن حهر
 به ، ومن هو مستحق بالليل والنهار له معقبات من بين يديه ومن خلفه
 يحفظونه من أمر الله - إن الله لا يعير ما بهوم حتى يعيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله
 بقوم سوء فلا مرد له ، وما لهم من دونه من ول هو لدى يريكم الرق حواف
 وطمما ، ويشق السحاب انثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من حيثته ،
 ويرسل الصواعق فيصيب بها من شاء ، وهم يخادعون في الله ، وهو شديد المحاب
 له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستحسبون أنهم بشيء إلا كياسة كفيه إلى
 لما ليبلغ فاه - وما هو بآلعه - وما دعاء الكافرين إلا في ضلال والله سبحانه من في
 السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالعدو والأصاقل قل من رب السموات
 والأرض ؟ قل الله . قل أفأتخذهم من دونه أولياء لا يمكنون لأنفسهم بعباد ولا
 ضراً ؟ قل هل يسوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تسوى الظلمات والنور ؟ أم جعلوا
 لله شركاء خلقوا كحفقته فشابهه خلق عبيهم ؟ قل لله خلق كل شيء ، وهو الواحد
 القهار ۝

(الرعد ٨-١٦)

٢ " ومن في السموات والأرض ، ومن عنده لا يسكنون عن عبادته ولا
 يسبحون يسبحون الليل والنهار لا يفترون أم اتخذوا إلهة من الأرض هم

سشرون؟ لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدت ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون ! لا يسأل عما يعمل وهم يسألون » .

(الأنبياء : ١٩ - ٢٣)

« سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم به منبت السموات والأرض ، يحيى ويميت ، وهو على كل شيء قدير هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، ثم أسوى على العرش ، يعلم ما يلج في الأرض ، وما يخرج منها ، وما يرل من السماء ، وما يعرج فيها ، وهو معكم أيها كسم والله بما تعملون بصير له ملث السماوات والأرض ، وبى الله ترجع الأمور يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، وهو عليم بذات الصدور » .

(الحديد : ١ - ٦)

.. إلح . إلح . . .

ويعرف الناس بطسعة الكون الذي يعيشون فيه ، وحصائصه ، وارتباطه بخالقه ، ودلالته على خالقه ، واستعداده بشاة الحياة فيه والأحياء ، وتسحيه لهم بذن الله . . إلح في أسلوب مفهوم للفطرة ، مفهوم للعقل ، يجد مصداقه في لواقع المحسوس ، كما يجد مصداقه في انفطرة المكنونة . يعرفهم به على نطاق واسع ويدعوهم لعرفته ، وإدراك ناموسه وأسراره والعامل معه معاملة صحيحة ، بشاة عن ذلك الإدراك ولعارف والنحاور

« لدى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء ساء وأمرل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم . فلا تجعلوا لله أنداء وأنتم تعصون »

(البقرة : ٢٢)

« الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا يربهم يعدلون »

(الأنعام : ١)

« الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، ومحر اشمس والقمر ، كل يجري لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم تلتقاء ربكم توقنون وهو الذي مء الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ، ومن كل الثمرات

جمع فيها روحين اثنتين ، نعى الليل النهار ، إن في ذلك لآيات لقوم يذكرون
وفي الأرض قطع منحاوراب ، وحدات من أعشاب ، وورع وبحيل صنوان وغير
صنوان يسقى بماء واحد ، ويفصل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات
لقوم يعقلون ۝

(الرعد ٢٠-٢٤)

« هو الذي أنزل من السماء ماء ، لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسمون يست
لكم به الررع والریتون والحیل والأعاب ، ومن كل الثمرات ، إن في ذلك لآية لقوم
يتذكرون وسحر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والحجوج مسحرات بأمره
إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون وما درأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك
لآية لقوم يذكرون وهو الذي سحر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً ، وتستخرجوا منه
حلية تلبسوها ، وترى الفلك مواجر فيه ، ولتستعوا من فضله ، ولعلكم تشكرون
وألقي في الأرض رواسي أن تعيد بكم ، وأنهاراً وسلاً لعلكم تهتدون وعلامات
وبالحجج هم يهتدون أفرم خلق كم لا يحق ؟ أفلا تذكرون ؟ »

(الحج : ١٠-١٧)

« أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهم ، وجعلنا من الماء
كل شيء حي ، أفلا يؤمنون ؟ وجعلنا في الأرض رواسي أن تعيد بهم ، وجعلنا فيها
نهاراً سلاً لعلهم يهتدون وجعلنا السماء سقماً محفوظاً ، وهم عن آياتها
معرضون وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر ، كل في فلك
يسبحون ۝

(الأنبياء ٣٠-٣٣)

« ألم ير أن الله سخر لكم ما في الأرض ، والفلك يحرق في البحر بأمره ، ويمسك
السماء أن تقع على الأرض إلا بؤده إن الله تبارك وتعالى عليم ۝

(الحج : ٦٥)

« ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ، وما كن عن خلق عدلين وآبرنا من السماء
ماء بقدر ، فأسكنه في الأرض ، وباعلى دهاب به لقادرون فأشأ لكم به حبات

من تحيل وأعباء ، لكم فيها فوكة كثيرة ، ومنها تأكلون . . » .

(المؤمنون : ١٧ - ١٩)

« ألم تر أن الله يرحى سبحانه ، ثم يؤلف منه ، ثم يجعله ركاماً ، فرى الودق يخرج من خلاله ؟ ويرى من السماء من حباب فيها من برد ، فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء ، يكاد سى برقه يذهب بالأنصار . يعلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأنصار » .

(النور : ٤٣ - ٤٤)

« ألم تر إلى ربك كيف مد اطل ، وبو شاء لجعله ساكناً ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ؟ ثم قصصناه إليها قصصاً يسيراً . وهو الذى جعل لكم الليل لباساً ، والنوم سباتاً وجعل النهار شوراً . وهو الذى أرسل الرياح شراً بين يدي رحمته ، وأرسل من السماء ماءً طهوراً . لعل ينبت به بلدة ميتاً ، وسقى به مما حنقا أنعماً وأناسى كثر » .

(الفرقان : ٤٥ - ٤٩)

« وآية لهم لأرض الميئة أحساها وأحرحاً منها حثاً فممه يأكلون وجعل فيها حبات من تحيل وأعباء وفجر فيها من العود . يأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم . أفلا يشكرون ؟ سبحانه الذى خلق لأروح كلها ، ما تست الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون . وآية لهم الليل سلخ منه النهار فلا هم مظلمون . واشمس تجرى لمقفره ، ذلك تقدير العزيز العليم . ولعصر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس يسقى ها أن تترك العصر ، ولا الليل سدق النهار ، وكل في فلك يسبحون » .

(يس : ٣٣ - ٤)

« قل : أنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض في يومين ، وتجعلون له أنداداً . ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، ومقدر فيها أقواب في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء ، وهي دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً . قد أنبأ طائفتين . فقصص من سبع سموات في يومين ، وأوحى في كل سماء أمرها . وربنا السماء سدسياً مصبيحاً وحفظاً . ذلك تقدير العزيز العليم » .

(فصلت : ٩ - ١٢)

« أفلم يظفروا إلى السماء عوفهم كيف سبها وريها ، وماها من فروح . والأرض مددناها ، وألقب فيها رواسي وأنشا فيها من كل روح بهيج . تبصرة وذكرى لكل عدد مسب . ويرك من السماء ماء مباركا فأنساه جنات وحب الحصيد . والحل باسقات لها طلع نصيد . رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروح »
(نى : ٦ - ١١)

... إلح ... إلخ .

ويحدثهم عن الحياة والأحياء . فيعرفهم مصدر الحياة ومصدر الأحياء ، وشيئا من خصائصها كدنت ، تلقدر الذى تسمح مدارك البشر بمعرفته . ويعقد بينهم وبين الأحياء جميعا أصرة العودية لله ، ووشيجة القرنة فى حلقهم كدنتهم بإرادته ، وفى اشتراكهم فى بعض الخصائص ، التى تشير إلى الإرادة الواحدة المدعة ، وإلى الصفة الواحدة الدارة . وبذكرهم سعة الله عليهم فى تسخير الكثير من هذه الأحياء لهم
(الأنبياء : ٣٠)

« والله خلق كل دابة من ماء فمهم من يمشى على بطنه ، ومهم من يمشى على رحلين ومهم من يمشى على أربع . يخلق الله ما يشاء ، إن الله على كل شىء قدير »
(السور : ٤٥)

« وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء »

(الأنعام : ٣٨)

« وما من دابة فى الأرض إلا على الله رفقها ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل فى كتاب مبين »

(هود : ٦)

« وكأنى من دابة لا يحمل رفقها ، الله يرفقها وإياكم . »

(العنكبوت : ٦٠)

« ونرى الأرض هامدة . فإذا أنزلنا عليها ماء اعتربت ورب وأسب من كل روح بهيج »

(الحج : ٥)

« يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ويحيى لأرض بعد موتها وكذلك تخرجون » .

(الروم : ١٩)

« واية هم الأرض الميتة أحييها وأخرجها منها حبا فمنه يأكلون وجعلنا فيها حبات من تحيل وأعدت ، وفجريا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون ؟ سبحانه الذي خلق الأرواح كلها مما تئت الأرض ، ومن أنفسهم ، وما لا يعلمون » .

(يس : ٣٣-٣٦)

« فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أرواحا ، ومن لأنعام أرواحا ، يدرككم فيه ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير »

(الشورى : ١١)

« والذي نزل من السماء ماء بقدر ، فأنشرنا به بلدة ميتة ، كذلك تخرجون ، والذي خلق الأرواح كلها ، وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستروا على ظهوره ، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا - سبحانه الذي سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين » .

(الزخرف : ١١-١٣)

« فيضطر الإنسان إلى طعامه » . « أن حسبا لماء صبا ثم شققا الأرض شققا . فأنشأ فيها حيا . وعسا وقصا . وريتربا ونحلا وحدائق علما وفكة وأنا مسعا لكم ولأنعامكم » .

(عس : ٢٤-٢٢)

« مسح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى ولدى قدر فهدى وهدى أخرج المرحى . فجعله عثاء أحوى » .

(الأعلى : ١-٥)

« والله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة ، والملائكة وهم لا يستكبرون بحافون ربه من فوقهم ، ويعملون ما يؤمرون » .

(النحل : ٤٩-٥٠)

« ألم تر أن الله يُسبح له من في السموات والأرض ، والصير صافات ، كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون »

(اسور : ٤١)

... إلح ... إلخ . .

ويحدثهم عن الإنسان حديثاً مستفيضاً ، يساوي مصدره ومشأه ، وطبيعته وخصائصه ، ومركزه في هذا الوجود ، وغايه وجوده ، وعمودينه لربه ومفصليات هذه العمودية ثم بواحي ضعفه وقوته ، وواحياته وبكاليته وكل صغيره وكبيره تتعلق بحياته في هذه الأرض ، ومآله في العالم الآخر .

ولم يكن قصده في هذه الفقرة إلا بيان خاصية الشمول في التصور القرآني ، لا بيان حقائق هذا لتصور ومفوماته . فهذه ها مكائها في القسم الثاني من الكتاب - فإنا نكتفي بإثبات بعض الآيات عن حقيقة الإنسان - كي أثبتنا بعض الآيات عن الحقيقة الإلهية ، وعن حقيقة الكون ، وحقيقته الحياة ، مرحئين الحديث المفصل عنها إلى موضعه في القسم الثاني عن « مفومات التصور الإسلامي » .

« ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون . والحادن خلقناه من قبل من نار السموم . وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته وبعثت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين »

(الحجر : ٢٦ - ٣١)

« ولقد خلق الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خققنا نطفة علقه ، فخلقنا العنقة مصغة ، فخلقنا المصغه عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أشأناه خلقاً آخر . فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » .

(المؤمنون : ١٢ - ١٦)

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » .

(الذاريات : ٥٦ - ٥٨)

« وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال إني أعلم ما لا تعلمون »

(البقرة : ٣٠)

« ولقد كرّمنا نبي آدم ومحمداهم في الر والعر ، ورزقناهم من الطيبات ، ومفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفصيلاً » .

(الإسراء : ٧٠)

« قلنا اهبطوا منها جميعاً فيما يأتيناكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

(البقرة : ٣٨ - ٣٩)

« والعصر إن الإنسان لئى حسر إلا الدبر امسا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

(سورة العصر)

« ولقد خلقنا الإنسان وعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حسن الوريد » .

(ق : ١٦)

« لقد خلقنا الإنسان في كبد » .

(البلد : ٤)

« أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ؟ » (يس : ٧٧)

« وكان الإنسان أكثر شىء جدلاً ! » (الكهف : ٥٤)

« إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً إلا المتصلين » .

(المعارج : ١٩ - ٢٢)

« يريد الله أن يمهف عنكم وحق الإنسان صعباً » .

(السام : ٢٨)

« وإذا مس الإنسان الضر دعانا لحيه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره منه ! . . » .

(يونس : ١٢)

« ولئن أدقنا الإنسان ما رحمة ثم نرعبها منه ، إنه ليثوس كصور . وش أدقناه بعناء بعد صراء مسته ليقول : ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور »

(هود : ٩ - ١٠)

« ويدعو الإنسان بالسر دعه بالخير . وكان الإنسان عجولاً »

(الإسراء : ١١)

« كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى »

(العلق : ٦ - ٧)

« وبفس وم سواها . فألهمها فجورها وتقواها قد أوحى من رزقها . وقد حاب من دسأها » .

(الشمس : ٧ - ١٠)

« لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون »

(التين : ٤ - ٦)

ومكدا يجد الإنسان من كثرة النصوص القرآنية وتنوعها حول هذه الخقائق الأساسية ما شعره بالقصد إلى بيائها وتحديدتها ، والتوسع فيها ، لتكون قاعدة كاملة شاملة للتصور الإسلامى المستقل ، الذى يستمد لبيته - كما يستمد تصميمه - من انصدر الربانى لمصووط ، الموثوق بصحته ، ومعنمه وحرره ، فى عنى كمال عن الاستمداد من أى مصدر حر جرئى المعرفة طوى المعرفة ، يضرب فى التيه بلا دليل !

* * *

وصورة ثالثة من صور الشموخ فى التصور الإسلامى فهو إد برد أمر الكون كله وأمر الحياة والأحياء ، وأمر الإنسان والأشياء إلى برادة واحدة شاملة وإذا يتناول الحقائق انكدية كلها : حقيقة الأنوهمية - الحقيقة الأولى والكرى والأساسية -

وحقيقة الكون ، وحقيقة الحياة ، وحقيقة الإنسان ، يمثل دلت الشمول الذي أشرنا إليه .

هذا التصور إذا يتناول الأمور على هذا النحو الشامل - بكل معاني الشمول - يحاطب الكيونة الإنسانية بكل جوانبها ، وبكل أحوالها ، وبكل حاجاتها ، وكل تجاربها . ويردها إلى جهة واحدة تعامل معها - جهة واحدة تطلب عندها كل شيء ، وتوحيه إليها بكل شيء - جهة واحدة ترحبها وتحتضنها ، وتتلقى عندها وينبغي رعاها - جهة واحدة تمت لها كل شيء ، لأنها حاكمة كل شيء ، ولذلك كل شيء ، ومديرة كل شيء .

كذلك يرد الكيونة الإنسانية إلى مصدر واحد ، تتلقى منه تصوراتها ومفاهيمها ، وقيمها ومورسها ، وشرائعها وقوانينها - وتجد عنده إجابة على كل سؤال يجيش فيها ، وهي توجه الكون والحياة والإنسان ، بكل ما يشهده كل منها من علامات الاستمهام . .

عندئذ تتجمع هذه الكيونة - تتجمع شعوراً وسلوكاً ، وتصوراً واستحاة - في شأن العقيدة والمهيج وشأن الاستمداد والتلقى وشأن الحياة والموت . وشأن انسي والحركة وشأن الصحة والمرض وشأن الدنيا والآخرة . فلا تتفرق مرقاً ، ولا تنحرف إلى شتى السبل والأفاد ، ولا تسبث شتى الطرق على غير اتفاق !

والكيونة الإنسانية حين تتجمع على هذا النحو ، تصب في حيز حالاتها ، لأنها تكون حينئذ في حالة « الوحدة » التي هي طبع الحقيقة في كل محالاتها . والوحدة هي حقيقة الخالق سبحانه والوحدة هي حقيقة هذا الكون - على تنوع المظاهر والأشكال والأحوال . والوحدة هي حقيقة الحياة ولأحياء - على تنوع الأجناس والأنواع - والوحدة هي حقيقة الإنسان على تنوع لأفرد والاستعدادات - والوحدة هي غاية لوجود الإنساني - وهي العباد - على تنوع محالات العبادة وهيئاتها - وهكذا حين يبحث الإنسان عن الحقيقة في هذا الوجود

وحين تكون الكيونة الإنسانية في الوضعية التي يطبق « الحقيقة » في كل محالاتها ، تكون في أوج قوتها الدائمة ، وفي أوج تناسقها - كذلك - مع « حقيقة » هذا الكون الذي تعيش فيه ، وتتعمق معه ، ومع « حقيقة » كل شيء في هذا الوجود ، مما تؤثر

فيه وتأثير به وهذا التناسق هو الذى يتيح لها أن تسير أعظم الآثار ، وأن تؤدي أعظم الأدوار

وحينما علمت هذه الحقيقة أوجها في المجموعة المختارة من المسلمين الأرائل ، صنع الله بها في الأرض أدوراً ، عميقة الآثار في كيان الوجود الإنساني ، وفي كيان التاريخ الإنساني

وحين نوحى هذه الحقيقة مرة أخرى - وهي لابد كائنة بإذن الله - سيصنع الله بها الكثير . مهم يكر في طريقها من العراقيل ذلك أن وجود هذه الحقيقة في ذاته يشق قوة لا تقاوم . لأب من صميم قوة هذا الكون ، وفي اتجاه قوة المدع هذا الكون أيضاً

ومن مظاهر ذلك التجمع في الكيونة الإنسانية ، أن يصح النشاط الإنساني كله حركة واحدة ، متجهة إلى تحقيق غاية لوجود الإنساني العادة العادة التى تتمثل فيها عبودية الإنسان لله وحده في كل ما ينهض به من شؤون الخلافة وهذا التجمع لنفسى والحركى هو مبرة الإسلام الكبرى . به أنه يتناول بالتفسير كل الحقائق التى تواحه النفس الشريفة في الكون كله ، ويتناول بالتوجيه كل جوانب النشاط الإنساني . هى الإسلام - وحده - يمدت الإنسان أن يعيش لدياه وهو يعيش لأخرته ، وأن يعمل لله وهو يعمل لمعاشه ، وأن يحقق كماله الإنساني الذى يطلبه الدين ، في مزاولة نشاطه اليومي في خلافة الأرض ، وفي تدبير أمر الرزق ولا يتطلب منه هذا إلا مرة واحدة : أن يختص العبودية لله في الشعائر التعبدية وفي الحركة العملية على السوء أن يتوجه إلى تلك الجهة لوحدة بكل حركة وكل حاجة ، وكل عمل وكل بنية ، وكل نشاط وكل اتجاه مع المأكد من أنه لا تتجاوز دائرة الحلال الوسعة ، التى تشمل كل طيات الحياة فالله حق الإنسان بكل طاقاته لنشاط كلها ، وتعمل كلها ، وتؤدي دورها ومن خلال عمل هذه الطاقات مجتمعة ، يحقق الإنسان غاية وجوده ، في راحة ويسر ، وفي طمأنينة وسلام ، وفي حرية كاملة منشؤها العبودية لله وحده .

ومنه الخاصة صلح الإسلام أن يكون منهج حياة شاملاً متكاملًا مهجاً شمل الاعتقاد في الصبر ، والتنظيم في الحياة - لا بدون تعارض بينهما - بل في ترابط

وتداخل يعر فصله ، لأنه حرمه واحدة في طبيعة هذا الدين ، ولأن فصله هو غريق وإبعاد لهذا الدين

إن تقسيم النشاط الإنساني إلى « عبادات » و« معاملات » مسألة جاءت متأخرة عند التأليف في مادة « الفقه » . ومع أنه كان المقصود به - في أول الأمر - مجرد لتقسيم « القس » ، الذي هو طبع التأليف العلمي ، إلا أنه - مع الأسف - أشد فيها بعد آثار سيئة في التصور ، تبعته - بعد فترة - آثار سيئة في الحياة الإسلامية كلها ، إذ جعل يترسب في تصورات الناس أن صفة « العبادة » إنما هي خاصة بالسور الأول من النشاط الذي يتساووه « فقه لعبادات » بينما أحدث هذا الصفة بهت بالقياس إلى السور الثاني من النشاط ، الذي يتساووه « فقه معاملات » ! وهو انحراف بالتصور الإسلامي لأشك فيه . فلا حرم يتبعه انحراف في الحياة كلها في المجتمع الإسلامي ليس في التصور الإسلامي نشاط إنساني لا ينطبق عليه معنى العبادة أو يطلب فيه تحقيق هذا الوصف . والمذهب الإسلامي كله عديته تحقيق معنى العبادة ، أولاً وأخيراً

وليس هناك من هدف في المذهب الإسلامي لنظام لحكم ، ونظم الاقتصاد ، والتشريعات الخائلية ، ولتشريعات مدنية وشريعات الأسرة . وسائر التشريعات التي يتضمنها هذا المذهب

ليس هناك من هدف ، لا تحقيق معنى « العبادة » في حياة الإنسان . والنشاط الإنساني لا يكون متصفاً بهذا الوصف ، محققاً لهذه البعية - التي يحدد القرآن أنها هي غاية الوجود الإنساني - إلا حين يتم هذا النشاط وفق المذهب الرباني ، ويتم بذلك إفراد الله - سبحانه - بالألوهية ، والاعتراف له وحده بالعبودية . وإلا فهو خروج عن العبادة . لأنه خروج عن العبودية . أي خروج عن غانة الوجود الإنساني كما أرادها الله . أي خروج عن دين الله !

وأبواب النشاط التي أطلق عليها « الفقهاء » اسم « العبادات » وخصوصاً هذه الصفة - على غير مفهوم التصور الإسلامي - حين تراجع مواضعها في القرآن تبيين حقيقة بارزة لا يمكن غفلها . وهي أنها لم تكن مفردة ولا معرولة عن أنواع النشاط الأخرى التي أطلق عليها الفقهاء اسم « المعاملات » . إنما جاءت هذه وتلك

مرتطة في السياق القرآني ومرتطة في النهج التوجيهي . باعتبار هذه كتلت شطراً من منهج « العادة » التي هي غاية الوجود الإنساني وتحقيماً للمعنى العبودية ، ومعنى أفراد الله - سبحانه - بالألوهية

إن ذلك استقسيم - مع مرور الزمن - جعل بعض الناس يفهمون أنهم يملكون أن يكونوا « مسلمين » إذا هم أدوا نشاط « العبادات » - وفق أحكام الإسلام - بينما هم يراولون كل نشاط « المعاملات » وفق منهج آخر . لا يتلقونه من الله ولكن من إله آخر ! هو لدى يشرع لهم في شؤون الحياة ، ما لم يأذن به الله !

وهذا وهم كبير . والإسلام وحدة لا تنقسم وكل من يفصمه إلى شطرين - على هذا النحو - فإنها يخرج من هذه الوحدة أو بتعبير آخر يخرج من هذا الدين . وهذه هي الحقيقة الكبيرة ، التي يجب أن يلتفت اليها كل مسلم يريد أن يحقق إسلامه ، ويريد في الوقت ذاته ، أن يحقق غاية وجوده الإنساني

إن هذه الحقيقة ليست أهميتها فقط في تصحيح التصور الإيماني - وإن كل هذا التصحيح في ذاته غاية صالحة ، يقوم عليها بناء الحياة كله - بل إن أهميتها تتجلى كذلك في حسن تدوير الحياة ، وبلوغ هذا التدوير أعلى درجات الكمال والتناسق . فقيمة الحياة الإنسانية ذاتها ترتفع حين تصح كنه عبادته لله ، وحين يصح كنه نشاط فيها - صغر أم كبر - حرراً من هذه العبادات ، أو كمن العبادات ، متى نظراً إلى المعنى الكبير الكامل فيه ، وهو أفراد الله - سبحانه - بالألوهية ، والإقرار له وحده بالعبودية . . هذا المقام الذي لا يرتفع الإنسان إلى ما هو أعلى منه ، ولا يبلغ كماله الإنساني إلا في تحقيقه وهو مقام الذي تنقضي الوحي من الله وحالة الإسراء والمعراج أيضاً :

« تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً »

(سورة الفرقان : ١)

« سبحانه الذي أسرى عبده لئلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ، لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع العليم » .

(الإسراء : ١)

و نتحدث الأستاذ المهتدي محمد أسد (ليوبولد فايس) في كتابه « الإسلام عن

مضيق لطرق « حديثاً دقيقاً عم الفرق بين التصور الإسلامى والتصورات الأخرى في هذا الشأن ، وعن أثر ذلك التصور في شعور بحدة الحياة وأهمية كل حركة فيها ، باعتباره الوسيلة الوحيدة لبسوع الإنسان أقصى درجات الكمال الإنسانى في هذه الحياة الدنيا ، فيقول في فصل بعنوان : « سبيل الإسلام »

« يختلف إدراك العادة في الإسلام عما هو في كل دين آخر ^(١) إن العبادة في الإسلام ليست محصورة في أفعال من الخشوع والخالص ، كالصلاة والصيام مثلاً ، ولكنها تتناول « كل » حياة الإنسان العملية أيضاً وإذا كانت العبادة من حيثها على العموم « عبادة الله » فيبرمها حينئذ ، ضرورة ، أن ننظر إلى هذه الحياة في مجموع مظاهرها على أب سعة أدبية ، متعددة النواحي ، وهكذا يجب أن تأبى أعمال كلها - حتى تلك التى تظهر تافهة - عن أنها عبادات ، وأن تأبىها نوعى ، وعلى أب تؤلف جزءاً من ذلك المسهاح العالمى الذى أندعه الله . تلك حال ينظر إليها الرجل العادى على أنها مثل أعلى بعيد ولكن البس من مفاصد هذ الدين أن تتحقق المثل العليا في الوجود الواقع ؟

« إن موقف الإسلام في هذ الصدد لا يحتمل التأويل إنه يعلمنا أولاً أن عبادة الله الدائمة ، والمتشكلة في أعمال الحياة الإنسانية المتعددة جميعها ، هى معنى الحياة نفسها . ويعلمنا ثانياً أن بلوغ هذ المقصد بطر مستحيلاً ما دمنا نقسم حياتنا قسمين ثنين حياتنا الروحية ، وحياتنا المادية . يجب أن تقترن هاتان الحياتان في وعيانا وفي أعمالنا ، لتكون « كلاً » وحاد متسق . إن فكرب عن وحدانية الله يجب أن تتجلى في سعيا لتتوفيق واتوحيد بين المظاهر المختلفة في حياتنا

« هناك نتيجة منطقية هذ الاتجاه هى فرق آخر بين لإسلام وسائر انظم الدينية المعروفة . ذلك أن الإسلام - على أنه تعلم - لا يكتفى بأن يأخذ على عاتقه تحديد الصلات المتعلقة بما وراء الطبيعة . هما بين المرء وحالقه فقط ولكن يعرض أيضاً -

(١) هو يقصد الأديان في صورتها لنى صارت إليها وإلا فإن دين الله كله وحاد في أسسه . وى اعتراف عبادة لله بمعنى العبودية له في كل شىء ، وإفرادة بالأنوحيه ، والنوحه إنه بكل شاط

يمثل هذا التوكيد على الأقل - بلصلة الديوية بين الفرد وبيئته الاجتماعية - إن الحياة الدنيا لا يطر إليها على أنها صدفة عادية و رعة ، ولا على أنها طيف خيال للأخرة ، التي هي آتية لا ريب فيها ، من غير أن تكون مطوية على معنى ما ولكن على أنها وحدة إيجابية تامة في نفسها - والله تعالى « وحده » لا في جوهره محسب بل في العاية إليه أيضاً - من أجل ذلك كان خلقه وحدة ، ربما في جوهره ، إلا أنه وحدة في العاية منه بكل تأكيد .

« وعادة الله في أوسع معانيه كما شرحنا آنفاً تؤلف في الإسلام معنى الحياة الإنسانية - هذا الإدراك وحده يربط إمكان بلوغ الإنسان الكمال - في إطار حياته الديوية الفردية - ومن بين سائر النظم الدينية يرى الإسلام - وحده - يعين أن الكمال الفردي ممكن في الحياة الدنيا . إن الإسلام لا يؤمن هذا الكمال إلى ما بعد إماتة الشهوات « الحسدية » ، ولا هو بعدنا سلسلة متلاحقة المحفقات من « تماشخ الأرواح » على مراتب متدرجة - كما هو الحال في الهندوكية - ولا هو بوافق البودية التي تقول بأن الكمال والسحة لا يتما إلا بعد انعدام النفس الخثرية وانفصام علاقاتها الشعورية من العالم . كلا - إن الإسلام يؤكد في علانه أن الإنسان يستطيع بلوغ الكمال في حياته الدنيا الفردية - وذلك بأن يستفيد استعادة تامة من وجوه الإمكان الديوي في حياته هو » (١)



وبعد فإن هذا الشمول - بكل صوره - فوق أنه مريح للمطرة البشرية ، لأنه يواجهها بمثل طبيعتها الموحدة ، ولا يكلفها عتاً ، ولا يفرقها مرقاً - هو في الوقت ذاته يعصمها من لائحاه لعير الله في أي شأن وفي أبة لحظة ، أو قول أية سيطرة ستعلى عليها بعير سلطان الله ، وفي حدود مهج الله وشريعه في أي جانب من حوسب الحياة - فليس الأمر واهيمة والسلطان لله وحده في أمر « العادات »

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٢١ - ٢٣ من الترجمة العربية بقلم الدكتور عمر مروح

المردية ، ولا في أمر الآخرة - وحدهما - بل الأمر واهيمنة والسلطان لله وحده ، في الدنيا والآخرة في السماوات والأرض . في عالم العيب وعالم الشهادة . في العمل والصلاة . وفي كل نفس ، وكل حركة ، وكل حاجة ، وكل خطوة ، وكل اتجاه .
« وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله . . »

(الرحرف : ٨٤)

* * *

التوازن

«عَا لَرَى فِي عَمَلِي الرَّخْمَنُ مِنْ مُنَاوَنَةٍ»

والخاصية الرابعة في هذا التصور هي التوازن . التوازن في مقوماته ، واستوازن في إيجاءاته . وهي تتصل بخاصية « الشمول » التي سبق الحديث عنها . فهو تصور شامل . وهو شمول متوازن

وقد صانه هذه الخاصية الفريدة من الاندفاعات هنا وهناك ، والعلو هنا وهناك ، والتصادم هنا وهناك . هذه الآفات التي لم يسلم منها أى تصور آخر سواء التصورات الفلسفية ، أو التصورات الدينية التي شوهتها التصورات البشرية ، بما أضافته إليها ، أو بقصته منها ، أو أولته تأويلاً خاطئاً ، وأصاب هذا التأويل الخاطئ إلى صلب العقيدة !

وتتمثل هذه الخاصية في عدة مواربات ، نذكر منها أبرزها :

* * *

هناك التوازن بين الجانب الذي تلقاه الكيفية الإنسانية لتدركه وتسلم به ، وينتهى عملها فيه عند التسليم ، والجانب الذي تلقاه لتدركه ، ونبحث حقيقته وبراهينه ، وتحاول معرفة علله وعباباته وتفكر في مقتضياته العملية ، وتطبقها في حياتها الواقعية

والفطرة البشرية تستريح لهذا وهذا ، لأن كليهما يبنى فيه حاسة أصيلاً ، مودعاً فيها وهي تخرج من يد بارتها . وقد علم الله أن الإدراك البشري لن يتسع لكل أسرار هذا الوجود ، ولن يقوى على إدراكها كلها ، فودع فطرته الارتياح للمجهول ، والارتياح للمعلوم ، ولتوازن بين هذا وذاك في كينها . كالتوازن بين هذا وذاك في صميم الوجود .

إن العقيدة التي لا غيب فيها ولا مجهول ، ولا حقيقة أكرم من الإدراك الشرى المحدود ، ليست عقيدة . ولا تجد فيها النفس ما يلى فطرتها ، وأشواقها الخفية إلى المجهول ، المستر وراء الخجب المسدله . كما أن العقيدة التي لا شئ فيها إلا المعنويات التي لا تدركها العقول ليست عقيدة ! فالكيونة الشرية محتوية على عنصر الوعي . والفكر الإنساني لا بد أن يتقن شيئاً مفهومًا له ، له فيه عمل ، يملك أن يتدبره ويطبقه . . . والعقيدة الشاملة هي التي تنبئ هذا الجنب وذاك ، وتتوارن بها الفطرة ، وهي تجد في العقيدة كماء ما هو مودع فيها من طاقات وأشواق .

فإذا كانت ماهية الذات الإلهية وكيفية تعلق إرادة الله بالخلق وحقيقة الروح . من الحقائق التي لا مسيل إلى الإحاطة بها . كما أسلفنا .^(١) هناك خصائص الذات الإلهية . من وجود ، ووحدانية ، وقدرة ، وإرادة ، وخلق ، وتدبير . وكلها مما يعمل الفكر الشرى في إدراكه ، ومما يستطيع أن يترك ضرورته ومقتضياته في الوجود . والإسلام يعرض هذه الخصائص بدهشها المقتعة . وهناك « الكون » وحقيقته ، ومصدر وجوده ، وعلاقته بحالقه ، وعبوديته له ، واستعداده لاستقبال الحياة ، وعلاقته بالإنسان وعلاقة الإنسان به . وهما « الحياة » شتى أنواعها وأجاسها وأشكالها ودرجاتها ، ومصدرها ، وعلاقتها بطبيعة الكون ، وعلاقتها بمبدعه ومصدرها . وهناك « الإنسان » وحقيقته ، وخصائصه ومصدره ، وعبودية وجوده ، ومنهج حياته . وكلها ترد في منطق مفهوم واضح ، مريح للعقل والقلب . مدغم بالبراهين التي تلتقيها الفطرة بالوصول والسليم :

« أم حَلِقُوا من غير شئ ؟ أم هم الخالقون ؟ أم حَقَّقُوا السماوات والأرض ؟ من لا يوقنون » .

(الطور : ٢٥-٣٦)

« أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يشركون ؟ لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدت . فسبحان الله رب العرش عما يصفون » لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . أم اتخذوا

(١) راجع حاصية ١٥ « تربية » ص ٤٣

من دونه آلهه ؟ قل . هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون .

(الأنبياء : ٢١-٢٤)

« أو ليس الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ؟ بل هو الخلاق لعليم . إني أمره إذ أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون »

(يس : ٨١ ، ٨٢)

« وصرب لنا مثلاً ونسي خلقه . قل : من يحيى العظام وهي رميم ؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم » .

(يس : ٧٨ ، ٧٩)

« أم من خلق السماوات والأرض ، وأنبأ لكم من السماء ماء ، فأنشأ به حدائق ذات سجة ، ماكن لكم أن تستوا شجرها ! إله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون ! أم من جعل الأرض قرراً ، وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها روسى ، وجعل بين البحرين حاجراً ؟ إله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون ! أم من يحيى العظام إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم حكماء الأرض ؟ إله مع الله ؟ قللاً ما تذكرون ! أم من يهديكم في ظلمات البر والبحر ؟ ومن يرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته ؟ إله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون ! أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ إله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »

(الأنعام : ٦٠-٦٤)

« ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم مشر تشرون ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم . إن في ذلك لآيات لعالمين . ومن آياته مزامير الليل والنهار وتعاؤكم من فصله ، إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً ، ويرسل من السماء ماء فيحيي به لأرض بعد موتها ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون »

ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إد دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون » .

(الروم : ٢٠ - ٢٥)

وهكذا وهكد من الحجج الملمة ، والآيات المعروضة في الأنفس والآفاق ، وهى معروضة للنظر والتدبر ، كما أهب معروضة لدرسه والحججه . . والإدراك الشرى مطبوع للنظر فيها ، ولتنفى عنها . وما فشه حجيتها على العصاة لمسوقة لإثباتها . وكبها فى دائرة النظر ، وفى مستوى الإدراك .

وهكذا نجد العطرة الشرية فى التصور الإسلامى ما يدبى أشراقها كلها : من معلوم ومجهول ، ومن غيب لا تحيط به الأفهام ولا تراه الأنصار ، ومكشوف تحول بيه العقول وتتدبره القلوب . ومن محال أوسع من إدراكها تستشعر إراءه حلال الخالق الكبير ، ومحال يعمل فيه إدراكها وتستشعر إراءه قيمة الإنسان فى انكون وكرامته على الله .

وتتورن الكيسوة الإنسانية بهذا ودك ، وهى تؤمن بالمجهول الكبير ، وهى تتدبر المعلوم الكبير . .

* * *

والتوارن بين طلاقة المشيئة الإهية وثبات السنن الكونية فالمشيئة الإهية طليقة ، لا يرد عليها قيد ما ، مما يحطر على الفكر الشرى جملة . وهى تدع كل شىء بمجرد تروحهها إلى إيداعه . وليست هالك قاعدة ملمة ، ولا قالب معروض تنترمه المشيئة الإهية ، حين تريد أن تفعل ما تريد :

« إنما هولنا شىء - إذا أردناه - أن نقول له كن فيكون » .

(المحل : ١٠)

« قال : رب أنى يكون لى علام ، وقد بلعنى الكبر وامرأتى عاقر ؟ قال : كذلك الله يفعل ما يشاء » .

(آل عمران - ١٠)

« قانت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسنى بشر؟ قال : كذلك لله محقق م
يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن فيكون »

(آل عمران : ٤٧)

« وامرأته فائمة فصحكك بشرهاها بإسحاق ، ومن وراء إسحاق
يعقوب قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعنى شيخاً ؟ إن هذا شئ عجيب !
فانوا : أتعجبين من أمر الله ؟ »

(هود : ٧١-٧٣)

« إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ، ثم قل له : كن
فيكون ، اخق من ربك ، فلا تكن من الممترين »

(آل عمران : ٥٩-٦٠)

« ورسولاً إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أحق لكم من
لهين كهية الطير ، وأفصح فيه ، فيكون طيراً - ياد الله - وأبرئ لأكمه والأبرص
وأحيى الموتى - ياد الله - وأشكم بما تأكلون وما تدحرون في بيوتكم إن في ذلك
لآية لكم ، إن كنتم مؤمنين »

(آل عمران : ٤٩)

« أو كندى مر على قرية - وهى خاوية على عروشها - قال : أنى يحيى هذه الله
بعد موتها ؟ فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال : كم لشت ؟ قل : لشت يوماً أو
بعض يوم ! قال : بل لشت مائة عام ! فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه . وانظر
إلى حمارك - ولجعلك آية للناس - وانظر إلى العظام كيف بشرها ثم مكسوها لحمًا .
فما تنى له ، قال : أعلم أن الله على كل شئ قدير »

(البقرة : ٢٥٩)

« قلوا : حرقوه وانصروا الهتكم إن كنتم وعلين قل : يا دار كوى برداً وسلاماً
على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأحسرين »

(الأنبياء : ٦٨-٧)

« فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى : يا مدركوب قل : كلا إن معى

ربى سيهدين فأوحيا إلى موسى أن اصرب عصاك البحر ، فانقلب فكأن كل فرق
كاططود العظيم »

(الشعراء : ١١ - ١٣)

« . . لا تدري نعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » (انطلاق : ١)

وهكذا وهكذا مما يقرر طلاقة المشيئة الإلهية ، وعدم تقيدها بقيد ما ، مما
يحظر على الفكر البشرى ، مما يحسه قانوناً لازماً ، وحتمية لا فكاك منها . .

وفي الوقت ذاته شاءت الإرادة الإلهية المدبرة ، أن تتبدى لماس - عادة - في صورة
نواميس مطردة ، وسم حارية ، يمكن أن يرقبها ، ويدركوها ، ويكيفوا حياتهم
وفقها ، ويتعاملوا مع الكون على أسسها . على أن يبقى في تصورهم ومشاعرهم
أن مشيئة الله - مع هذا - طليقة ، تدع ما تشاء ، وأن لله بعمل ما يريد ، ولو لم
يكن حارياً على ما اعتادوا هم أن يروا المشيئة متجلية فيه ، من السس المقررة
والنواميس المطردة . حسنة كذلك - وراء أسس كلها - أن هذه المشيئة مطلقة ، مهما
تجلى في نواميس مطردة وسم حارية - ومن ثم يوجه الله الأبصار والصفات إلى تدبر
سسه في انكون ، واتعامل معها ، والنظر في مآلاتها - بقدر ما يملك الإدراك البشرى
- والاتماع بهذا البطر في الحياة الواقعة .

« قال إبراهيم : فإن الله يأتي بالشمس من المشرق . فأت بها من المغرب
فبهت الذي كفر » .

(البقرة : ٢٥٨)

« لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر

ولا الليل سابق النهار » .

(يس : ٤٠)

« سة الله في أيدي حلوا من قبل ، ولن تجد سة الله تدبلاً »

(الأحزاب : ٦٢)

« فدحت من قبكم سس ، فسرو في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة
المكدين »

(آل عمران : ١٣٧)

* « أو لم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مسالكهم » إن في ذلك
لآيات أفلا يسمعون ١

(السجدة : ٢٦)

* « ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم ، فحاءوهم بالآيات فانتصنا من
الدين أكرموا . وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

(الروم : ٤٧)

* « ولقد أهلكنا القرون من قبلك لما ظلموا ، وحاءتهم رسلهم بالآيات ، وما
كانوا ليؤمنوا . كذلك نحري القوم المجرمين » .

(يونس : ١٣)

* « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتح عليهم بركات من السماء والأرض ، وما
ولكن كذبوا ، فأخذناهم بما كانوا يكسبون » .

(الأعراف : ٩٦)

ومن ثبات السس وطلاقة المشئة ، يقف الصمير انشري على أرض ثابته
مستقرة ، يعمل فيها ، وهو يعلم طسعة الأرض ، وطسعة الطريق ، وعاية السعى ،
وجزاء الحركة . ويتعرف إلى نوااميس الكون ، وسس الحياة ، وطاقات الأرض ،
ويتففع بها وتتجرده . الثابته فيها سمهج علمى ثابت . وفي الوقت ذاته يعيش
موصون الروح بالله ، معلق القلب بمشيته لا يستكثر عليها شيئاً ، ولا يستبعد عليها
شيئاً ، ولا يشس أمام صعط الواقع أبداً . يعيش طليق التصور ، عر محصور في
قوانب حديدية ، يصع فيها نفسه ، ويتصور أن مشبئة الله - سبحانه - محصورة فيها
وهكذا لا يسلك حسه ، ولا بصمُر رجاؤه ، ولا يعيش في إلف مكرور !

والمسلم بأحد بالأسباب ، لأنه مأمور بالأحد بها . ويعمل وفق السسة ، لأنه
مأمور بمراعاتها . لا لأنه يعتقد أن الأسباب والوسائل هي اسبئة للمسبات
والنتائج . فهو يرد الأمر كله إلى خالق الأسباب ، ويعلق به وحده من وراء الأسباب ،
بعد أداء واجبه في الحركة والسعى والعمل واتحد الأسباب . طدعة لأمر له

وهكذا يتففع المسلم بسات السس في ساء تجارده العلمة وطرثقة العمبة ، في

التعامل مع الكون وأسرره وطواقمه ومدحراته فلا يعوته شيء من مراب العدم
التجريبية ويطرق العملية وهو في لوقت ذاته موضوع القلب بالله ، حتى القلب
هذا الاتصال موضوع الصبر بالشاعر لأدبية لأخلاقية ، نسي برفع العمر وتباركه
وتركيه ، وتسمو بالحياة الإنسانية إلى أقصى الكمال لمقدرها في الأرض ، وفي حدود
صفه الإنسان

* * *

والتوارى بين محال المشئة الإلهة الطليقة ، ومجال المشئة الإنسانية المحدودة
وهي القصة المشهورة في تاريخ الحدل في العالم كله ، وفي المعتقدات كلها ، وفي
القصصات ولوثيات كدلت باسم قصة « لقضاء والقدر » أو الخير والاختيار
والإسلام يشت للمشئة الإلهة انطلاقه - كما أسلف - ويشبها بقاعديه التي لا
قاعيه سواها ، ولا معها - كما دلت في حاصية بشمول وكما سيجيء في حاصيه
الإيجائية - وفي الوقت ذاته يشت للمشئة الإنسانية ، الإيجائية - كما سنفصل ذلك في
حاصية « الإيجائية » - ويجعل للإنسان لدور الأوب في الأرض وحلافنها وهو دور
صحم ، يعطى الإنسان مركزاً ممتازاً في نظام الكون كله ، ويمسحه محالاً هائلاً للعمل
ولماعلية والتأثير ولكن في توارى تام مع الاعتماد بطلاقة المشئة الإلهية ، وتفردتها
بالماعلية الحقيقية ، من وراء الأسباب الطاهرة وذلك باعتبار أن النشاط الإنساني
هو أحد هذه الأسباب الطاهرة وباعتبار أن وجود الإنسان ابتداء ، وزيادته
وعمله ، وحركته ونشاطه ، داخل في صدق المشئة الطليقة ، المحيطة بهذا الوجود وما
فيه ومن فيه (على نحو ما سنفصل في حاصية « الإيجائية ») .

ويقرأ الإنسان في القرآن الكريم

« ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها
إن ذلك على الله يسير » .

(الحديد : ٢٢)

« قل لن يصيب إلا ما كتب الله له هو مولاي ، وعلى الله هليتك المومنون »

(التوبة : ٥١)

« وإن تصبهم حسرة يقولوا هده من عند الله وإن تصبهم سسنة يقولوا هده من عندك . قل كل من عند الله . فإمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » .

(النساء : ٧٨)

« قل لو كنتم في بيوتكم لبرد الله عليكم القتل بل مصاحبتهم »
(آل عمران : ١٥٤)

« ألبما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم في بروج مشيدة »
(النساء : ٧٨)

ويقراً كذلك في الجانب الآخر :
« إن الله لا يعير ما يهون حتى يعيروا ما بأنفسهم » (الرعد : ١١)
« ذلك بأن الله لم يك معيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يعيروا ما بأنفسهم » .
(الأنفال : ٥٣)

« بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو أنقى معاديره »
« ومن وما سواها ، فأهمها فحورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » .

(الشمس : ٧-١٠)

« ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه »
(النساء : ١١١)
ثم بقراً بعد هذا وذلك :
« كلا إنه تذكرة فمن شاء ذكره ومن يذكرون إلا أن شاء الله ، هو أهل التقوى وأهل المعرفة »

(المدثر : ٥٤-٥٦)

« إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً وما نشاءون إلا أن يشاء الله »
(الإنسان : ٢٩-٣٠)

« أو لما أصابكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم : أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم ، إن الله على كل شيء قدير وما أصابكم يوم لتلقى الجمعان فإذن الله »
(آل عمران : ١٦٥-١٦٦)

يقرأ الإنسان أمثال هذه المجموعات المتنوعة الثلاثة ، فيدرك منها سعة مفهوم «قدر» في التصور الإسلامي ، مع بيان المجال الذي تعمل فيه المشيئة الإنسانية في حدود هذا القدر المحيط .

لقد ضرب الفلاسف والعقائد المحرقة في إليه - في هذه القضية - ولم تعد إلا بالحيرة والتحليل . بما في ذلك من حاصو في هذه القضية من متكلمي مسلمين أنفسهم . ذلك أنهم فسدوا منهج الفلسفة الإغريقية ، أكثر مما تأثروا بالمنهج الإسلامي ، في علاج هذه القضية .

في لتصور الإسلامي ليست هناك « مشكلة » في الحقيقة ، حين يواجه الأمر بمفهوم هذا التصور ويبحث

إن قدر الله في الناس هو الذي يشئ ويحقق كل ما ينشأ وما يُحقق من الأحداث والأشياء والأحياء وهو الذي يصرف حياة الناس ويكتفيها . شأنهم في هذا شأن هذا لوجود كنه كل شيء فيه مخلوق بقدر ، وكل حركة تتم فيه بقدر ولكن قدر الله في الناس يتحقق من خلال إرادة الناس وعملهم في ذات أنفسهم ، وما يحدثون فيها من تعبيرات .

« إن الله لا يعبر ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . (الرعد ١١)
وكون مرد الأمر كله إلى المشيئة الإلهية المطلقة ، لا يبطل هذا ولا يعطله فالأمران يجتنب مجتمعين أحياناً في البصر القرآني الواحد ، كما رأينا في لمجموعة الثالثة من هذه النماذج

ونحن إنما نعترض التعارض والتناقض ، حين نطرق إلى القضية بتصوير معين نضوغه من عند أنفس ، عن حقيقة العلاقة بين المشيئة الكبرى ، وحركة الإنسان في نطاقها إلا أن المنهج الصحيح هو ألا يستمد تصوراتنا في هذا الأمر من مقررات عقلية سابقة بل أن يستمد من البصيرة مقرراتنا العقلية في مثل هذه الموضوعات ، وفيما نقصه عليها البصيرة من شأن التقديرات الإلهية ، في المجال الذي لا دليل لنا فيه ، غير ما يطلعنا الله عليه منه

فهو قال : « فمن شاء اتحد إلى ربه سبيلاً » وهو قال : « وما يشاءون إلا أن يشاء الله »

وهو قال : « بل الإنسان عن نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره » . وهو قال :
« ومن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » ، ومن يرد أن يصده يجعل صدره ضيقاً
حرماً كأنها يصعد في السماء » .

(الأنعام : ١٢٥)

وهو قال في الوقت نفسه : « وما ريث بظلام للعبيد »

(قصص : ٤٦)

فلان إدن - وفي تصور المسلم لإلهه وعدله في جرائه ، وضمول مشيئته وقدره - من
أن نكون حقيقه السب بين مدلولات هذه النصوص في حسب الله ، من شأنه أن
تسمح للإنسان بقدر من الإيجابية في الاتجاه والعمل ، يقوم عليه التكليف والجزاء ،
دون أن يعارض هذا القدر مع محال المشيئة الإلهية المطلقة ، المحيطة بالناس ولأشياء
والأحداث .

كيف ؟

كيفية فعل الله كنهها ، وكيفية اتصال مشيئته بما يراد خلقه وإنشؤه كنهها .
ليس في مقدور العقل البشري إدراكها . والصورة الإسلامية يشير تركها للعلم
المطلق ، ولتدبير المطلق - مع اعطائية إلى تقدير الله وعدله ورحمته وفصده - فالتفكير
البشري المحدود يحدد الزمن والمكان ، وبالتأثرات الزمنية والذاتية ، ليس هو
الذي يدرك مثل هذه السب وهذه الكيفيات ، وليس هو الذي يحكم في العلاقات
والارتباطات بين المشيئة الإلهية ونشاط الإنسان . إنما هذا كله متروك للإرادة المدبرة
المحيطة والعلم المطلق الكامل . متروك لله الذي بعدم حقيقة الإنسان ، وتركيب
كثيرته ، وطاقت فطرته وعمله الحقيقي ، ومدى ما فيه من الاختيار ، في نطاق
المشيئة المحيطة ومدى ما يترتب على هذا القدر من الاختيار من جزاء

وبهذا وحده يقع التورب في الصور ، والنوارب في الشعور ، والاطمئنان إلى الحركة
وفق منهج الله ، والتطلع معها إلى حسن الخير

كذلك الحال فيما يسموه : « مشكبه الشر والألم » .

ليست هناك مشكلة من وجهة النظر الإسلامية للأمر

إن الإسلام يقوِّم الإنسان في دار ابتلاء وعمل وفي الآخرة دار حساب وحساب وحياة في هذه الأرض مرحلة محدودة في الرحلة الطويلة وما يقع للإنسان في هذه الأرض ليس حاتمته ، حساب ولا نهاية ، مطاف إنما هو مقدمة لها ما بعدها واحساب تقدر له درجته هناك في دار الحساب

هذا الحل للإسلام لحساب الشعورى من هذه المشكلة في انصميم الشرى ، ويكسب فيه انظامايبه والاستقرار فالألم لدى بلعاه الخير في هذه الأرض من جراء وجود اشتر والنفص فيها ، ليس هو كل نصيبه ، فهناك النصيب الذى يعادل بين كهنى الميران في شطرى الرحلة ، ولشطران موصولان تسيطر عديهما إرادة واحدة . ويحكم فيهما حكم واحد لا يد عن علمه شىء ولا يحتل في ميزانه شىء !

ثم هو يحاطب الحقيقة الشعورية التى يجدها الإنسان في أعماق ضميره وهى أن شعور مؤمن الخير لدى تحقق مسيح الله في حياته ، ويحدهد لتحقيقه في حياة الشر ، يجد - وهو يعانى الألم من حساب اشتر والأشرار - شعوراً مكافئاً من الرضى والسعادة في هذه الدنيا ، قبل أن يجد حراءه المدحر له في الآخرة شعوراً ناشت عن إحساسه بأنه برصى الله في فعل ، وأن الله يرصى عن جهاده للخير وهى شهادته من ذات البنية الحية ، ومن طسعة لعطرة لشريه ، على أن الله جعل لتكوين العطرى للإنسان ، يجد حراءه حاصر في كفاح اشتر والبطل ، وبصرة اخبر واحق ، وأن له من التنازله الكفاح في هذا الطريق ، جراء ذاتيا من كينه لداخلى ، في ذات اللحظة التى يتحمل فيها الألم ، وهو يواجه الشر والبطل ، ويكافحهما ما استطاع وأن العوص كاس في ذات العطرة وفى لاطمئنان إلى حسن الحراء في الدب والآخرة وهذا الاطمئنان أثره حتى قبل يوم حساب الختامى في دار الحساب

« الذين آمنوا ونظمش قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله نظمش القلوب »

(الرعد . ٢٨)

« أقص شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه » قويل لفسسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في صلال مبين .

(الزمر . ٢٢)

« إن الدين قلوبا رب الله ثم ستقموا نسرل عليهم ثلاثكة ألا تحافوا ولا تحربوا ،

وأشروا بجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة . ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ، وكنتم فيها ما تدعون . بزلاً من غفور رحيم ،
(قصص : ٣٠ - ٣٢)

« ولا يهوا ولا تخربوا وأسم الأعداء إن كنتم مؤمنين » .

(آل عمران : ١٣٩)

« قل هل تترصون لنا إلا إحدى الحسنيين ، ونحن نترصد لكم أن يصيبكم الله بعداب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم مترصدون »

(التوبة : ٥٢)

أما وجود الشر في دته ، وما يشأ عنه من الألم في كل صورته ولماذا يوحد ، والله قادر على ألا يوجد ابتداء ، ولو شاء هدى الناس جميعاً ، ولو شاء لخلق الناس كلهم مهتدين ابتداء ؟؟؟ أما هذا السؤال فلا موضع له استة في التصور الإسلامى !
إن الله قادر طبعاً على تدين فطرة الإنسان . عن طريق هذا الدين أو عن غير طريقه . أو خلقه بفطرة أخرى . ولكنه شاء أن يخلق الإنسان بهذه الفطرة وأن يخلق انكون على هذا النحو الذى يراه . وليس لأحد من خلقه أن يسأله ماذا شاء هذا ؟ لأن أحداً من خلقه ليس إياه ! وليس بديه لعدم الإدراك . ولا إمكان العلم والإدراك . - لنظام الكون للكون - ولقتضيات هذا الصدم في طبيعة كل كائن في هذا الوجود . وللهكمة الكامنة في حلقة كل كائن بطبيعته التى خلق عيها

والله وحده هو الذى يعلم ، لأنه وحده هو الذى خلق لكون ، ومن فيه وما فيه ، وهو وحده الذى يرى ماهو خير فيشئه ويقيه ، وهو وحده الذى يقدر أحسن وضع للخلق فيشئه فيه :

« فتبارك الله أحسن الخالقين » (المؤمنون . ١٤)

« الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » . (طه : ٥٠)

« ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة ، ولكن ليبسوكم فيما أنكم ، فاستقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً ، فيسئكم بما كنتم منه تختلفون » .

(المائدة : ٤٨)

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين »

(البقرة : ٢٥١)

« وسلوكم بالشّر والخير فتنة ، وإب ترحعون » (الأنبياء : ٣٥٠)

« ولماذا ، - في هذا المقام - سؤال لا يسأله مؤمن حاد ، ولا يسأله ملحد حاد . المؤمن الحاد لا يسأله ، لأنه أكثر أدباً مع الله - الذي يعرفه من التصور الإسلامى لداته وصفاته - ولأنه أكثر معرفة بمدى إدراكه الشرى لى لم يهباً للعمل في هذا المجال والملحد الحاد لا يسأله كذلك لأنه لا يعرف الله ابتداءً فإن اعترف بالوحيته عرف معها أن هذا شأنه - سبحانه - وأن هذا مقتضى الوحيته ، وأن اختياره هذا هو الخير قطعاً .

ولكنه سؤال يسأله مكارر بخوج ، أو مائع هزل . ومن ثم لا يجوز المضى معه في محاولة تدوير هذا الواقع بمعاني عقلية شرية ، لأنه بطبيعته أكثر من مستوى لعقل الشرى ، وأوسع من المجال الذى يعمل فيه العقل فإدراك أسباب هذا الواقع يقتضى أن يكون الإنسان إهاً ولن يكون الإنسان إهاً ولأنه له من أن يستم هذه البديية الواقعية ، ويسلم بمقتضياتها كذلك^(١)

فأما الماعث على انشر ، ونعرض الإنسان لصعته - وهو ما يدفع إلى الشر والصلال والخطيئة - فالإسلام يقرر أنه أصعب من أن يكون مسلطاً على الإنسان تسليط قهر وعنة . إنما هو تسليط امتحان وانتلاء فهو يتمثل في المعركة بين الإنسان والشيطان ودور الشيطان ولعلنا في هذه المعركة حاجر قوى من الإيوان وذكر الله والاستعادة به ، واللياد بكنمه

« قال - رب ما أعوينى لأرى لهم في الأرض ، ولأعويهم أحمعين إلا عبادك منهم المخلصين . قال هذا صراط على مستقيم إن عبادى ليس لك عليهم سلطان . إلا من اتبعك من العاوين » .

(الحجر : ٣٩-٤٢)

(١) تراجع خاصية « الربانية » ص ٤٢

« قال اهبطا منها جميعا . نعصمكم لبعض عدو . وما يأتىكم من هدى ،
ومن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى من له معيشتة صسكا
وبحشره يوم اقيمة أعمى قال - رب لم حشرنى أعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال
كذلك أتتكم آياتنا فنسيوها ، وكذلك اليوم ننسى » .

(طه ١٢٣٠ - ١٢٦)

« وقال الشيطان لما قصى الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم
فأحلصكم . وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجسم لى فلا
تلومونى ولوموا أنفسكم » .

(إبراهيم : ٢٢)

« وإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . إنه ليس له سلطان على
الدين آموا وعلى دينهم يتوكلون . إنا سلطانة على الدين يتولونه واندين هم به
مشركون » .

(النحل ٩٨ - ١٠٠)

« إن كيد الشيطان كان ضعيفا » .
(النساء : ٧٦)
ثم إنه يعمى بعد ذلك أنه إذا كان الله - سبحانه - هو الذى يخلق كل إنسان .
باستعدادات معينة ، هى التى تجعله يميل إلى الخير والهدى ، أو يميل إلى الشر
والضلال ، فكيف يعذب الله الشرير الضال ، ويكافئ الخير سهتدى ، فى الدنيا أو
فى الآخرة سواء ؟

وهو سؤال حادع - فى صورته هذه - يقابله ويصححه ما يقرره القرآن من أن الله -
سبحانه - خلق الإنسان ابتداء فى أحسن تقويم ، وأنه لا يزول عن مكانه هذا إلا
بعفلة عن الله . وأنه مبتلى بالخير والشر . وأن فيه الاستعداد للترجيح والاختيار - مع
الاستعانة بالله ، الذى يعين من يجاهد لرضاه !

« لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين
آمنا وعملوا الصالحات . فلهم أجر غير ممنون » .

(التين : ٤ - ٦)

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفرج من زكها وقد حب
من دنسها »

(الشمس : ٧ - ١٠)

« إن خلقنا الإنسان من طينة أمشاج ستليه فجعلناه سمياً بصيراً إما هدياً
السييل إما شاكراً وإما كفوراً »

(الإنسان : ٢ - ٣)

« إن سعيكم شتى ، فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسي ، فسيره
لغيرى وأما من رحل واسعى ، وكذب بالحسي ، فسيره لغيرى »

(الليل : ٤ - ١٠)

« والدين جاهدوا فيما لهديتهم سلك وإن الله مع المحسين »

(العنكبوت : ٦٩)

ويقابله كذلك ويصححه ما سبق تمريره من أن قدر الله في الناس يتحقق فيهم
من خلال إرادتهم في ذات أنفسهم ، وفي الحياة من حوزهم
ويرد الأمر في الهداية إلى ما أسلفناه من الحديث عن قدر الله في مطلع هذه
الفقرة

عني أن التصور الإسلامي يعلم المسلم أن الله فرض عليه تكاليف وأصحه ،
وبها عن أمور كذلك وأصحه وهذه وتلك محددة لا شبهة فيها ولا عش
مكتشوفة للعلم الإنساني لا عيب فيها ولا محجوز وهذه وتلك هي لتبيح بحاسه
عليها أم أمر العيب ولقدر وما هو محجوز وراء البظر ، فأمر لم يكلف الله المسلم
ما بحث فيه ، ولم يأمره بشيء يتعلو به ، غير الاعتماد بغير الله حيزه وشره

ومن ثم فطريق المسلم الواضح المحدد مستقيم طريقه أن يهتص بالتكليف
الواضح - ما استطاع - وأن يجتنب السواهي المحددة كما ينبغي وأن يشتغل بمعرفة ما
أمر الله به ، وما هي الله عنه ولا يبحث في شيء وراءهما من أمر العيب المحجوز
عن إدراكه المحدود

وما كان الله - سبحانه - ليكنه شيئاً يعلم أن لا طاقة له به ، أو أنه ممنوع من
قهرى عن النهوض به وما كان الله - سبحانه - يسهاء عن شيء ، يعلم أن لا طاقة
له بالامتناع عنه ، أو أنه مدفع قهرى لا يقوم لآتيه
« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت »

(البقرة : ٢٨٦)

« وإذا فعلوا فحشة قالوا وحدها عليها أباءنا والله أمرنا بها قل إيا الله لا يأمر بالمحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون » قل أمر ربي بأنقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد . وادعوه مخلصين له الدين » .

(الأعراف : ٢٨-٢٩)

وما يؤمن بالله من لا يؤمن بأن الله لا يكفه شيء فوق طاقته ، ولا ينهه عن شيء ليس في مقدوره الانتهاء عنه . . وفي هذه انكفاية

هذا يتم التوارى في الاعتقاد والشعور ، كما يتم التوارى في النشاط والحركة فيشر
التصور الإسلامي في لضمير الرعة في الخير والاستقامة ، وفي الحركة والصاعية مع
الاستعانة بالله الذي بيده كل شيء

وهذا يقطع التعطيل والإرخاء والسلبية ، والإحالة على مشيئة الله في المعصية ، أو
الشلل والجمود والسلب . . وقد علم أن الله لا يرصى لعباده الكفر وأنه لا يجب أن
تشيع الفاحشة في الدين آمنوا ولا يرصى أن يترك المكر بلا جهاد ، ولا أن يترك
الحق بلا نصرة ، ولا أن تترك الأرض بلا خلافة وقد علم أن الإنسان في هذه الدنيا
للاشلاء بالخير والشر ، وللامتحان في كل حركة وكل حالة وأنه محروى على الحسنة
وعلى السيئة في دار الحساب والخراء وأنه كذلك مستحق في هذه الأرض ، وإن
له مكانه في هذا الكون ، وله دوره في مايقع في هذه الأرض من تغيير وتطوير وأنه
إم ياهض بهذه الخلافة - وفق مسجع الله - فمثاب وإما ياكل عن التبعة فمعاقب
ولو كان انكون خوفاً من التبعة ، وفراراً من الاشلاء^١

* * *

وانتوارن بين عبودية الإنسان المطلق لله ، ومقام الإنسان الكريم في الكون
وقد سلم التصور الإسلامي في هذا الصدد من كل الهزات والأرجحات التي تعاورت
المذاهب والمعتقدات والتصورات . . ما بين تأليه الإنسان في صورته الكثيرة وتحقير
الإنسان إلى حد الرابية والمهانة .

إن الإسلام يبدأ مفصل فصلاً تاماً كملأ من حقيقة الألوهية ، وحقيقة
العبودية وبين مقام الألوهية ومقام العبودية . ومن خصائص الألوهية وخصائص
العبودية بحيث لا يقوم شبهة أو عيش حول هذا الفصل الحاسم المحرم

الله « ليس كمثله شيء » فلا يشاركه أحد في ماهية أو حقيقة
والله « هو الأول والأخر والظاهر والباطن » فلا يشاركه أحد في وجود
« كل من عيها فان ، ويعنى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » . فلا يشاركه
أحد في بقاء .

والله « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » فلا يشاركه أحد في سلطان
و « خالق كل شيء » . . فلا يشاركه أحد في خلق .
و « الله بسط الرق لمن يشاء ويفر » فلا يشاركه أحد في رفق
و « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » فلا يشاركه أحد في علم
« ولم يكن له كفوا أحد » . . فلا يشاركه أحد في مقام .
« أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟ » فلا يشاركه أحد في
التشريع للناس وهكما في كل خاصية من خصائص الألوهية
والإنسان عبد لله ككل مخلوق في هذا الوجود
عبد لا يشارك الله في حقيقته ولا خاصية . وليس كما تقول الكنيسة عن المسيح -
عليه السلام - إن له صبيحة لاهوتية صافية ، أو لاهوتية ماسوتية ، على اختلاف
مذاهب والتصورات .

« إن هو إلا عبد أعظم عليه وجعه مثلاً لى إسرائيل »

(الرحرف : ٥٩)

« لن يستكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا للملائكة المقربون »

(النساء : ١٧٢)

« إن كل من في السماوات والأرض إلا انى الرحمن عبداً » .

(مريم : ٩٣)

ولكن الإنسان - بعبوديته هذه لله - كريم على الله فيه نعمة من روح الله مكرم
في الكون ، حتى ليأمر الله الملائكة . وهم عباده المقربون - أن يسجدوا له سجود
اشكريم .

« وإذا قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون فإذا

سؤيته وبصحت فيه من روي ففعوا له ساحدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون ٥
(الحجر : ٢٨ - ٣٠)

وهو مستخلف في هذه الأرض ، مسلط على كل ما فيها ، مسحر له الأرض وما فيها ومحسوب حسابه في تصميم هذا الكون قبل أن يكون .

« وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال . إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال . استنوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك ! لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أسماؤهم بأسمائهم فسلموا عليهم . قال ألم أقل لكم : إني أعلم غيب السماوات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ؟ » .

(البقرة : ٣٠ - ٣٣)

« وسحر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه »

(الحاقة : ١٣)

« وأبقى في الأرض وواسى أن تميد بكم وأسبأ وسلاً لعلكم تهتدون »

(الحلج : ١٥)

« ألم تر أن الله سحر لكم ما في الأرض ، والملك تجري في البحر بأمره . ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ؟ إن الله بالناس لرؤوف رحيم » (الحجج : ٦٥)
والإنسان - كما أسلف - يكون في أرفع مقاماته ، وفي خير حالاته ، حين يحقق مقام العبودية لله - إذ أنه - في هذه الحالة - يكون في أقوم حالات فطرته ، وأحسن حالات كماله ، وأصدق حالات وجوده .

ومقام العبودية لله هو الذي وُصف به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في مقام الوحي ومقام لإسراء والمعراج - كما ذكرنا من قبل - وهو الذي جعله الله غاية الوجود للإنساني وهو يقرب . « وما خلقت الجن والإيس إلا يعبدون »

كما أن قيم الناس في هذا المقام ، هو الذي يعصمهم جميعاً من عبودية العبيد

للعبيد ، وهو الذى يحفظ هم كراماتهم جميعاً ، على اختلاف مراكزهم الدينيّة ، وهو الذى يرفع جباههم فلا تحسّ إلا الله ، وهو الذى يكفيهم - في الوقت ذاته - عن الاستكثار في الأرض بغير الحق ، والعلو فيها والفساد ، ويستحيش في هوسهم التفتوى للمولى الواحد ، الذى يتساوى أمامه العبيد ، ويرفض أن يدعى أحد لعدد بعينه خصائص الألوهية ، فيشرع للناس في شؤون حياتهم بغير سلطان من الله ، ويجعل ذاته مصدر السلطان ، ورايته شريعة لسيّ الإنسان !

ومن ثمّ فإنه لا معارض - في انتصوير الإسلامى - من رفعة الإنسان وعظمته وكرامته وفاعليته ، وبين عبوديته لله - سبحانه - وبمرد الله بالألوهية وبحصانصها جميعاً .

ولا حاجة إذن - عندما يرد رفع الإنسان وتكريمه - أن يجمع عنه عبوديته لله ، أو يضاف إلى باسوتته لا هوتة ليس له ، كما احتاج رؤساء الكسنة والمجمع المقدسة أن يفعلوا ، ليعظموا عيسى - عليه السلام - ويكثروه !

« ولقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم » وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم ، إنه من شرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ، وما لظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد . وإن لم ينهوا عما يقولون ليمسّ الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون إلى الله ويستعصمونه ؟ والله عفو رحيم . ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقه ، كان يأكلان الطعام . انظر كيف ينسبهم الآيات ، ثم نظر أنى يؤفكون »

(المائدة ٧٢-٧٥)

« إذ قرن الله به عيسى ابن مريم ، أنت قلب للناس المتحدوي وأمي إلهي من دون الله ؟ قال سبحانه ! ما يكونى أن أقول ما سرى في حقك . إن كنت قتته فقد عذمته . نعم ما في نفسي ، ولا أعلم ما في نفسك ، إنك أنت علام الغيوب . ما كنت هم إلا ما أمرتني به ، اباعدوا لله ربي وربكم . وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلم توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد . إن

تعبدهم فإنهم عبدك وإن تعمر لهم فبئس أنت العرير الحكيم

(المائدة : ١١٦ - ١١٨)

« لن يستكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً »

(النساء : ١٧٢)

كذلك لا حاجة إلى تصغير الله - سبحانه وتعالى - كلما أريد تعظيم الإنسان ، وإعلان رفعة مقامه في هذه الأرض ، وسيطرته وفاعليته وكلما فتح الله للإنسان فتحاً في أسرار المادة . وكلما سحر له طاقة من طاقات الكون !

إن الله - سبحانه - والإنسان ليسا كهوين ولا ندين ! ولا متصارعين ! ولا يرحح أحدهما ليشيل الآخر ! ولا يغيب أحدهما ليهرم الآخر !

لقد تركت الأساطير الإغريقية ، والأساطير العبرية ، هذه التصورات النقيض التافه في أذهان الأوروبيين . فظل يسيطر على تصوراتهم ، حتى بعد دخول المسيحية !

الأسطورة الإغريقية التي تصور كبير الآلهة « زيوس » عاصباً على لالة « برومهيوس » لأنه سرق سر النار المقدسة (سر المعرفة) وأعطاه للإنسان ، وراء ظهر كبير الآلهة الذي لم يكن يريد للإنسان أن يعرف ، لئلا يرتفع مقامه فيهيط مقام كبير الآلهة ، ويهيط معه مقام « الآلهة » ! ومن ثم أسدمه إلى أقطع انتقام وحشي رعب !

والأسطورة العبرانية التي تصور الإله حائفاً من أن يأكل الإنسان من شجرة الحياة ، بعد أن أكل من شجرة المعرفة . فيصبح كواحد من الآلهة ! ومن ثم يطرد الإنسان من الجنة ، ويقيم دونه ودون شجرة الحياة حراساً شديداً وهيئ سيف مغلق !

والأسطورة التي أطلقها « بيشه » وهو يحيط تحيط الصرع في كتابه . « هكذا قال زردشت » ليعلم « موت الإله » ومولد الإنسان الأعلى (السورما)

« كثرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً » .

إن الإنسان - في الإسلام - يأخذ مكانه الحقيقي دائماً في هدوء ، وفي هواده ، وفي

طبيعية إنه عبد الله وإبه هذه العبودية أكرم خلق الله وهو في مقام العبودية في
أرفع مقام . وفي أسعد مقام . وفي أصلح مقام
ويبقى أن نأخذ - من هذه الخصيصة - أن التصورات الأوربية لثني كسبت فيها
تلك التصورات لأسطورية محتثة ، ودخلت في صميمها ، بل دخلت في مباحث
تفكيرها أن هذه التصورات الأوربية ، وما قام عليها من مباحث التفكير ، وما
نتج منها من مذاهب وأفكار . كلها مضطدم - اصطداماً ظاهراً أو خفياً - مع
التصور الإسلامي ، ومباحث الفكر الإسلامي ، وأن أي استعارة من تلك
التصورات ، أو مباحث التفكير ، أو نتائجها من المذاهب والأفكار ، تحمل في
صميمها عداً طبعياً للتصور الإسلامي ، وللفكر الإسلامي ، ولا تصلح بشأناً
للاقتباس منها أو الاستعانة بها . بل هي كالسم لدى يتلف الأنسجة ، ويؤدي
الأعضاء ، ويقتل في النهاية إذا كثرت المقدار !!!

* * *

والتوارن في علاقة العبد بربه . بين موحيات الخوف والرهبة والاستهوان ،
وموحيات الأمن والطمأنينة والأس . فصفات الله الداعلة في الكون ، وفي حياة
لناس ولأحياء ، تجمع بين هذين الإحياء وذاك . في توارن تام .
ويقراً المسلم في كتاب الله الكريم من صفات ربه ما يحجب القلوب ، ويرلزل
العرائض ، ويبرر الكيان ، من مثل قوله تعالى :
« واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون » (الأنعام : ٢٤)
« يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور » (عاقر : ١٩)
« ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حسن
الوريد »

(ق : ١٦)
« وعلّموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه » (البقرة : ٢٣٥)
« واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب » (اسقرة : ١٩٦)
« يستدرحهم من حيث لا يعلمون وأملى لهم إن كذبوا متين »
(القلم : ٤٤ - ٤٥)

« إن بطش ربك لشديد » (الروح : ١٢٠)

« والله عزيز ذو انتقام » . (آل عمران : ٤)

« وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة . إن أحدهم ألهم شديد »

(هود : ١٠٢)

« وذري والمكدين أولى العمة ومهلهم قليلا . إن لدينا أنكالا وجحيماً ، وطعاماً ذا عصاة وعداباً ألياً . يوم نرحف الأرض والحبال ، وكاس الحبال كثيلاً مهيلاً »

(الزمر : ١١-١٤)

وصور العذاب في مشاهد القيامة رعية رعية^(١)

وبقرأ المسلم كذلك من صفات ربه ، م يملأ قلبه طمأنينة وراحة ، وروحه أسا وقرناً ، ونفسه رجاء وأملًا . من مثل قوله تعالى :

« وإذا سألت عبادي عني فإني قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان »

(البقرة : ١٨٦)

« أم من يجيب المصطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم حفاء الأرض ؟ إله مع الله ؟ » .

(الزمر : ٦٢)

« الشيطان يعدكم الفقر وأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفصلاً » .
والله واسع عليم .

(البقرة : ٢٦٨)

« وما كان الله ليضيع إيمانكم . إن الله بالناس لرؤوف رحيم »

(البقرة : ١٤٣)

« يريد الله أن يحفف عبكم وحلق الإنسان صعباً » (النساء : ٢٨)

« ما يعص الله بعددكم إن شكرتم وأمتن ؟ وكان الله شاكراً عليم »

(النساء : ١٤٧)

(١) يراجع كتاب : مشاهد القيامة

« يا الذين آمنوا وعملوا الصالحات سبحانه هم اجرهم ودا »

(مريم : ٩٦)

(البروج : ١٤)

« وهو العمود الودرد » .

(البقرة : ٢٠٧)

« والله رؤوف بالعباد »

« ويشير المؤمنون ابدي يعملون الصالحات ن لهم أجرا حسنا ما كثر فيه أندا »

(الكهف : ٢-٣)

وصور نعيم في مشاهد القيمة رحية رحية^(١)

ومن هذا وذاك يقع التوازن في الصمير بين الخوف والطمع ، والرمة والأسر ،
وانزعج والطمأنينة وسير الإنسان في حياته ، يقطع الطريق إلى الله ، ثاب
الخطو ، مصوح العين ، حتى القرب ، موصوب الأمل حذرا من الخلق ، صاعدا
أندا إلى الأفق الوصى لا يستهتر ولا يستهين ، ولا يعفل ولا يسي . وهو في
لوقت ذاته شاعر برعاية الله وعونه ، ورحمة الله وفصله ، وأن الله لا يريد به السوء ،
ولا يود له العت ، ولا يوقعه في الخطئة لتشمى بالانتقام منه . تعالى الله عن ذلك
علوا كبيرا

وحين نورد بين هذا التصور وتصور الإغريق نكير ألهمهم ، القاسى الحسود
الشهوان العريد ، المصطط الحقود أو تصور الإسرائيليين المنحرف لإلهمهم العبور
المتعصب ، انعطاش لمتهور . أو تصور أرسطو لإلهة المترفع الذى لا يعنى نفسه بأمر
الخلق على الإطلاق ، ولا يعكر إلا في ذاته ، لأنها أشرف الدوات ، ولا يليق دلالة أن
يمكر إلا في أشرف دات ! أو تصور الماديين لإلهمهم « الطبيعة » الصماء العماء
الخرساء . عندئذ تندو قيمة هذا الحسب لنوار في التصور الإسلامى ، وأثره
الواقعى في حياة الشر ، وأثره كذلك في منهج حياتهم وأخلاقهم ونظمهم العمل
(ومبأى شىء من مفصيل هذا الإجمال في الفصل التالى عن حصيه . الإيجيه) .



والتوازن بين مصادر المعرفة من وراء الغيب المحجوب ، ومن صفحة الكون
المشهود ، أو تعبير آخر : من الروحى والصح ، ومن الكون والحياة .

وقد رأينا في مطلع هذا البحث كيف تقلبت التصورات في أوربة ، بين الواحد
النصر (أو الوحي) وحده - مصدراً للمعرفة ، والواحد العقل - وحده - مصدراً ،
والواحد الطبيعة - وحده - مصدراً كذلك ! ونعسف كل فريق في « نأيه » مصدره ،
ونعني المصادر الأخرى إطلاقاً ، وإلغاء وجودها إلغاء !
فأما الإسلام في شموله ، وفي تواريه ، وفي اعتباره لجميع « الحقائق » الواقعة ،
دون بعسف ، ودون هوى ، ودون شهوة ، ودون عرص ، ودون جهل ، ودون
قصور . . .

أما الإسلام - في طمأنينته بـي حو ، الكامل الشامل - فلم يعزل مصدراً واحداً
من مصادر المعرفة لم يعطه اعتباره ، ولم يصعبه في مكبه الذي يسحقه ، ودرخته التي
هي له في الحقيقة ، في دقة وتوازن وطمأنينة .

فالإسلام - كما سبق - يرد الأمر كله إساء إلى الله وإرادته وبيده ، ويرد الخلق كله
إلى إرادة الله الواحد - ومن الخلق هذا الكون وما فيه ، وهذا الإنسان وعقله ومداركه .
ومن ثم لا يجد تناقضاً في أن يكون للكون - أو للطبيعة كما يسميها الغربيون - وأن
يكون للحياة وأوصاعها - وفيها الاقتصاد إله كدركس - دور في إمداد « الإنسان »
بالمعرفة عن طريق « العقل » وسائر مدارك لمودعة فيه باعتبار الجميع من صنع الله
.. فهي من عنده . كما أن الوحي من عنده كذلك .

نعم إن الإسلام يعتبر مصدر الرحي هو المصدر الصادق ، الذي لا يأتيه الباطل
من بين يديه ولا من خلفه ، ولا يحصع لهوى ، ولا يتأثر به ، ومن ثم فهو أعلى
المصادر . ولكنه في الوقت ذاته لا يسعى العقل عندئذ ولا يسعى التأثيرات والمعروف
التي تنفذ الكسوة الإنسانية فيها ، بل حو في الكون - والكون كذلك كتب
الله المفتوح لدى يصب المعرفة في الكسوة الإنسانية - كما يصيبها الرحي - مع قدر
واحد - هو أن المعرفة التي يتفاهد الإنسان بمدركه من هذا الكون ، قابلة للخطأ
والصواب - بما أنها من عمل الإنسان - أم ما يتلقاه من الوحي فهو الحق اسقى

لقد خلق الله هذا الإنسان متوافقاً في فطرته وتكوينه مع هذا الكون ، ومع سائر
الاحياء فكلهم من خلق الله ، وكلهم يتلقى من الله ، وكلهم يتمتع بهداه

« قال : ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » (طه ٥٠)

(مسح اسم ربك الأعلى ، الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى .

(الأعلى : ١٠ - ٣)

« ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » (الذريات : ٤٩)

« وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم »

(الأنعام : ٣٨)

« الذي جعل لكم الأرض مهدياً ، وسلك لكم فيها سبلاً » (طه : ٥٣)

« منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » (طه : ٥٥)

« سبحان الذي خلق الأرواح كلها ، تست الأرض ومن أنفسهم وما لا

يعلمون »

(يس : ٣٦)

« فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً .

(الشورى : ١١)

وفي التوافق والتناسق ولتعدون بين خلق الله جميعاً - وفيهم الإنسان - تردصوص

قرآنية كثيرة ذات إيحاء قوي بالوحدة والتصميم والتناسق في طبيعة التكوين وفي

الإنشاء العام ، نذكر منها المليل :

« ألم نجعل الأرض مهدياً ؟ والجنات أوتاداً ؟ وخلقناكم أزواجاً وجعلنا نومكم

سباتاً وجعلنا الليل لباساً . وجعلنا النهار معاشاً وسبق فوقكم سبعاً شداداً .

وجعلنا سراجاً وهاجاً وأنزل من المعصرت ماء ثجاجاً . لمخرج به جد وبياناً

وحنات ألقا .

(البأ : ١٦٦)

« أنتم أشد خلقاً أم السماء - ناهي رفع سمكها فسوها وأغطش لبها

وأخرج صبحها والأرض بعد ذلك دحاً أخرج منها ماءها ومرعاها والجنات

أرساها . متعاً لكم ولأنعامكم »

(البارعات : ٢٧ - ٢٣)

« فليطر الإنسان إلى طعامه : أن حسبا الماء صب ثم شققنا الأرض شققاً

فأنتنا فيها حيا وعى وفصا وريتونا وسحلا وحدائق غلب وفاكية وآنا
متاعا لكم ولأنعامكم »

(عبس : ٢٤-٣٢)

« والله أنزل من سماء ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم
يسمعون وإن لكم في الأنعام لعبرة ، سقيكم بما في بطنه من بين حرث ودم ، لنا
حالصا سدنا للشاربين ومن ثمرات النخيل والأعناب تتحدون منه سكرا وررقا
حسا إن في ذلك لآية لقوم يعملون وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الخصال
بيوتا ، ومن الشجر وما يعرشون ثم كل من كل الثمرات ، فاسلكى سبل ربك
دلا ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، إن في ذلك لآية لقوم
يتفكرون . »

(النحل : ٦٥-٦٩)

« والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ، وجعل لكم من حدود الأنعام بيوتا
تستخفونها يوم طعكم ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعرها أثاثا ومتاعا
إلى حين والله جعل لكم مما خلق ظلالا ، وجعل لكم من الخصال أكثانا ، وجعل
لكم سراويل تقيكم الحر ، وسراويل تقيكم بأسكم . كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم
تسلمون »

(النحل : ٨٠-٨١)

وأمثال هذه النصوص كثير ، سنعرض الحديث عنه عند الكلام عن حقيقة الكون
وحقيقة الإنسان في التصور الإسلامى
والمهم الآن أن نقول إن الإسلام ساء على تقريره أن هناك اتفاقا وتناسقا بين
الكون والإنسان ، جعل الكون وجعل الحياة والأحياء من بين مصادر المعرفة عند
الإنسان - أو عن كتاب الكون المفتوح - وعن الإنسان ذاته فظهر مصدر من مصادر
التأمل والمعرفة لذاته !

فجد في التوجيه إلى المصدر الأول الأصيل الصادق ، المهيم على كل مصادر
لمعرفة الأخرى . . أمثال هذه النصوص :

(الإسراء : ٩)

« إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم . »

« ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعقلون »

(الحاثية : ١٨٠)

« إنا أمرنا قرآنا عربيا لعلكم تعقلون نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين »

(يوسف : ٢-٣)

« وقد اضطرنا منها جميعاً ، ولما يأتسكم منى هدى ، فمن سع هداى فلا حوف عنيهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

(البقرة : ٢٨-٣٩)

« وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور حدوا ما أتيناكم بآية واسمعوا »

(البقرة : ٩٣)

ثم نجد في الوجه إلى التلقى والمعرفة من كتاب الكون المفتوح ، ومن كتب النفس المكنون ، الشيء الكثير . . الكثير :
« وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفعالا تنصرون ؟ »

(الذاريات : ٢٠-٢١)

« سرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »

(فصلت : ٥٣)

« أفلا ينظرون إلى الأبل كيف حلفت ؟ وإلى لسماء كيف رجعت ؟ وإلى الحال كيف نصت ؟ وإلى الأرض كيف سطحت ؟ فذكر إياها أت مذكر »

(العنكبوت : ١٧-٢١)

« ألم يروا إلى الطير مسخرات في حوا اسماء ما يمسكهن إلا الله ؟ إن في ذلك لآيات لهم يؤمنون » .

(الاحقاف : ٧٩)

« إن في خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، ولعلك التي تجري في البحر مما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها

و ث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ،
لآيات يقوم يعقلون » .

(الفرقة : ١٦٤)

وفي التوجيه إلى استخدام العقل للمعرفة ، إما بتدبر آيات الله في الكون ، وإما
بتدبر حقائق النوحى وحقائق الحياه ، نجد كذلك في لمرنصوص شتى
« قل إنما أعطكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا ما
نصاحكم من حجة ، إن هو إلا نذير لكم ، بين يدي عذاب شديد »

(سأ : ٤٦)

« أفلا يتدبرون القرآن ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلاف كثيراً » .

(النساء : ٨٢)

« أفلم يسيرا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ؟ أو آذان يسمعون بها ؟
فإنها لاتعمى الأنصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »

(الحج : ٤٦)

« إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب
الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض
ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك ! »

(آل عمران : ١٩٠-١٩١)

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع
والأنصار والأفئدة »

(الحج : ٧٨)

وهكذا تتوارى هذه المصادر كل بحسبه وتناسى فى إمداد الكائن
الإنسان بالمعرفة ، وتتوارى التصور الإسلامى ، فلا يشط ولا بصطرب ولا يتأرجح
بين هذه المصادر ، ولا يؤله ما ليس منها بآله !

ويم يلاحظ بوضوح فى منهج التربية القرآنى كثرة توجيه الإدراك الشرى إلى ما فى
الكون ، وما فى الأنفس ، من أمارات ويات ، وتوجيه هذا الإدراك إلى مصاحبة

صحة الله في الأنفس والأفاق ، ذلك أن هذه المصادر - فوق أنها تنبئ الإدراك الشرى إلى معرفة الصانع من صاعته ، وإجلاله بإدراك عطفته من عظمة صمعه ، وحنه بإدراك عظمة أعمه - فهي في لوقت ذاته تطع الإدراك الإنساني بخصائص ثلاث لصحة . من دقة ونسق وانتظام ، لا حبل فيه ولا تصادم ولا تناوب ، كما تطعه بموجباتها كذلك من سنن وحنائق وممرات ، وليس بالقليل مثلا أن ينصع في حس الإنسان وشعوره من متابعه التعبير المستمر في أحول هذا لكون ، وفي أحوال الشر ، وفي أحوال النفس ، أن الدوام لله وحده ، ابدى يعبر ولا يتغير ، وأن كل شيء حائل أو رائل ، إلا الحى ابدى لا يموت الصمد اثبات المقصود . وليس بالقليل مثلا أن يطع في حس الإنسان وشعوره من ملاحظة ثبات السنن التي تحكم ذلك التعبير ، وثبات الداموس ابدى يتم به لتدب ولتحوير ، أن الأمور لا تمضى حراما ، وأن الحياة لم توجد سدى ، وأن الإنسان غير متروك لقى وإي هو التدبير والتقدير ، ولانتلاء والحزاء ، والعدل الصارم لدقيق في تقدير المصير . . . وهكذا . . . وهكذا . . . مما سذكر منه الكثير .

ومن ثم يكثر التوجه إلى هذه المصادر ، ولظاهرة في الكون وبكوبة في النفس ، لتلقى المعرفة من كتاب الله المفتوح ، كتلقى المعرفة من كتاب الله المقروء . في تناسق وتوازن ، يجمع بين مصادر معرفة كلها ، في غير تصادم ولا تعارض ، وفي غير تأليه ولا تحقير ، وفي غير خصومات صغيرة ، كتدك الخصومات التي رأينا أمثلة منها في تاريخ الفكر العربى الصمير !

ومن ثم لا يقتضى فهم الوحى - كمصدر أساسى للمعرفة - إلعاء الإدراك شرى ، كما لا يقتضى وجود الكون إعلاء هذا العنصر ، أو إعلاء الله - جل وعلا وتره عن التصورات المظموسة لئامه ، التي يتعمدها العربيون ! وعيد العربيين !



والتوازن من قاعية « لآسان » ودعلة الكون - وبين مقام الإنسان ومقام الكون - وقد سنم النصور الإسلامى في هذه النقطة من جميع الأرجحاب ، وجمع التقديرات التي صاحبت الفكر لشرى ، كلها انحرف عن منهج الله .

وتتصح استقامة التصور الإسلامى تجاه الكون والإنسان ، حين يراجع ركاز
الفلسفات والتصورات والمعتقدات المختلفة .

لقد كان أفلاطون يضع المادة فى الدرك الأسفل من القسمة والاعتبار .
« ولوجود فى مذهب أفلاطون طيفتان متقابلتان : طبقة لعقل المصنق ، وطبقة
المادة أو « الهوى » ، والقدرة كلها من العقل المطلق ، والعجز كله من الهوى . وبين
ذلك كائنات على درجات تعلو بقدر ما تأخذ من العقل ، وتسفل بمقدار ما تأخذ
من الهوى .

« فالهوى مقاومة للعقل المجرد ، وليست موحدة بشيئته من العدم »^(١)
وأصوبين - فى الأفلاطونية الحديثة - يجعلان مادة فى الدرك نفسه والواحد الأحد
خلق العقل ، والعقل خلق لروح ، والروح خلقت ما دونهما من المخلوقات ، على
الترتيب الذى يتحدد طوراً دون طور إلى عالم الهوى ، أو عالم المادة والفساد^(٢)
والصراية - كما صنعتها الكيسة - . عتبرت الشر كله ممثلاً فى عالم الجسد - أى عالم
المادة - والخير كله ممثلاً فى عالم الروح . ومن ثم اقتضى الأمر احتصار كل ما هو
مادى ، والمهرب منه للسجاة من الشر والفساد . . . وكذلك فعلت الهوسوكية من قبل فى
مذهب براهما . . .

« وبينما عالم المادة بهذا اسد فى بعض الفلسفات والمعتقدات ، يقوم فى لقرن
التاسع عشر ، من يجمع من « الطبيعة » إلهاً ، ويجعل من العقل البشرى مخلوقاً من
مخلوقات هذا الإله ! كما فعل « كومت » و« نيتشه » من رعياء المذهب الوضعى ، ومن
يجعل حاساً من عالم المادة - وهو الاقتصاد - إلهاً ، يخلق العقول والأديان والفلسفات
والآداب والأخلاق . كما فعل كارل ماركس ! ويخط من قيمة الإنسان تجاه هذا
الإله ، فيجعله عاملاً سلب لا يقدم ولا يؤخر ، وإنما يتلقى فقط ويتأثر !

بين هذه الشخصيات المتأرجحة ، وبين هذا العبر من هنا ومن هناك يقف
التصور الإسلامى على قاعدة الحقيقة المستقرة لثباته . الله هو الخلق المدع المهيمن

(١) من كتاب « الله » للأستاذ العبادى ص ١٣٧

(٢) مصدر السابق ص ١٨٨ .

المدمر والكون والإنسان من يدع الله ويسبها من لتفاعل ، ويسبها من
المسوق ، ما يجعل لكل منهما دوراً في حياة الآخر والإنسان هو الأكرم ، وهو
الأكثر فاعلية وإحذية وهو المسلط على المادة ، يدع فيها وبشئ ، ويعتبر فيها
ويطوّر ، ويظهر من أسرارها ما أودعه الله ، ويتنقى من هذه الأسرار ما يؤدي إلى
العظة والاعتبار .

وتكريم لوجود الإنسانى مع عدم احتمال الوجود الكونى يكفل لهذا الإنسان
مقامه وكرامته ، ويجعل حياته ومقوماته أكرم من أن تمس في سسل توفير أية قيمة
مادية أخرى . وذلك مع عدم لإحلال بالقيم مادية وبالإنذار في عالم المادة

* * *

وهناك ألوان شتى من هذا تتوارى في لتصور الإسلامى ، لا نملك نسعها
وعرضها هنا بالتفصيل - ولا حتى بمحد الإشارة - بما نحن شئت هذه السردح ، لتكون
هى الإشارة التى تتبعها ساطر في هذا السطح ، إلى نهاية الطريق^(١)

* * *

(١) يراجع فصل « خطوط مقانده » في كتاب « منهج الترييه الإسلاميه » محمد قطب

الإيجابية

«وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ»

والخاصية الخامسة البارزة في التصور الإسلامي هي الإيجابية الإيجابية لفاعلة في علاقة الله - سبحانه - بالكون والحياة والإنسان والإيجابية الفاعلة كذلك من ناحية الإنسان ذاته . في حدود المجال الإنساني كما أشربا إلى ديث من قبل إشارات مجملة .

في الصفات الإلهية في التصور الإسلامي ليست صفات سلبية والكمال الإلهي ليس في الصورة السلبية التي جالت في تصور أرسطو . وليست مقصورة على بعض جوانب الخلق والتدبير كما تصور الفرس في صفات «هرمز» آله النور والخير واحتصاصاته وصفات «أهرمان» آله الظلام والشر واحتصاصاته . وليست محدودة بدرجة من درجات الخلق كتصور أفلاطون . وليست محدودة بمحدود شعب كتصورات بني إسرائيل . وليست مختلطة أو متلصقة بإرادة كيونه أخرى ، كعصص تصورات لفرق المسيحية . وليست معدومة على الإطلاق ، كما تقو المذاهب المادية ، التي تعني وجود الإله الحي لمريد إلى آخر هذا الركام

ولعله يحسن قبل أن تعرض التصور الإسلامي ، الواضح البصريح المريح ، أن نشأ محملا سريعا هذه التصورات التي أشربا إليها . أو هذا الركام ، الذي أشربا إلى شيء منه في أوائل هذا الكتاب وفي شأياه :

* * *

« مذهب أرسطو في الإله أنه كائن أرلى أبدى ، مطلق الكمال ، لا أول له ولا آخر ، ولا عمن به ولا إرادة له مد كان العمل طلبا شيء . وأنبه على عن كل طلب

وقد كانت الإرادة احباً بين أمرين ، والله قد اجتمع عنده الأصلح لأفصل من كل كمال ، فلا حاجة إلى الاختيار بين صالح وغير صالح ، ولا بين فاضل ومفصول وليس مما يناسب الإله في رأى أرسطو - أن يتأذى العمل في زمان ، لأنه أبدي سرمدي ، لا يطرأ عليه مدرئ يدعو إلى العمل ، ولا يستجد عليه من حديد في وجوده المطلق بلا أول ولا آخر ، ولا حديد ولا نديم وكل ما يناسب كنهه فهو السعادة نعمة بقائه ، التي لا نعيم وراءها ، ولا نعمة فوقها ولا دونه ، ولا تخرج من نطاقها عبادة نعيمه !

« فالإله لكامل المطلق الكمال ، لا يعنيه أن يخلق انعدم ، أو يخلق مادته الأولى - وهي الهبولى - ويكن هذه « الهبولى » فأنه للوجود ، يخرجها من القوة إلى الفعل شوقها إلى لوجود ، الذي يميز عليها من قبل لأنه ، يدفعها هذا الشوق إلى الوجود ، ثم يدفعها من النقص إلى الكمال المستطاع في حدودها ، فتتحرك وتعمل ، بها فيها من الشوق والقبالية ، ولا يقف عندها ، بها من حلقة الاله ، إلا أن تكون الخلقه على هذا الاعتبار » ^(١)

ولهرس كانوا يعتقدون بالشويه ، ويجعلون للحير إلهاً هو « هرمر » قدرته واحتصاصه مقصوران على علم النور والخير ويجعلون بلشر إلهاً هو « أهرمان » قدرته واحتصاصه مقصوران على علم الظلام والشر وهما أخوان موبودان لإله قديم اسمه « زروان » ^١

« ورعزموا أن مملكة انور ومملكة الظلام كانت قبل الخليفة متصلتين ، وأن هرمر طموح في مملكته بخلق عناصر الخير والرحمة وأهرمان عاقل عنه في فراره السحيق فلما نظر ذات يوم لستطلع بحر أحيه ، راعه للمعدن من جانب مملكة أحيه ، فأشفق على نفسه من العاقبة وعلم أن النور وشيك أن ينتشر ويستقيص ، فلا يبرث به ملادا يعتصم به ، ويصمم فيه لئلا يشر ، وثررت معه خلائق الظلام - وهي شياطين الشر والفساد - فأحبطت سعى هرمر ! وملائت الكون بالجنائن والأرءاء » ^(٢) . الح . . . (واحتدمت المعركة وما زال) .

(١) عن كتاب « حقائق الإسلام ودليل خصومه » للأستاذ العقاد ص ٣٣ - ٣٤

(٢) عن كتاب « الله » للأستاذ العقاد ص ١٨٨

أما « أفلوطين » الذى عاش فى السنوات الأولى من القرن الثالث للميلاد فإنه يعلم فيما يراه ترتيباً لإلهه الأحد ، حتى يتجاوز كل معقول . هذا كان أرسطو يرى أن من كمال إله ألا يشعر بعير ذاته ، وألا يفكر إلا فى ذاته لا يفكر إلا فى أشرف الموجودات . وذاته هى أشرف الموجودات . وأنه لا يعلم الموجودات لأنها أقل من أن يعلمها . إذا كان تنزيه أرسطو لإلهه وقف به عند هذا الحد ، فإن أفلوطين ربح يرغم أن من كمال إلهه الأحد أنه لا يشعر بذاته كذلك ! لأنه يشتره عن ذلك الشعور !

« وبذيه أن المذهب يقتضى وسائط متعددة لربط الصلة بين هذا الإله « لأحد » المطلق انصفاء ، وبين المخلوقات العلوية ، وهذه المخلوقات السلفية ولا سيما خلائق الحيوان المركب فى الأجساد

» وهكذا لرم أفلوطين أن يقول . إن الواحد خلق العقل . وإن العقل خلق الروح . وإن الروح خلقت مادونها من الموجودات . على الترتيب الذى يحدر طوراً دون طور ، إلى عالم الهوى ، أو عالم المادة والفساد !^(١)

ومن ثم يحصر اختصاص لإله عند أفلوطين - فى خلق العقل - ثم تنتهى مهمته عند ذلك !

أما إله بنى إسرائيل « يهوا » - كما ترسمه تصوراتهم المشرفة - فهو إله إسرائيل الخاص ! الذى يغار من عبادة شعب إسرائيل للآلهة العربية ، فتور ويعصب ويحطم ويستقم حتى إذا عاد الشعب إليه رضى واستراح . وكف عن القصة والتدمير . ويدم على ما فعل بشعبه المختار !

والتصورات الكسبة عن طسعة المسيح وإرادته ، وتلبسها باللاهوتية ، سبق أن أشرب إليها فى فصل « تيه وركم » ، وهى تجعل إرادة لله متدسة أو متحسمة فى إرادة المسيح . . إلى آخر هذا الركام^(٢) !

وكذلك أشرنا إلى تصورات الوصعين الماديين المختلفة بما فيه الكفاية . فيرجع إليها هناك^(٣) .

* * *

(١) المصدر السابق - ص ١٨٨

(٢) ص ٢٨ - ٣٣ من هذا الكتاب

(٣) ص ٦٢ - ٧١ من هذا الكتاب

والآن نتقل من هذا الركam لتناثر إلى التصور الإسلامى المستقيم الواضح مريح
 إن الإنسان - فى التصور الإسلامى - يتعامل مع إله موجود - خالق ، مريد
 مدبر مهيم - قادر - وعد لما يريد - كامل لإحاطة والفاعلية إليه يرجع
 الأمر كله - وفى إرادته يرجع خلق هذا الكون ابتداء ، وكل اشتاقه فيه بعد ذلك ،
 وكل حركة - وكل معبر وكل بطور - ولا يسم فى هذا انكون شىء إلا بإرادته وعلمه
 وبغيره وبغيره - وهو - مسحاه - مباشر بإرادته وعلمه وبغيره لكل عبد من عباده ،
 فى كل حال من أحواله ولكل حى ولكل شىء ، وفى هذا الوحد كذلك
 ويحمل القرآن الكريم بتقرير هذه الحقيقة الأساسية الكبيرة فى التصور الإسلامى ،
 بكل صورها وأشكالها ، ويهتم بعرض مظاهرها فى كل جانب من جوانب انكون ،
 وفى كل صورة من صورها المتحددة التى لا تحصى :

« إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على
 العرش ، يُعشى الليل النهار يطله حبث ، والشمس والقمر والحوم مسحرات
 بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين » .

(الأعراف : ٥٤)

« وما كان الله ليعجزه من شىء فى السماوات ولا فى الأرض ، إنه كان عليماً
 قديراً »

(طاهر : ٤٤)

« قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وترى
 من تشاء وبتل من تشاء ، بيدك الخير ، لك على كل شىء قدير - يولج الليل فى
 النهار ، ويولج النهار فى الليل ، وتخرج الحي من أميت ، وتخرج الميت من الحى ،
 وترزق من تشاء بغير حساب » .

(آل عمران ٢٦ ، ٢٧)

« وهو القاهر فوق عبده ، وهو الحكيم الخبير » .

(الأنعام : ١٨)

« الله يعلم ما يحمل كل أنشئ ، وما يعيص الأرحام وما ترداد - وكل شىء عنده

بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال سواء سلككم من أسر نقول ومن جهر
به ، ومن هو مستخف بالليل وسار به بالنهار له معقبات ، من بين يديه ومن خلفه -
يحمطونه - من أمر الله إن الله لا يعير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد
الله نقوم سواء فلا مرد له . وما هم من دونه من وال هو الذى يريك البرق خوفاً
وطمئناً ، ويشئ السحاب الثقاب ويسبح الرعد بحمده والملائكة من حيثته ،
ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يخادلون فى الله وهو شديد
المخال . . . » .

(الرعد : ٨ - ١٣)

« يمحوا الله ما يشاء ويثبت ، وعنده أم الكتاب »
(الرعد : ٣٩)
« وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على
كل شيء قدير » .

(الأنعام : ١٧)

« لله ملك السماوات والأرض ، يحق ما يشاء ، يهب لمن يشاء إناثاً ، ويهب لمن
يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراً وإناثاً ، ويجعل من يشاء عقيماً »

(الشورى : ٤٩ ، ٥٠)

« الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى
عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى »

(الزمر : ٤٢)

« ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو راسخهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى
من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم يشهدونهم بما عملوا يوم القيامة . إن الله
بكل شيء عليم » .

(المجادلة : ٧٠)

واستمرار هذه الحقيقة فى ضمير الإنسان وفى حياته ، يتوقف عليه كل شيء . وفى
أمر العقيدة كما أنه هو الذى يمد الحياة البشرية بكافة مشاعر الأخلاقية بواعثها
ومورسها ، والسلطان القائم عليها (وسيأتى تفصيل ذلك عند الكلام عن حقيقة
اللاهوتية فى القسم الثانى من هذا الكتاب)

إن هذه الإيجابية في علاقة الله - سبحانه - بخلائقه كلها ، هي مفرق لطريق بين العقيدة الخدية المؤثرة ، والعقيدة الصورية السلبية . وشمول هذه الإيجابية وتوحيدها ، هو مفرق الطريق كذلك ، بين التجمع في الكيونة الإنسانية والنشاط الإنساني ، والمفرق في هذه الكيونة ونشاطها الحيوي .

وبصور الإنسان لإلهه ، وتعلق صفاته بحياة الإنسانية ، هو الذي يحدد قيمة هذا الإله في نفسه ، كما يحدد نوع استجابته لهذا الإله !

وفرق كبير بين الإنسان لدى يتصور أن إلهه لا يحسن به ، ولا يحسن بوحوده - أو لا يعلم بوحوده أصلاً كما يقول بعض الفلاسفة ! - والإنسان الذي يحسن ويعلم أن الله هو خالقه ورازقه ، ومالك أمره كله في الدنيا والآخرة .

وفرق كذلك بين الذي يتعامل مع إلهين متنازعين - كما يقول الفرس - أو مع آهة منفردة كما تقول الوثنيات الأخرى ، والذي يتعامل مع إله واحد - به إرادة واحدة ، ومنهج واحد - يعلم عباده على وجه البسط والتحديد ما يريد من مهم فرضي ، وما يكرهه منهم فيسقط !

وفرق كذلك بين الذي يتعامل مع إله شهواني متعطف طام متهور متقلب الأهواء كإله الإغريق - برعمهم - « ريبوس » أو « حوبينير » الذي كانوا يصورونه « حمود » ندوياً مشغولاً بشهوات الطعام والنعام لا يبالى من شؤون الأرباب والمحفوظات ما يعنيه على حفظ سخطانه ، والهادي في طعانه وكان يعصب على « اسقولاب » إله الطب - برعمهم - لأنه يداوى المرضى ، فحرمة حياة نصرته على أرواح الموتى الذين يتفلون من ظهر الأرض إلى باطن الهاوية ! وكان يعصب على « برومبوس » إله المعرفة والصناعة - برعمهم - لأنه يعلم « الإنسان » أن يستخدم النار في الصناعة ، وأن يسجد من المعرفة قوة تصارع قوة الأرباب وقد حكم عليه بالعقاب الأليم ، فدم يقع بموته ، ولا ياقصائه عن خطيرة الآهة ، بل نفس في احتراع ألوان العذاب له فقيده إلى حبس سحيق ، وأرسل عليه حوارح الطير تهش كنده طوال النهار ، حتى إذا حل الليل عذب سليمة في نومه ، لتعود الحوارح إلى هشها بعد مطلع الشمس ولا يزال هكذا دوياً في أعباد الدائم مردود الشهادة

مرفوض اندعاء «^(١) . . « وأنه كان يجادع زوجته « هيرة » ويرسل إله العمام -
برعهم - لمدارة الشمس في مطلعها ، حذرًا من هبوب روحته انعيرى عليه مع مطلع
السر ، ومفاحاته بين عشيفاته على عرش « الأوليمب »^(٢)

فرق بين الذى يتعامل مع إله كهـ ويستمد منه أخلاقه ، والذى يتعامل مع
« الله » العادل ، الكريم ، الرحيم الذى يكره المواحش ما ظهر منها وما بطن ،
ويهى عن سوء . ويحب التواضع ويحب المتطهرين .

وأخيرًا فهناك فارق هائل بين الإنسان الذى يظن أن به هو « الطبيعة »
الحرساء الصماء ، لئى لا تطالبه بعقيدة ولا شعيرة ، ولا مهج ولا نظم حياة ، ولا
خلق ولا أدب ، ولا ضمير ولا سلوك ولا بحس بوجوده أصلاً وليس لها هي
إدراك ابتداء ومن ثم فهى لا تحس ولا تعى ، ولا تدرى بحير أو شر ولا تحاسب
- من ثم - على حير أو شر . والإنسان الذى يعرف أن به « الله » الحى الذى لا
يموت الصمد بقصود فى المحادث برقيب الذى لا يعص الحسب الذى لا
يسى العادل الذى لا يظلم الرحيم الذى يحب المصطر إذا دعاه ويكشف
السوء . إلى آخر صفات الله وأسمائه الحسنى . .

إن الأمر مختلف جداً ومن ثم هذه القيمة الكبرى لهذه الخاصية فى انتصو
الإسلامى . وقد عنى الإسلام عديه بالعه بتقرير هذه الحقيقة فى تصور المسلمين
وتوكيدها . وتقرير « وجود » الله سبحانه فى حياتهم وتوسيعه وتعميقه وكانت
حياة الجماعة المسلمة الأولى فى طلال الوحي المتلاحق ، المتعلق بمواقع حياتهم ، وبما
يهيئ كذلك فى صيائهم ، مثلاً حياً ، وترجمة عملية ، هذه الحقيقة فقد رأيا
يد الله - سبحانه - تتدخل حهرة ، وعيه تلحظ ، وسمعه يرمى ، أحوالهم اليومية ،
وأعمالهم لشخصية ، وحياتهم الفردية والجمعية .

لقد شهدنا العناية الإلهية تتدخل علانية فى شأن أسرة صغيرة فقيرة معمورة لتقرر

(١) من كتاب « حقائق الإسلام وأصوله » للأستاذ انعام ص ٤٠ ٤١

(٢) انصغر السابق

حكيم الله في قصية بين امرأة وروحها . حين لم يجد الرسول - صلى الله عليه وسلم -
فيها رأيا .

« قد سمع الله قول اللى تخادلك في روحها وتشكى إلى الله - والله يسمع
تجاوزكم . إن الله سميع بصير . » الخ (المجادلة : ١)

كما شهدناه في شأن نرجس الأعمى القبر من أم مكنوم . مع رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - في هذه الصورة الرائعة :

« عسى وتولى أن جاءه الأعمى وما يدرى له عقب يركى أو يذكر فتذره
الذكرى أما من استعنى فأنت له نصدي ! وما عيبك ألا يركى وأما من جاءك
بسعى وهو يحشى فأنت عنه تلهى ؟ كلا ! إنها تذكرة فمن شاء ذكره »

(عسى : ١ - ١٢)

وشهدنا هذا الترحل في الأحداث الكبرى سواء بسواء :

شهدناه في الهجرة حيث يقول الله تعالى

« إلا بصروه فقد بصره الله إذ أحرجه الدين كفرو ، ثنى اثنين إذ هم في انبار
إذ يقول صاحبه لا تخزن إن الله معنا ، فأرسل الله سكينه عليه ، وأيده بجنود لم
نروها وحمل كلمة الدين كفرو السفلى ، وكلمه به هي انبياء والله عزير
حكيم »

(التوبة : ٤)

وشهدناه في بدر . . حيث يقول الله تعالى

« كي أخرجك ربك من منى بحق ، وبن فرساً من المؤمنين لكارهون
تخادلك في الحق بعد ما تبين ، كأنها يسألون إلى الموت وهم ينطرون » وإذ يعدكم
الله إحدى لطائف أممكم ، ويودون أن غير ذات الشوكة تكون بكم ، ويريد الله
أن الحق الحق بكماته ، ويقطع دابر الكافرين ليعق الحق ويقتل الباطل ولو كره
المجرمون إذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم أنى مما كنتم أألف من الملائكة
مردفين وما جعله الله إلا بشرى وتطمئن به قلوبكم وما البصر إلا من عند الله .
إن الله عزير حكيم إذ بعثكم اسعس أمة منه ، ويرسل عليكم من السماء ماء

ليطهركم به ، ويذهب عنكم رحر الشيطان ، ويربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام . إذا يوحى ربك إلى الملائكة أُنِى معكم ، فشتوا الدين آمناً . سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاصربوا قلوب لأعناق ، وضربوا منهم كل بنان »
(الأفعال ٥٠ - ١٢)

وشهده في « أحد » حيث يقول الله تعالى :
« ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسوبهم بإيده ، حتى إذا فشتهم وتارعنتم في الأمر ، وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، وأنه ذو فضل على المؤمنين . إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ، والرسول يدعوكم في أخراكم ، فأتانكم عما بغم ، لكي لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم ، والله خير بما تعملون . ثم أنزل عسكم من بعد لهم أمة ناعساً يعيش طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق طر أهلية ، يقولون هر لنا من الأمر من شيء ؟ قل إن الأمر كله لله . يخوف في أنفسهم ما لا يريدون . يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما اقتبنا هاهنا . قل لو كنتم في بيوتكم لمر الذين كتب عليهم القتل إلى مصاحبتهم وليبتلي الله ما في صدوركم ، وليلمحص ما في قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور »

(آل عمران ١٥٢ - ١٥٤)

وشهده في كل موقف من مواقف المسلمين الكبرى
ولم يكن هذا التدخل الإيجابي رفماً على هذه المجموعة من المسلمين فهو شأن الله في كل موقف ، وفي كل أمر ، وفي كل حال . وقد كان منه ما كان في شأن الرسل جميعاً - عليهم الصلاة والسلام - مما قصه الله - سبحانه - على كل الجماعة المسلمة في هذا القرآن .

كان منه في شأن موسى عليه السلام ، مع فرعون وملائته ، ما يصور هذا التدخل السافر المباشر .

« نلوا عليك من ساء موسى وفرعون بالحق يقوم يؤمنون . إن فرعون علا في الأرض

وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم .
 إنه كان من المستدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ، وجعلهم
 أئمةً ونجعلهم الوارثين . ويمكنهم في الأرض ، ونُبْرِى فرعون وهامان وحودهم
 منهم ما كانوا يحذرون . وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في
 اليم ، ولا تخاف ولا تحزبي ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين . فالتقطه آل فرعون
 ليكون لهم عدواً وحزباً ، إنا فرعون وهامان وحودهما كانوا خاطئين . وجاءت امرأه
 فرعون قرة عين لى وبث ، لا تقتنوه عسى أن ينفع أو ينحده ولدأ . وهم لا يشعرون
 . وأصبح فرؤاد أم موسى فارعاً ، إنا كاذب شديد به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من
 المؤمنين . وقلت لأخته قصيه ، فبصرت به عن حبل وهم لا يشعرون . وحرمتنا عليه
 المرصع من قبل . فعالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، وهم له
 باصحبون ؟ فردديناه إلى أمه ، كي تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ،
 ولكن أكثرهم لا يعلمون »

(القصص : ٢-١٣)

وكان منه في شأن نوح عليه السلام :

« كذبت قبيلهم قوم نوح ، فكذبوا عتد وقاوا محبون ، وازدجر ندعاريه أنى
 معلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا لأرض عيوباً ، فالتقى
 الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجري بأعيننا جزاء لمن كان
 كفر » .

(القمر : ٩-١٤)

وكان منه في شأن إبراهيم عليه وسلم :

« قالوا : حرقوه وانصروا الحنكهم إن كنتم عابدين . قل يا باري كوني برداً وسلاماً
 على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأحرار ، ونحيناه ولوهاً إلى الأرض التي
 باركنا فيها للعالمين ، ووهبنا له إسحق ويعقوب باهلة وكلنا جعلنا صابحين
 وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات ، وإقام الصلاة ، وإيتاء
 الزكاة وكانوا لنا عابدين »

(الأنبياء : ٦٨-٧٣)

كذلك شهدته في أمر انكون كله ، وفي شأن سائر الخلائق والأحياء فيه
« إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ، ولنز رالنا إن أمسكهما من أحد من
عنده . إنه كان خليفاً غموراً » .

(فاطر : ٤١)

« ألم يروا إلى الطير مسحرات في جو السماء ، يمسكهن إلا الله ؟ إن في ذلك
لآيات لقوم يؤمنون » .

(النحل : ٧٩)

« وكأي من دمه ، لا تحمل رزقها الله يرزقها ويياكم ، وهو السميع العليم »

(العنكبوت : ٦٠)

« أمأيتهم ما يحرقون ؟ أنتم ترزقونه أم نحن الزارعون ؟ لو شاء لجعلناه حطاماً
فطأنتم تمكهمون . إنا لمعرمون بل نحن محرومون » (إلى آخر الآيات) .

(الواقعة : ٦٣ - ٧٣)

« أوم يروا أن تأتي الأرض نقصها من أطرافها ؟ والله يحكم لا معقب لحكمه ،
وهو سريع الحساب »

(الرعد : ٤١٠)

والقرآن كله معرض هذه « الإيجامة » وهي أساس تصور الإسلامى - بعد
التوحيد - وهي التى تتجلى فيها حقيقة التوحيد والتوحيد الإسلامى يمار بأه
توحيد انماعيه والتأثير وليس مجرد لتوحيد اسلبى الذى يصفه أرسطو ، أو يصفه
أفلاطون !

واستقرار هذه الحقيقة في ضمير الجماعة المسلمة الأولى هو الذى أنشأ هذه
المجموعة الفريدة الممتازة في تاريخ البشرية كله على الإطلاق ، وبدون استثناء فقد
عاشوا هذه الحقيقة عاشوها حية في نفوسهم . عاشوا ليل نهار ، وصباح مساء
عاشوها كما يعيشون حياتهم اليومية الواقعة عاشوا مع الله يحسون وجوده في
نفوسهم وفي حياتهم أعمق من حس اللمس والرؤية عاشوا في كفه وفي رعايته
وعاشوا تحت عيه وفي رفقته . والتمسوا يده - سبحانه - تتدخل تدخلا مباشراً في

انصغير والكبير من أمورهم ، وتكمل خطهم ، وترمى بها ، وترشدهم ، وتعقب عليهم
 في الصغيرة وفي الكبيرة . ومن ثم كانوا هذا لذي كانوا . من الحساسية والطمأينة
 معاً . ومن ليقظة والراحة معاً . ومن الوكل والماعية معاً . ومن الخوف والطمع
 معاً . ومن الواضع ولعرة معاً . الواضع لله والعرة بالله . ومن الخضوع والاستعلاء
 معاً . الخضوع لله والاستعلاء على أعداء الله . ومن ثم صبح الله بهم في هذه الأرض
 ما صبح من الصلاح والعمارة ، ومن برفعة والطهارة ، مما لم يسبق ولم يلحق في تاريخ
 نبي الإنسان



والصفحة الأخرى للإيجابية في التصور الإسلامي هي إيجابية الإنسان في
 الكون وإيجابية المؤمن بهذه العقيدة في واقع الحياة على وجه خاص
 إن هذا التصور ما يكاد يستقر في الصميم ، حتى يتحرك ليحقق مبدؤه في صورة
 عملية ، وليترجم ذاته ، في حالة واقعية . والمؤمن بهذا الدين ما يكاد لا يمان يستمر
 في صميمه حتى يحس أنه قوة فاعلة مؤثرة . فعلة في ذات نفسه ، وفي الكون من
 حوله .

إن لتصوّر الإسلامي نفس تصوراً سلباً يعيش في عام انصميم . قائماً بوجوده
 هناك في صورة مثالية نظرية ! أو تصويرة روحانية ! إنما هو « تصميم » لواقع مطلوب
 إنشاؤه ، وفق هذا التصميم . وطالما هذا الواقع لم يوجد فلا قيمة لذلك التصميم في
 ذاته ، إلا باعتباره حافراً لا يهدأ لتحقيق ذاته .

هذا ما شير به لتصوّر الإسلامي في شعور المسلم . ومن ثم يجد دائماً هاتماً
 ملحاً في أعماقه . يهيب به إلى تحقيق هذا التصور في ديا الواقع ، ويؤرقه ، حتى يهب
 للعمل ، ويصرع طاقه الإيجابية كلها في هذا لعمل الإيجابي إساء . وفي إنشاء واقع
 تتمثل فيه هذه العقيدة في حياة الناس .

وحشي ذكر الإيمان في القرآن أو ذكر المؤمن ، ذكر العمن ، الذي هو لترجمة
 الواقعية للإيمان . فليس الأمر مجرد مشاعر إنما هو مشاعر تُفَرِّغ في حركة ، لإنشاء
 واقع ، وفق « التصميم » الإسلامي للحياة ، أو وفق تصوّر الإسلامي للحياة

« إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله - ثم لم يرتدوا - وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله - أولئك هم الصادقون » . (الحجرات : ١٥)

« وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليسخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنهم دينهم الذي رضى لهم ، وليسلبهم من بعدهم أموالاً . يعدونني لا يشركون بي شيئاً . ومن كفر بعد ذلك ، فأولئك هم المفسدون » . (النور : ٥٥)

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

(آل عمران : ١١٠)

« فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض ، فالذين هاجروا ، وأخرجوا من ديارهم ، وودوا في سبيلى ، وقاتلوا وقتلوا لأكره عنهم سيئاتهم ، ولأدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ثواباً من عند الله ، والله عنده حسن الثواب » . (آل عمران ١٩٥)

« والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

(سورة العصر)

فليس هالك إيمان هو مجرد مشاعر في الوجدان ، أو تصورات في الدهن ، لا ترجمة لها في واقع الحياة . وليس هالك إيمان هو مجرد شعائر تعبدية ، ليس معها عمل بكيفية منهج الحياة كله ويخصه لشريعة الله^(١)

ثم يحس المسلم - من وحي تصويره الإسلامى أنه - شحصب - مطالب بأداء شهادة هذا الدين ، لا يستريح صميره ، ولا يطمئن ناله ، ولا يستشعر أنه أدى حق نعمة الله عليه بالإسلام . وأنه يطمع - من ثم - في النجاة من عذاب الله في الدنيا والآخرة . إلا أن يؤدي هذه الشهادة كاملة ، بكل تكليفها في لنفسه واجتهاد والمال^(٢)

(١) تراجع مخاصية الشمول - ص ٩٥ - ١١٨ من هذه البحث

(٢) تراجع رسالة « شهادة الحق » للسيد أبى الأعلى الموددى أمير الجماعة الإسلامية باكستان

« وكذلك جعلكم أمة وسطاً ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً » .

(النقرة . ١٤٣)

« ومن أظلم ممن كنتم شهداء عنه من الله ؟ » . (النقرة . ١٤٠)

وهو يؤدي هذه الشهادة . أولاً في ذات نفسه - بأن نطاق بين واقع حياته لشخصيه ، في كل حزية من حريات شاطه ، وبين مقتضيات التصور الذي يقوم عليه اعتقاده . فليست هالك حركة واحدة من حركات حياته ، إلا وهو مطالب بأن شهد فيها لهذا الدين شهادة عمدة لا شهادة اللسان وحده ، ولا شهادة القلب معه كذلك . ولكن شهادة العمل المصدق للإيمان ، التحشم للعباد ، حتى لا تثاره في عالم الواقع وفي ديب الناس

وهو يؤديها - ثابته - في دعوة الآخرين إلى هذا المسح ، وببینه لهم مسوقاً في هذه الدعوة وهذا السان بدوافع كثيرة أوهها دافع أداء الشهادة ينتج من الله ، ولؤدي حق نعمته عنه هدايته إلى الإسلام . وثانيها حب الخير للناس ، وهدايتهم إلى هد الخير لئلي هدي هو إليه ، والذي لا يحتجته نفسه ، ولا لأسرته ، ولا لعشيرته ، ولا لقومه ، ولا بحسه لأنه يتعلم من هذا التصور ذاته أن الشر كلهم إخوة وثالثها : شعوره بأن تنعة صلال اناس - إد صلوا - إنما تقع على عتقه هو ، مالم بين لهم - بعد ما عرف وتبر - وهي تبعه ثقلة ثوء بصميره ، وتوء بكاهله ، وقد علم أنهم تنعة الرسر - صلوات لله وسلامه عليهم - وأنه هو مستحلف فيها عن الرسل ، ومستول عنها بعدهم .

« رسلاً مشرين ومدرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .

(النساء : ١٦٥)

« وما كنا معذيين حتى نبعث رسولاً » .

(الإسراء : ١٥)

وهو يؤديها أحياً بالعمل على تحقيق مسح الله في حياة الناس ، وإقامة العظم الذي يستق من ذلك التصور ، وإقامة حياة الجماعة الإنسانية على أساس هذا العظم . باعتار أن هذا التصور هو « تصميم » لعالم واقعي ، يراد إخرجه وتحميقه ،

ليستحقق وجود الإسلام في الأرض ، ولتحلص الألوهية لله ، إذ لا وجود للإسلام بدون قيام مجتمع يعيش بهذا النظام ، ويعترف لله وحده بالألوهية ، فلا يتلقى في منهج حياته الأسامي إلا من الله . ثم ليستحق المسلمون نصر الله وبأيديه الذي وعدهم إياه . وشرط له شرطاً واضحاً لا عوج فيه :

« وليصرون اسمة من ينصره ، إن الله نفوى عزيز . الدين إن مكناهم في الأرض أقامو الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور »

(الحج : ٤٠ ، ٤١)

وفي طبيعة التصور الإسلامى ذاته ما يحرم الإنسان لمحاولة الحركة الإيجابية ، لتحقيق هذا المنهج في صورة واقعية . فالمسلم يعرف - من تصوره الإسلامى - أن «الإنسان» قوة إيجابية فاعلة في هذه الأرض ، وأنه ليس عاملاً سلباً في نظامها فهو مخلوق ابتداء ليستحلف فيها . وهو مستحلف فيها ليحقق منهج الله في صورته الواقعية لينشئ ويعمر ، وليعبر ويطور ، وليصلح ، ويسمى . وهو معدٌ على هذه اخلافة ، معاًب من الله سبحانه جعل النواميس الكونية وطبيعة الكون الذى يعيش فيه معاونة له

« وهو الذى أنزل من السماء ماء ، لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسيمون يست لكم به لزرع والزيتون والحيل والأعاب ومن كل الثمرات ، إن في ذلك لآية لقوم يتمكرون . وسحر لكم الليل والنهار ، والشمس والقمر ، واسحوم مسحرات بأمره ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما درأ لكم في الأرض محتماً ألونه ، إن في ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سحر البحر لتأكدوا منه لحياً طريداً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الملك مواجر فيه ، ولتستعوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . وألقى في الأرض رواسى أن تقيد لكم ، وأهباراً وسلاً لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون »

(الحج : ١٠-١٦)

وهو مُعان من الله كذلك بما وهبه من القوى والاستعدادات الداتية ، وهو يكلفه أمر الاخلافة .

« والله أخرحكم من بطون أمماتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع

والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون .

(لنحل : ٧٨)

وشرط هذه الخلافة عند المسلم معروف .

« قلنا اضطروا منها جميعاً فما يأييكم من هدى ، فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا باياننا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »

(النقرة : ٣٨ ، ٣٩)

وشعوره بأنه مكلف بالعمل ، ومعانٍ عليه ، ينفي عنه الشعور بالسلبية في نظام هذا الكون - سواء بالقياس إلى القوى الكونية ، أو بالقياس إلى قدر الله تعالى - فهناك الاستعدادات الذاتية الموهوبة له ، وهناك تسخير القوى الكونية لمساعدته ، وهناك التوازن بين مشيئة الله المطلقة وحركة الإنسان الإيجابية . كما أسلفنا

وانتهاء الشعور بالسلبية يبيته للحركة والتأثير والتفاعلية غير أن الإسلام لا يكتفى بأن يدفع عن المسلم الشعور بالسلبية . بل هو يعمده بدافع الحركة الإيجابية كذلك إذ يعمده أن قدر الله يعمد فيه والأرض من حوله . عن طريق حركته هو ذاته -

« إن الله لا يعبر ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (الرعد ١١)

« فاتوهم يعدهم الله بأيديكم ، ويحرمهم ويصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب عبط قلوبهم ويتوب الله على من يشاء ، والله عليم حكيم »

(التوبة . ١٤ ، ١٥)

« لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لعربنتك بهم ، ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً » .

(الأحزاب - ٦)

« ولولا دفع الله الناس بعضهم بعضا ففسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين »

(النقرة . ٢٥١)

« طهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، ليدينهم بعض الذي عملوا ، لعلهم يرجعون »

(الروم - ٤١)

كما يعلمه أن الله لا يرضى منه الشعور في الضمير ، والكلمة على اللسان ولا يدعه حتى يترحم ذلك في حياته واقعاً ، يحاسبه عليه ، ويجزيه بحسبه حتى الهدى من الله إنها يماله جراء على اجتهد فيه :

« والذين حاولوا فيما لهديهم سبيلنا ، وإن اسه لمع المحسبين »

(العنكبوت . ٦٩)

« أم حسبتم أن تدحوا الجنة ، ولأن يعلم الله الذين حاولوا منكم ويعلم الصابرين » .

(آل عمران ١٤٢)

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون . وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

(التوبة . ١٠٥)

هذا كله يستشعر المسلم أن وجوده على الأرض ليس فلتة عذرة ، إنما هو قدر مقدور ، مرسوم له طريقه ووجهته وعبء وجوده . وأن وجوده على الأرض يقتضيه حركة وعملاً إيجابياً ، في ذات نفسه وفي الآخرين من حوله وفي هذه الأرض التي هو مستخلف فيها ، وفي هذا الكون المحسوب حسبه في تصميمه وأنه لا سلع شكر نعمة الله عليه بالوجود ، ونعمة الله عليه بالإيمان ، ولا يطمع في اسحة من حساب الله وعذابه ، إلا بأن يؤدي دوره الإيجابي في خلافة الأرض ، وفق شرط الله ونهجه ، وتطبيق هذا المنهج في حياته وفي حياة غيره ، واجتهاد بدفع الفساد عن هذه الأرض التي هو فيم عليها والفساد في الأرض بما نشأ عن عدم تطبيق منهج الله في عالم الواقع ، ودينا لناس ، حياة الجماعات - وأن ورد هذا الفساد - حين يقع - رافع على عاتقه هو . مالم يؤد الشهادة لله في نفسه ، وفي غيره ، وفي الأرض كلها من حوله .

وتصورُ المسلم للأمر على هذا النحو ، لا حرم يرفع من قيمته في نظر نفسه ، كما
يرفع من اهتمامه . بقدر ما يشعر بصحابة النعمة الملقاة على عاتقه ، وثقل العناء
الذي يحمله ، ويكدر فيه حتى يلاهي الله به ، وقد أدى الأمانة ، وأدى لشهادة ،
ووفى بحق النعمة - في يحدك من الطاقة - وطمع في النجاة من عذاب الله ، وخرج
عن النار . . .



الواقعية

« قُلْ - سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا مِثْلُكُمْ ».

والخاصية السادسة من خواص التصور الإسلامي هي . . . الواقعية^(١) .
فهو تصور يتعامل مع الحقائق الموضوعية ، ذات الوجود الحقيقي المستيقن ، ولا أثر
الوقعي للإيجابي . لا مع تصورات عقلية مجردة ، ولا مع « مثاليات » لا مقابل لها في
عالم الواقع ، أو لا وجود لها في عالم اواقع .
ثم إن « التصميم » الذي يضعه للحياة الشرية يحمل طابع الواقعية كذلك ،
لأنه قابل للتحقيق الواقعي في « حياة الإنسانية »
ولكنها في الوقت ذاته واقعية مثالية ، أو مثالية واقعية ، لأنها تهدف إلى أرفع
مستوى راكم نموذج ، تمثل إشريه أن تصعد إليه .
وسنحاول هنا شرح هذين المبدأين من مدلولات الواقعية ، في التصور
الإسلامي :



إنه يتعامل مع الحقائق الموضوعية ذات الوجود الحقيقي المستيقن ، والأثر
الواقعي للإيجابي . .
يتعامل مع الحقيقة الإيجابية ، متمثلة في آثارها الإيجابية ، وفاعليتها الواقعية .
ويتعامل مع الحقيقة الكونية ، متمثلة في مشاهدتها المحسوسة ، المؤثرة . أو
المتأثرة .

(١) نحن نستخدم هذا التعبير بمعنى الذي يعطيه لفظه لعربي ، مجرداً من كل ما علق به من معنى
اصطلاحي تاريخي في البيئات الأخرى . ونقصد به على لأخص التحقق في عدم الواقع
ومن مراجعة الفصل كله يرداد هذا المعنى جلاءً وتحديداً .

ويتعامل مع حقيقة الإنسانية ، ممثلة في الأناسي كما هم في عالم الواقع
 الإله الذي يتعامل معه هذا التصور هو « الله » المتمرد بالآلوهية ، وبكل
 خصائص الآلوهية ولكن هذه الخصائص كلها من عالم الواقع ، ذات أثر في عالم
 الواقع ، يمكن إدراك آثارها الواقعية ، ولا يصرب العقل البشري في التيه ليمثلها على
 هواه ، في سلسلة من القصائد المطفية المحددة - على طريقة « الميت فبريق » بصمة
 عامة - ولكنها تتمثل في ثاره - سبحانه - في هذا الكون فالآلوهية وخصائصها
 واقعية الأثر في هذا لكون الإدراك البشري يجد إلى هذه الآثار الواقعية ، يرى
 فيها خصائص الآلوهية ، ممثلة في الصفة الإلهية .

« فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد في السماوات والأرض
 وعشيا وحين تطهرون . يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ويحيي
 الأرض بعد موتها ، وكذبت تحجرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل
 بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السماوات
 والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن في ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته
 من جعل بالليل والنهار وانتفاؤكم من فصله ، إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن
 آياته يريكم اندراق خوقا وطمعا ، ويرسل من السماء ماء ، فيحيي به الأرض بعد
 موتها ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم
 إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تحجون . وله من في السماوات والأرض كن له
 قاسون . وهو الذي بدأ الخلق ثم يعيده . وهو أهون عليه . وله المثل الأعلى في
 السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم » .

(الروم : ١٧ - ٢٧)

« إن الله عالم الغيب والنور ، يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي .
 ذلكم الله . فأنى تؤفكون ؟ » دلق الإصح ، وجعل الليل سكنا ، والشمس والقمر
 حسانا . ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذي جعل لكم السموم لتهتدوا بها في
 ظلمات البر والبحر ، قد فصل الآيات لقوم يعلمون . وهو الذي أشاكم من بين
 واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذي أرسل من

وهكذا يتعامل التصور الإسلامى مع إله « موحود » ، يدل خلقه على وجوده ، « مرید » ، فعال لما يريد « تدل حركة هذا الكون وما يجرى فيه على إرادته وقدرته ومن ثم يفترق تصور الإله في الإسلام ، فارقاً رئيسياً عنه في بصورت أفلاطون وأرسطو وأفلوطين حيث تتعامل تصوراتهم مع إله « مثالى » يفرصون هم عليه « مثالية » من صنع عقولهم ، ومن تصورات أحلامهم وهو إله لا إرادة له ولا عمل . لأن هذا من مقتضى كماله أو مثاليته ! ثم يصطبرهم هذا الافتراض إلى افتراض وسائط شتى بين الإله والخلق ، ويد تصورات وثنية وأسطورية كالتي كانت سائدة في الوثنية الإغريقية .

« فالوجود في مذهب أفلاطون صفتان متقابلتان طبقة العقل المطلق ، وطبقة المادة لأولية أو الهىولى « Hyle » والقدرة كنهها من العقل المطلق ، والعنصر كله من الهىولى . وبين ذلك كائنات على درجات ، تنمو بمقدار ما تأخذ من العقل ، وتسفل بمقدار ما تأخذ من الهىولى .

« وهذه الكائنات المتوسطة ، بعضها أرباب ، وبعضها أنصاف أرباب ، وبعضها نفوس شريرة . وقد ارتضى أفلاطون وجود تلك الأرباب المتوسطة ، ليعمل بها في العالم من شر ويقتصر وألم ، فإن العقل المطلق كمال لا يحده الزمان والمكان ، ولا يصدر عنه إلا الخير والعصية فهذه الأرباب الوسطى هي التي تولد الخلق ، لتوسطها بين الإله العاقل والهىولى العاصرة فحاء القصر والشر والألم من هذا التوسط بين الطرفين !!! »

« وكل هذه مظاهر المادة بطلان وحدان ، لأنها تتغير وتتلون ، وتزأى للحس على أشكال وأوضاع لا تصمد على حال »

« وإبى الصعود والدوام للعقل المحرد دون غيره وفي العقل المجرد تستقر المرحودات « الصحائح » أو المثل كما سميت في الكتب العربية وهي كالعقل المجرد خالدة دائمة لا تقبل النقص ولا يعرض لها الفساد !!! »

« وهذه الصحائح هي المثل العليا لكل موجود يتدبى بمادة أو هىولى فكل شجرة مثلاً فيها صفة أو صفات ناقصة من بعوت الشجرية . فأين هي الشجرة التي لا نقص فيها ؟ هي في عقل الله مد القدم وكل تلبس بالمادة من خصائص

الشجرية ، فهو محاكاة لذلك المثل لأعلى» (١) .

« والله عند أرسطو هو العلة الأولى ، أو المحرك الأول

« فلا بد لهذه المتحركات من محرك ، ولابد للمحرك من محرك آخر متقدم عليه وهكذا حتى ينتهى العقل إلى محرك بداته ، أو محرك لا يتحرك ، لأن العقل لا يفضل التسلسل في الماضي إلى غير نهاية .

« وهذا المحرك الذى لا يتحرك لابد أن يكون سرمداً ، لا أول له ولا آخر ، وأن يكون كاملاً منزهاً عن النقص والتركيب والتعدد ، وأن يكون مستعياً بوجوده عن كل موجود .

« وهذا محرك سابق للعالم في وجوده ، سبق العلة لا سبق الزمان ، كما تسبق المقدمات نتائجها في العقل ، ولكنها لا تسبقها في ترتيب الرسمى . لأن الزمان حركة العالم ، فهو لا يسبقه . أو كما قال : « لا يُخلَق العالم في زمان »

« وعنى هذا يقول أرسطو يقدم العالم على سبيل الترجيح الذى يقارب بيقين إلا أنه يقرر في كتاب « احدث » أن قديم لعالم مسألة لا تثبت بالبرهان

« وإجمال براهينه في هذه الفضية : أن إحداث لعالم يستلزم تعبيراً في إرادة الله والله منزه عن التعير فهو إذا أحدث العالم ، فإنما يحدثه لبقى - جل جلاله - كما كان أو يحدثه لما هو أفضل أو يحدثه لما هو مفضل وكل هذه الفروض بعيدة عما يتصوره أرسطو في حق الله فإذا حدث العالم وبقي الله كما كان ، فذلك عتث والله منزه عن العتث وإذا أحدثه ليصبح أفضل مما كان ، فلا محل للزيادة على كماله وإذا أحدثه ليصبح مفضولاً ، فذلك نقص ينزه عنه الكمال !

« وإذا كانت إرادة الله قديمة لا تتغير ، فوجود العالم يسعى أن يكون قديماً كبرادة الله لأن إرادة الله هي علة وجود العالم وليست «علة» معتقرة إلى سب خارج عنها ، فلا موجب إذن لتأخر المعلول عن علته ، أو لتأخر الموجودات عن سببها الذى لا سب غيره

« فالإنسان مجبور أن يريد اليوم شيئاً ثم يتأخر إنتاجه ، لبعض الوسيلة ، أو لعارض طارئ ، أو لعدول عن الإرادة وكل ذلك عتث في حق الله !

(١) عن كتاب « الله » للأستاذ العقاد ص ١٣٧

« وقد أفرط أرسطو في هذا الفيس ، حتى قال ، إن الله - جل وعلا - لا يعلم الموحودات ، لأنها أفل من أن يعلمها . وإنما يعقل الله أفضل المعقولات . وليس أفضل من ذاته ، فهو يعقل ذاته ، وهو العقل والعقل المعقول . وذلك أفضل ما يكون !!! »^(١) .

« وقد سمع أفلوطين غانة المدي في سريه الله ، فأنه عنده فوق الأشياء ، وفوق الصفات ، ولا يمكن الإحساس عنه محمول يعدو ذلك الموضوع .

بل هو عنده فوق الوجود !

« وليس معنى ذلك أنه غير موجود ، أو أنه عدم . لأن العدم دون الوجود وليس فوق لوجود - وإنما معناه أن حقيقة وجوده لا تقاس إلى الخواهر الموحودة ، ولا تدخل معها في حس واحد ، ولا تعريف واحد . فهو « أحد »^(٢) بغير نظير في وجوده ، ولا في صفاته ، ولا في كل مسوب إليه

« ويغلو أفلوطين أحياناً فيقول : إن الله لا يشعر بذاته . لأنه لا يميز ذاته من ذاته فيعرفها . ولكنه لصفاء وجوده يتنزه عن ذلك التمييز ، ويتنزه عن ذلك الشعور !!! »^(٣) .

وهكذا نجد في هذه التصورات ، وهي أعلى ما وصل إليه الفكر البشري في تصور كمال الله وتبريه - إلهاً من « صاع » الفكر البشري إلهاً لا وجود له في عالم الحقيقة والواقع ! لأن صفاته وخصائصه مسرعة من فروص عصبية محدودة ، لا من البطر في واقع الوجود ، وما يوحى به من صفات الخالق هذا الوجود . ولا من الوحي البدي يصف الله - سبحانه - كما هو في الحقيقة !

ومن ثم تشتط هذه التصورات في « مثالية » لا رصيدها من الواقع . لأنها لم تؤخذ من الواقع . إنها أحدث من التجريد العقلي والمروص لعقيدة . وتنتهي هذه المثالية إلى نقص وعجز في تصور الكمال الإلهي - كما يرى من المقترحات السابقة - في الوقت لدى تريد أن نألف في تقرير هذا الكمال .

(١) المصدر السابق ص ١٣٩ - ١٤٠

(٢) وهو ينمى عن إله الصفات - مانعه في « أحديه » لأن الصفة إصاصة على الذات ثم بالأحدية !!!

(٣) المصدر السابق ص ١٨٧ - ١٨٨

وحيث تقاس هذه المحاولات إلى التصور الإسلامى ، يتبين معنى « الواقعية » التى تعيها حقيقة الإلهية فى تصور الإسلامى ، حقيقة داعلة فى هذا الوجود ، وتلتصق خصائصها وصفاتها فى آثارها الواقعية فى هذا الوجود وهذا ما يفصله القرآن الكريم وهو يصف الحقيقة الإلهية للنس ، وهو يعرفهم برسم تعريف يسير عميقاً واضحاً ، وهو يستشهد بواقع الكون وواقع النس ، فى منطق فطرى واقعى جميل

* * *

يمثل هذه الواقعية بواجه التصور الإسلامى الكون فهو يتعامل مع هذا الكون الواقعى بمثل فى أحرام وأبعاد وأشكال وأوصاف ، وحركات وأثر وقوى وطاقات لاعم الكون الذى هو « فكرة » مجردة عن الشكل والقالب و الكون الذى هو « إرادة » مثله فى شكل وقالب ولامع الكون الذى هو « هيولى » ومادة أولية غير مشكلة ، أو الكون الذى هو « صورة » أو « مثل » فى لعقل المطلق ! أو الكون الذى هو « الطبيعة » الخالقة ! التى تطع إحقاق فى لعقل البشرى ! ولامع الكون الذى هو عدم أو شبيه بالعدم إلى آخر هذه لأسماء ، التى ليس ها مدلول واقعى ! يتعامل معه « الإنسان » .

الكون هو هذا الخلق ذو الوجود الخارجى الذى يدركه الإنسان ، ويوجه إليه قلبه وعقله فى القرآن هو هذه السموات والأرض ، هذه السموات والكواكب هذه الكائنات الممتدة والحيّة . وانطواهر الكونة هى هذه الحياة وهذا الموت وهذا الليل وهذا النهار وهذا نور وهذا الظلام وهذا المطر والبرق والبرق وهذا الظن وهذا الحرور وهذه الأحوال والأطوار ذات الوجود الحقيقى ، وذات الآثار الحقيقية

وحس بوجه الإسلام الإدراك الإنسانى إلى هذا الكون كدليل على وجود خالقه ووحدانيته ، وقدرته وإرادته ، وهيمته وتدبره ، وعلمه وتقديره . فإنه يوجهه إلى هذا الكون ذى الكينونة الواقعية ، ولآثار الواقعية ولا يوجهه إلى كون هو « فكرة » مضمرة ، أو « إرادة » مفردة ، ولا يوجهه إلى كون هو صورة فى عقل الإله ، أو « هيولى » تعارض تلك الصورة ، أو تشوهمها عندما تتسببها ! ولا يوجهه إلى كون هو

من صنع العقل ، أو إلى كون هو صانع العقل . إلى آخر هذه التصورات لُبْحنة
التي تتعامل مع نفسها ، ولا تتعامل مع الواقع لكوني إطلاقاً !
الكون في التصور الإسلامي هو هذه الخلائق التي أَدْعَاهَا الله ، وقال لها : كوني
فكانت ، والتي نسقها الله بحيث لا تتعارض ولا تتصادم ، والتي هي خاضعة لله ،
عابدة له ، مسخرة لأمره ، مؤدية لما أَرَادَهُ منها ، ولما صَخَرَهَا لَهُ ، عن أحسن وجه
من الأداء

« الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ثم الدين
كهروا برهم يعدلون »

(الأنعام : ١)

« إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على
العرش ، يدير الأمر ، ما من شفيع إلا من بعد إذنه . ذلكم الله ربكم عبيده ،
أفلا تدكرون ؟ » « هو الذي جعل الشمس صياء والقمر نوراً ، وقدره ما رل
نعلموا عدد اسنين والحساب . ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات بقوم
يعلمون إن في اختلاف الليل والنهار ، وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات
لقوم يتقون »

(يونس : ٣-٦)

« الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر
الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى . يدير لأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء
ربكم توقنون . وهو الذي مَدَّ لأرض وجعل فيها رواسي وأمهراً ، ومن كل الثمرات
جعل فيها روجين اثنين ، يُعشى الليل النهار ، إن في ذلك لآيات لقوم يتمكرون .
وفي لأرض قطع متجاورات ، وحناب من أعاب وزرع ، وبخيل صوان وغير
صوان يسقى بماء واحد ، ويفصل بعضها عن بعض في الأكس ، إن في ذلك لآيات
لقوم يعقلون » .

(الرعد : ٢-٤)

« وقد جعلنا في السماء بروحاً وربناها للماطرين » « والأرض مدداها وألقينا
فيها رواسي وأبنا فيها من كل شيء موزون . وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له

برازقين . وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم . وأرسل الرياح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه ، وما أنتم له بحازنين . وإنا لنحن يحيى ويميت ونحى الورثون .

(الحجر : ١٦ - ٢٣)

« والله جعل لكم مما خلق طلالا ، وجعل لكم من أجل أكثاف »

(الحل : ٨١)

« أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقنهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حي . أفلا يؤمنون ؟ وجعلنا في الأرض رواسي أن نتبد بهم ، وجعلنا فيها فجائجا سبلا لعلهم يهتدون . وجعلنا السماء سقفا محفوظا ، وهم عن آياتها معرضون . وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر . كل في فلك يسبحون »

(الأنبياء : ٣٠ - ٣٣)

« وترى الأرض هامدة ، فإذا أزلنا عنها الماء اهتزت وزجت وأسست من كل روح مهيح . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور »

(الحج : ٥ - ٧)

« ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض ، والملك تجري في البحر بأمره ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ؟ إن الله بالأس برؤوف رحيم وهو الذي أحاكم ثم بمتكم ثم يحكمكم . إن الإنسان لَكفور »

(الحج : ٦٥ - ٦٦)

« ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ، وما كنا عن خلق غافلين ، وأرسلنا من السماء ماء بقدر فأسكنناه في الأرض ، وإنا على دهاب به نعدرون فأسأأا لكم به جنات وبحل وأعباد ، لكم فيها فواكه كثيرة ، ومنها تأكلون » .

(المؤمنون : ١٧ - ١٩)

« أم تر أن الله أرسل من السماء ماء ، فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبل جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ، وعرايب سود ومن الناس والدواب

والأنعام مختلف ألوانه ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور »

(فاطر : ٢٧-٢٨)

« أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف ساءها وزيها ، وما لها من فروج والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسي ، وأنشأنا فيها من كل روح زوج نبح نبصرة وذكرى لكل عبد مبيت ، وبزلنا من السماء ماء مبارك ، فأنشأنا به حبات وحب الحصيد ، والنحل يسقاتها طلع بصدر ورقاً ليعبدوا أحياها به مدة ميثاً كذلك الخروج »

(ف : ٦-١١)

« سارك الذي بيده خلق ذلك وهو على كل شيء قدير . الذي خلق الخلق الموت والحياة لينلوكم أيكم أحسن عملاً ، وهو العزيز الغفور . الذي خلق سبع سموات طباقاً ، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت . فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ، بنقلب إليك البصر حاسئاً ، وهو حسير ، ولقد رينا السماء الدنيا مصابيح ، وجعلناها رجوماً للشياطين »

(الملك : ١-٥)

« أم تر إلى ربك كيف مدّ البصر ؟ ولو شاء لحبسه ساكناً ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ثم قصصناه إليها قصصاً يسيراً . وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً ، وجعل النهار شوقاً وهو الذي أرسل الريح بشراً من يدي رحمته ، وأنزلنا من السماء ماء طهوراً لنحيي به بلدة ميتاً ، ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناساً كثيراً »

(الفرقان : ٤٥-٤٩)

وهكذا يتعامل التصور الإسلامي مع كون له وجود واقعي يختلف بطبيعة الحال عن « وجود الله » سبحانه ولكنه وجود له خصائص مدركة من واقع هذا العالم ، وليست منتزعة من تصورات ذهنية مجردة ، ولا من دعاوى يملها أهوى من غير دليل !

وتتضح واقعية هذا الكون في التصور الإسلامي ، حين ستعرض - عن سبيل المثال - تصور « ابراهيمية » واعتبارها أن لوجود الواحد هو وجود « إبراهيم » - الإله الأعظم - أما هذا الكون المادي فهو « عدم » محض يقابل ذلك « الوجود » غير أن « الوجود » حلّ في « عدم » ومن ثم وجد الشر في العالم لأن الواحد حر محض

وكمال محض أما انعدم ، فهو شر محض أو نقص محض . وحطة الإنسان للتخلص من الشر - وهو كل ما له جسم - تنحصر من هذا الجسم ، لكي يعود «الوجود» الذي فيه إلى وصفه لمطلق . وينطلق من إसार هذا «العدم» النقص الشرير الذي حل فيه ! .

كذلك نضح وقعية الكون في التصور الإسلامي ، حين تراجع تصور أفلاطون لهذا الوجود لمادى وأنه مجرد ظل بعالم المثل . والشجرة التي يراها هي ظل لثال الشجرة المكون في العمل المطلق ! وهو ناقص لا يمثل كمال المثال الذي هو في عقل الإله و « النفس الكلية » - التي هي من عالم المثل - هي أصله بين الأشياء « المثالية » كما هي في العقل المطلق ، والأشياء الصورية ظلال المثل - غير الحقيقية - التي هي في عالم المادة ، الذي نمسه وراه !

وأفراطيين - كما تقدم - يرى أن هناك « الأحد » وهو الإله وقد صدر عنه «العقل» وعن العقل صدرت الروح أو « النفس الكلية » وهذه أوحدت العالم المحسوس نيابة عن العقل ! - وهذا العالم المحسوس أصله المادة وهي أحط الموجودات . وهي « ظلام » ! وهي شر وفساد !

... إلح ... إلح .

وحين توارى هذه التصورات المتترعة من لا شيء ! إلا من حيالات العقل انشرب وتأويلاته ، دون تلبس بواقعيات هذا الكون وحقائقه الموضوعية حين تورى هذه التصورات بالتصور الإسلامي ، كما تمثلت تلك لمصوص القرآنة التي سردناها - ووراءها في القرآن كثير - يتبين معنى « الواقعية » الذي يعيه في التصور الإسلامي



كذلك يتعاضد التصور الإسلامي مع الإنسان مع هذا الإنسان الواقعي ، يمثل في هؤلاء البشر كما هم ، بتحقيقهم الموجودة ! مع هذا الإنسان ذي التركيب الخاص ، والكيونة الخاصة الإنسان من لحم ودم وأعصاب . وعقل ونفس وروح ، الإنسان ذي الورع والأشواق ، ولرغائب ولضرورات . الإنسان الذي يأكل الطعام ويمشي في الأسواق . ويحب ويموت ويبداً وينتهي ويؤثر ويؤثر .

ويحب ويكره ويرجو ويخاف ويطمع ويأس ويعلو ويحط ويؤمن ويكفر
ويهندي ويضل ويعمر الأرض أو يمد فيها ويقتل الحرث والنسل إلى آخر
سمات الإنسان الوقعي ، وصفاته المميرة .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ،
وبث منها رجالا كثيرا ونساء . واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان
عليكم ربيبا » .

(النساء : ١)

« يا أيها الناس إن خلقكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن
أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » .

(الحجرات : ١٣)

« سبحانه الذي خلق الأرواح كلها مما نبت الأرض ومن أنفسهم وما لا
يعلمون »

(يس : ٣٦)

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم
جعلنا النطفة علقه ، وخلق العلقة مصعة ، فخلقنا المصعة عظاما ، فكسونا العظم
لحمًا ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين »

(المؤمنون : ١٢ - ١٤)

« هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا . إنا خلقنا الإنسان
من نطفة أمشاح نتليه فجعلناه سمعًا بصرًا إنا هدبناه السبل وما شاكرا وإما
كفورا » .

(الإنسان : ١ - ٣)

« قتل الإنسان ! ما أكفره ! من أي شيء حمده ؟ من نطفه خلقه فقدره . ثم
السبل يسره . ثم أماته فأهبره . ثم إدا شاء أنشره »

(عبس : ١٧ - ٢٢)

« وإدا من الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائما . فلما كشفنا عنه ضره مر »

كأن لم يدع إلى صر منه كذلك رين لمصرفين ما كانوا يعملون »

(يونس : ١٢)

« وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد صرء مستهم إذا هم مكر في آياتنا قل الله أسرع مكرًا . إن رسلنا يكتبون ما تمكرون » .

(يونس : ٢١)

« ونش أذقنا الإنسان ما رحمة ، ثم برعاهما ، إنه ليئوس كفور . ولنش أذقناه سعيا . بعد صرء مسته ، ليقوس ، ذهب السيئات عني ، إنه لفرح محبور . إلا الدين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم محبرة وأجر كبير »

(هود : ٩ - ١١)

« ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصم . وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد » . . « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضة الله ، والله رؤوف بالعباد » . .

(البقرة : ٢٠٤ - ٢٠٧)

وهكذا يتعامل التصور الإسلامي مع « الإنسان » الذي هو كثر واقعي ، له خصائصه ، وله مشخصاته وبه فاعليته وله معانيه ، وله بآثره وله تأثيراته لا مع معنى مجرد ، أو فرض من لفروض لا رصيده من الواقع .

إنه لا يتعامل مع « الإنسانية » كمعنى مجرد ، ولا يتحدد إمامًا يتوجه إليه بالعبادة^(١) بينما هذا المعنى المجرد لا وجود له ، أو لا صابط له ، في عالم الواقع . ولا يتعامل مع « العقل المطلق »^(٢) . ككثر مشخص ، لأن العقل المطلق ليست له كبنية واقعة إنما هناك العقل المفرد ، في كل فرد على حده ومن ثم فلس هو الذي يخلق الكون أو يخلق الروح^(٣)

إنه يختلف عن « المثالية العقلية » التي تتعامل مع مقولات عقلية بحتة ، لا صلة لها بالموحودات المؤثرة والمتأثرة في الكون والحياة .

(١) كما يرى فرباخ من فلاسفة المذهب الوضع

(٢) كما يرى تشه من فلاسفة المثالية العقلية

(٣) كما يرى أفلاطون وعمر الأفلاطونية الحديثة

وفي الوقت نفسه يفنق عن « الوضعية الحسية » التي تتحد من الطبيعة إنها يخلق العقل ! ويحقق المدركات العقلية ! عاقلة في انصوّر الإسلامي - هو حالو « لطبيعة » وحالو « الإنسان » ! واعمل الإنسانى يدرّك نواميس الطبيعة ، ويتعلم قوتيه ، ويتعرف إلى طاقاتها ومدحراتها ، ويؤثر فيها تأثيراً إيجابياً ، ويأثر بها تأثيراً حسب وعملها ، في توارن واعتداد .

وكأنها كان الإسلام - بل هو كاب - ينظر من وراء القرون إلى هذه الثوابت التي ستصيب البشرية ، على أيدي « الفلاسفة » و« المفكرين » المحدثين . من « مثاليه » عقبية إلى « وضعية حسية » إلى « مادية حديثة » فصاع تصورة في هذا التوارن العجيب لشامل المتكامل ليسنقر منه الصمير الشرى على فوارثات وليعود إليه الإدراك الفصل ويجد عنده الهدى والنور في مناهات العقور والأهواء ؟

وصدق لله العظيم

« إن هذا القرآن يهّدي للتي هي أقوم » (الإسراء : ٩)
 « ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ، وعمل صالحاً ، وقال إني من المسلمين »

(قصت : ٣٣)

* * *

فأم المبدول لشيء للواقعية في التصوّر الإسلامي ، فيتعلق بطبيعة المسح الذي يقدمه للحيلة الشرية وواقعية هذا المسح ، مع طبيعة الإنسان ، وطبيعة الظروف التي تحيط بحياته في اكون ، ومدى طاقته الواقعية الحقيقية

إن « الإنسان » - في التصوّر الإسلامي - هو هذا « الإنسان » الذي نعهده هذا الإنسان بقوة وضعفه سوارعه وأشوقه بحجمه ودمه وأعصابه ، بحسبه وعقده وروحه إنه ليس الإنسان كما يريد حيل جامع ، أو كما ينصاه حدم سابع مع قصابا ذهنة من فصاي سطق الشكى ! كما أنه ليس الإنسان الذي يصعه لسطو الوضعى في أسفل سافلين ، ويجعده مخلوقاً من مخلوقات هذه « الماده » الصماء ! أو من محبقات « الاقتصاد » !

إنه الإنسان الذي حقه الله لستحله في هذه الأرض ، وفوم فيه بالخلافة

الحركية الإيمانية ، التي تشي وتدع في عمق المادة ما يتم به قدر الله في الأرض والأحياء والناس

إنه الإنسان « الواقعي » كما أسلفنا ومن ثم فإن المذهب الذي يرسمه له الإسلام مذهب واقعي كذلك مذهب حركي يسطو حدوده على حدود طاقات الإنسان ، ويكوئيه وواقعية لحمه ودمه وأعصابه ، وحسبه وعمله وروحه المتمترحة في ذلك الكيان .

والمذهب الإسلامي بلحبة - على كل دفعته وطاقته وربانيته ومثاليته - هو في الوقت ذاته مذهب لهذا الإنسان - في حدود طاقته الواقعية - ويظم لحية هذا الكائن الشري الذي يعيش على هذه الأرض ويأكل الطعام ، ويعشى في الأسواق ، ويتروح ويتناسل ويحب ويكره ، ويرجو ويخاف ، ويؤول كل خصائص الإنسان الواقعي كما خلقه الله .

وهو يأخذ في اعتباره فطرة هذا الإنسان ، وطواقه واستعداداته ، وفصائله وردائله وقوته وضعفه . فلا يسوء طبه بهذا الكائن ، ولا يحتقر دوره في الأرض ، ولا يهدر قيمته في صورة ما من صور حياته كما أنه لا يرفع هذا الإنسان إلى مقام الألوهية ، ولا يخلع عنه شيئاً من خصائصها كذلك لا يتصوره متكأً نورياً شفعاً لا يتلبس بمقتضيات التكوين المادي ، ومن ثم لا يستقدر درافع فطرته ومقتضيات هذا التكوين الفطري

ومع اعتبار المذهب الإسلامي للإنسانية الإنسان من جميع الوجوه فهو وحده الذي يمكنك أن يصل به إلى أرفع مستوى ، وأكمل وضع ، يبلغ إليه الإنسان ، في أي زمان وفي أي مكان

وليس هذا مكان تفصيل هذه الحقيقة فيسبحي موضحها في القسم الثاني من هذا البحث عند الكلام عن حقيقة الإنسان فكتمى ها هذا لقدرة لنحليص منه إلى بعض المصوص ، التي تصور واقعية مذهب الإسلام ، وانطاقها على واقعية الكائن الإنساني ، مع الهتاف له دائماً بالرفعة والظهرة ، وبلوغ أقصى كماله المقدر له في حدود فطرته

« وتلوا ما هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟ لولا أرل إليه

ملك ، فيكون معه مديراً ! أو يلقي إليه كثر ! أو تكون له حبة يأكل منها ؟ وقال العالمون إن تتبمون ، لا رجلاً مسحوراً . انظر كيف صربوا لك الأمثال فصللوا ، فلا يستطيعون سبيلاً . تارك الذي إن شاء جعل بك خيراً من ذلك . حساب تجري من تحتها الأنهار ، ويجعل لك قصوراً ٢ .

(الفرقان ، ٧ - ١٠)

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نحيل وعند . فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كمي زعمت عليك كسفاً ، أو تأتي بالله وحلائكة قبيلاً . أو يكون لك بيت من زخرف . أو يرقي في السماء . ولن نؤمن برفيك حتى ترسل علينا كتاباً نقرؤه أ قل : سبحان ربي ! هل كنت إلا بشراً رسولاً ؟ » .

(الإسراء : ٩٠ - ٩٣)

« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » .

(البقرة : ٢٨٦)

« ويسألوك عن المحيض . قل هو أذى فاعتبروا النساء في المحيض ، ولا تقربوهن حتى يظهن ، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله . إن الله يحب المتوابين ويحب المتطهرين . نساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنى شئتم ، وقدموا لأنفسكم ، واتقوا الله ، واعلموا أنكم ملائكة ، وشر المؤمنين » .

(البقرة : ٢٢٢ - ٢٢٣)

« كتب عليكم لقتال وهو كره لكم . وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

(البقرة : ٢١٦)

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقنطير المقنطرة من الذهب والفضة . والحليل المسرمة والأعنام والحرث . ذلك متاع الدنيا ، والله عنده حسن عاقب . قل . أؤنسكم بحير من ذلكم ؟ لذين اتقوا عند ربهم حثات تجرى

لا يجب المسرفين قل من حرم ربة الله التي أحرح لعباده والطيبات من الرزق .
 قل . هي لندين أموا في الحياة الدنيا ، خصة يوم لقيامة ، كذلك تفصل الآيات
 لعم يعلمون قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والسعي
 عبر الحق ، وأن شركوا بالله ما لم يرل به سلطاناً ، وأن يقولوا على الله ما لا يعلمون .
 (الأعراف . ٣١ - ٣٣)

وكذا مصيب هكذا مع لصوص القرابية التي تقرر تكاليف الحياة الإسلامية ،
 وتضع حدود المنهج الإسلامي للحياة ، لأحطاً « لواقعية » في هذا المنهج وانطاقها
 على واقعية الفطرة الإنسانية ، وحدود طاقاتها الموهوبة لها ، وحدود الاستعدادات
 المهيأة للعمل والشاغل بحيث لا تكث طاقة واحدة ، ولا تكث عن العمل ،
 وبحيث لا تكث كذلك أكثر من وسعها ، ولا تكث ما ييس من طبعها وفطرتها .
 وتتجلى هذه الواقعية بوصوح حين نظر مثلاً فيما تنطه العقيدة الراهمية من
 معشقيها وحين نراها تطلب إليهم الكف عن كل ما ينمى أو تصور تكوينهم
 الحسدى ، وذبت كى تسارع أرواحهم في الانطلاق من قيد الحسد ، والخلاص من
 هذه « العدم » المظلم النقص الشرير ، والعودة إلى « الوجود » الكامل الخير المنير .
 كذلك حين نظر إلى التصورات الكسبة التي اصطغت بها انصرسة ، ونراها
 تعمل التكوين الإنسانى - المؤلف من امادة والروح - في حالة اردواح مركب كامل -
 كما لو كان عبطة منكراً ١ يجب لتخلص منها ، والنطلع إلى هذا الخلاص في
 انفصال عالم الروح عن عام الحسد ، وفي استقار كل ما هو جسدى على الإطلاق
 فصلاً على تكليف الإنسان ما لا يعطى على سبل المثال ، معاشرة روح لا يطبق
 عشرتها أو الانفصال عنها - دون طلاق - مع عدم معاشرة روح أخرى بعدها . . .
 وعبر هذا كثير في لتصورات لكسية ، التي تصادم فطرة الإنسان وتكوينه الواقعى ١

* * *

إن الإسلام دين للواقع دين للحياة دين للحركة . دين للعمل وللتاج والبناء
 دين تطابق تكاليفه للإنسان فطرة هذا الإنسان بحيث تعمل جميع انطاقات
 الإنسانية عملها اندى خلقت من أجله وفى لوقت ذاته يلع الإنسان أقصى كماله

الإنساني انقدر له ، عن طريق العمل والحركة ، وتلبية الطاقات والأشواق ، لا
كنها أو كفها عن العمل ، ولا إهدار قيمها واستقذار دوافعها

ومن ثم نتحقق صفة « الواقعية » للمصباح الإسلامي الموضوع بدعياه لشرية ،
تحققها للتصور الإسلامي ذاته عن الله والكون والحياة والإنسان . ويتطابق لتصور
الاعتقادي والتهج العملي في هذا الدين تطابقاً لا تقوت فيه

ومن ثم يتطابق الإنسان بكل طاقاته ، يعمر في هذه لأرض ويعبر ، ويسمى في
موجوداته ويطور ، ويدع في عالم امداء ماشاء الله له أن يبدع لا يقف في وجهه
حاجر من التصور الاعتقادي ، ولا من التهج العملي فكلاهما « واقعي » مطابق
لواقعية الكسيرة الإنسانية ولظروف الحقيقة المحيطة بها في هذا الكون من حوله
وكلاهما صادر من الجهة التي صدر عنها الإنسان ، والتي روده بطاقته
واستعداداته

ومن ثم تنسب للإنسان ، مؤمن بهذه لعقيدة ، المحدث الحقيقة لتصور الإسلامي
، وللمصباح الإسلامي المنشق منه ، أن يشئ من الآثار الواقعية في هذه الأرض ، وأن
يحقق من الإبداع لمادى فيها ، وفاق ما بشئ من الصلاح الأخلاقى ، وكفاء ما
يحققه من الرعة والتطهر في تناسق وتوازن وشمول وإحسان وواقعية
« فطرة الله التي فطر لناس عليها لا تبدل خلق الله ذلك الدين لقسم ولكن
أكثر الناس لا يعلمون » .

(الروم : ٣٠)

التوحيد

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيْ
إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ»

التوحيد هو المقوم الأول للتصور الإسلامى ، بما أنه هو الحقيقة الأساسية في العقيدة الإسلامية ، ولكنه كذلك هو إحدى خصائص هذا التصور ، بما أن لتصور الإسلامى يتفرد بهذه الصورة لمخالفة من التوحيد ، من بين سائر التصورات الاعتقادية والملمسية السائدة في الأرض خيماً . وهذا الاعتقاد يتحدث بها عن «التوحيد» ضمن «خصائص التصور الإسلامى» كما ستحدث عنه في القسم الثانى من هذا البحث ، ضمن «مقومات التصور الإسلامى» .

تحدث عنه هنا ضمن الخصائص ، ليس نوع تفرد التصور الإسلامى بهذه الخاصية ، من بين سائر تصورات الاعتقادية والملمسية السائدة في جنات الأرض . وبإدراكه فنقرر أن «التوحيد» كان هو «الخاصية» سريرة في كل دين جاء به من عند الله رسول . كما أنه كان «المقوم الأول» في دين الله كما «وأن الإسلام» - على إطلاقه - كان هو الدين الذى جاء به كل رسول . بما أن الدين هو إسلام الروح لله وحده ، واتباع منهج الله - وحده - في كل شؤون الحياة ، والتلقى من الله - وحده - في هذه الشؤون كلها ، والعبودية لله وحده بطاعة منهجه وشريعته ونظمه ، والعبادة لله وحده سواء في الشعائر التعبدية أو في نظام الحياة الواقعية . ولكن التحريمات والامحرافات التى وقعت في تصورات أتباع الرسل ، إلى جانب طغيان الجاهليات على الديانات ، لم تنق في الأرض كلها من تصور دينى صحيح ، إلا التصور الذى جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - وحفظ الله أصوله ، فلم نمتد إليها يد

التحريف ، ولم تظلمسها كذلك اجاهليات التي طعت على حياة الدس ومن ثم أصبح « التوحيد » خاصية من خصائص هذا الدين .

هالك عنار آخر يحمن من حقا أن يقرر هذه الحقيقة حقيقة أن لتوحيد خاصة هذا التصور . وهو لمساحة التي تشتملها حقيقة التوحيد في العقيدة الإسلامية ، وحواسب التي تمتد إليها في هذا التصور ، وحيما يقرر على هذا التصور من مشاعر وأخلاق وسوءك وتنظيم لحواسب الحياة لواقعية فقد امتدب هذه الحقيقة إلى تصور المسلم ليكون كنه ، وتصوره حقيقة القوة الفاعلة فيه ، وتصوره الحقيقة القوة الفاعلة في حياته هو بحدافيرها كما امتدت إلى تنظيم حواسب الحياة الإنسانية كلها : خافيا وظاهرا صغيرها وكبيرها حقيرها وجليلها . شعائرها وشرائعها اعتقاديها وعمليها فريديها وجماعيها . ديويها وأحروها . بحيث لاقت درة واحدة منها من عقيدة التوحيد الشاملة كما سبق أن بيا في خاصية « الشمول » وكما سيبين بالتفصيل في القسم الثاني من هذا البحث عند الكلام عن « حقيقة الألوهية » .

* * *

يقوم التصور الإسلامي على أساس أن هناك ألوهة وعبودية ألوهية يتفرد بها الله سبحانه وعبودية يشترك فيها كل من عباده وكل ما عبده . وفي يتفرد الله . سبحانه . بالألوهة ، كذلك « يتفرد » - تعاها - بكل خصائص الألوهة . وكما يشترك كل حي وكل شيء - بعد ذلك - في العبودية ، كذلك يتفرد كل حي وكل شيء من خصائص الألوهية . وهذا إذن وجودان متميزان وجود الله ووجود ما عبده من عبيد الله والعلاقة بين الوجودين هي علاقة الخالق بالخلق ، والإله بالعبيد .

هذه هي القاعده الأولى في التصور الإسلامي . ومنها ينبثق وعليها يقوم سائر الفروع الأخرى . وقيام التصور الإسلامي على هذه لقاعده الأساسية هو الذي يجعلها إحدى خصائصه كما أسلفنا .

ولقد سبق القول بأن « التوحيد » كان هو قاعدة كل ديانة جاء بها من عند الله

رسول والقرآن الكريم بقرره هذه الحقيقه ، و يؤكد ، و نكرها في قصة كل رسول ،
كما يقررها إجمالاً على وجه القطع واليقين

« لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إني
أخاف عليكم عذاب يوم عظيم »

(الأعراف : ٥٩)

« و إني عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا
تتقون ؟ » .

(الأعراف : ٦٥)

« و إني ثمود أخاهم صالحاً . قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد
جاءتكم بينة من ربكم . . . » .

(الأعراف : ٧٣)

« و إني مدين أخاهم شعيباً . قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد
جاءتكم بينة من ربكم . . . » .

(الأعراف : ٨٥)

« و هل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا ، فقال لأهله امكثوا إني آتيت نارا ،
لعل آتيتكم منها بقس أو أجد على النار هدى . فلما أتتها هودى : يا موسى إني أن
ربك فاحلج بعلث إنك بالوادي المقدس طوى ، وأن حترت وستمع لما يوحى .
إني أن الله لا إله أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري » .

(طه ٩-١٤)

« و إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين
من دون الله ؟ قال سبحانك ! ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته
فقد علمته تعذب ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إني أنست علام العيوب ما
قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنتم عليهم شهوداً ما دمت
فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد إن
تعذبهم فلاهم عبادك ، و إن تغفر لهم فإني أنست العزيز الحكيم »

(المائدة : ١١٦-١١٨)

« وما أرسلنا من قبلك من رسول ، إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا وعبدون »
(الأنبياء : ٢٥)

ولكن هذا التوحيد الذى جاء به الرسل جميعاً ، حرف ودخلت فيه الأساطير فى شتى معتقدات . سواء فى الديانات التى تسب إلى السماء ، أو فى الوثنيات التى احتلقت فيها بقايا الديانات السماوية بالأساطير فى شتى الأركان . والتى ذكرنا طرقها فى فصل « تيه وركام » . . وأطرافاً أخرى فى بعض المصطلحات السابقة من هذا البحث .

* * *

ولكنى يدرك حقيقة أن التوحيد حاصية من خصائص التصور الإسلامى . وقبل أن نعرض المساحة التى تشعبها حقيقة توحيد فى هذا التصور . يحسن أن نلمس بعض التصورات الأخرى فيما يختص بتصوير الألوهية والعبودية . وبخاصة بعض التصورات التى اشتملت على تصور وجودين متميزين ، أو على نوع من التوحيد للإله :

المزدكية مثلاً اعترفت بواحد هو وحده « الموحود » وهو « براهما » وجعلت من صفاته التمرد بالكمال ، والتمرد بالخير ، والتمرد بالدوام ، والتمرد بالأولية . وجعلت ما عدا هذا الواحد الموحود « عدم » لا وجود له . فهذه الأكوان وما فيها عدم !

ولكنها من جانب آخر جعلت « الوجود » الذى هو الخير والكمال محل فى « العدم » الذى هو الشر وانقصر براهما حالاً فى كل جزء من أجزاء هذا العالم . الذى هو عدم . فكل جزء من أجزاء هذا العالم . فى ذلك الإنسان . مؤلف إذن من وجود وعدم من خير وشر من كمال ويقص . من بقاء وفناء !

ومهمة المزدكية المؤمن إذن هى المحاولة المستمرة لتخصيص الوجود والخير والكمال وانقاء الذى فى كيانها ، من عدم والشر والقص والفناء ، « ليصير » براهما . ومن هنا حرصه على إبقاء جسمه . الذى هو عدم . ليطلق « الوجود » الحالى فيه ، ويصيح طلباً . وهذه هى درجة « البرهانا » وهى تمثل اخلاص وانعودة « براهما » !

ومع ذلك فقد شاب هذا التوحيد . على ما نه من حول - شائنة من «التثليث» . . إذ اعتبر «براهما» صورة من صور ثلاث للإله الواحد «الإله» «براهما» في صورة الخالق والإله «عشر» في صورة الحافظ . والإله «سيما» في صورة الهادم .

ثم جعلوا «الكارم» هي «المدر» العال على الآلهة وعلى الأفلاك وهو الذي يكرر على العالم دورات الخلق والماء فلم تسلم عقيدة التوحيد حتى في صورتها تلك الملية بالإحالات !

واشتملت ديانة أحياتون على لون من التوحيد إذ وصف أحياتون إلهه «أتون» بأوصاف الوحدةانية ، والماعلية ، ومنها خلق هذا الكون وحفظه وتديره . وكان هذا أعنى تصور عرفته لشريعة في غير انديانات السماوية - وإن كان يسعى ألا تعقل أثر الديانات السماوية في عقيدة أحياتون هذه - ولكن مع ذلك شئتها شائنة من عقائد ابوثية . إذ جعل هذه الشمس المادة رمزاً لإلهه ، وجعل اسمها مرادفاً لاسمه فاحتلظت عقيدة التوحيد بهد الأثر الوثني لعريب !

وفرق أرسطو بين إله «واحد الوجود» وكون «ممكن الوجود» غير أن جعل إلهه هذا الواحد ، سلب اتجاه الكون فهو أولاً لم يخلق لكون ولا علاقة له بتديره إنما هذا لكون يتحرك بشوق كامل فيه إلى واحد الوجود ، تنس من حابة «مكان الوجود» إلى حالة «الوجود» .

وكان التوحيد ديانة إبراهيم عليه السلام ، ووصى به إسماعيل وإسحاق وكان يعقوب ابن إسحاق يدين بالتوحيد ، ووصى به سبه كذلك في ساعة موته ، كما يحكى ذلك القرآن الكريم .

«ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه؟ ولقد اصطفيناه في الدين ، وإنه في الآخرة لمن الصالحين» إذ قال له ربه أسلم فإن أسلمت رب العلمين ، ووصى بها إبراهيم نبيه ويعقوب . يا سى إله الله اصطفى نكم الدين ، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لسيه ماتعدون من عدى ؟ قلوا بعد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق - إلهنا وحدنا -

ونحن به مسلمون . (البقرة : ١٣٠ - ١٣٣)

هلم ساء موسى رسولاً لى إسرائيل جاء بالتوحيد - وما ترال اليهودية تعتبر ديانة توحيد - إلا أن بنى إسرائيل من قبل موسى ومن بعده ، شوهوا هذا التوحيد ، وحرفوا لكلم عن موضعه - فجعلوا إلهاً خاصاً لى إسرائيل وحدوه - ولكنهم جعلوه إلهاً قومياً ينصرهم على أصحاب الآلهة الآخرين ! وذلك فوق ما افترؤا على " إله إسرائيل " ذاته فقالوا نحن أساء الله وأحدؤه - وهو لا يعدسا بدوت ، وقالوا " عرير من الله " وقالوا عنه - إن به أساء براوحوا مع سات الناس فوجدوا العمالقة ، الذين خاف الإله منهم أن يصسحو الهة مثله ، فمرن وبلل أسستهم ! وفنوا - إن يعقوب صارح هذا الإله مرة ، وصربه فحلح حقوه ! وقالوا عنه - به يتمشى فى طلال الحديقة ويرد سرائله ، وقالوا عنه : إله يحب ربح نشوء - إلى آخر هذه الأساطير التى شوهت وطمست عقيدة التوحيد .

وحاء عيسى عليه السلام بالتوحيد - ثم انتهت عقائد البصارى إلى الشيث ، الذى يحاولون أن يصفوه بالتوحيد ، بنى لأقاليم الثلاثة - الأب ، والابن ، ولروح القدس . مع الاختلاف عن طبيعة الأقوم الأس ومشيئته . مما يجعل " التوحيد " فى هذه الديانة ، كما تفرقت بها اعطوائف ، دعوى لا حقيقة لها من واقع التصورات المتنوعة للكائنات المتعددة^(١) .

* * *

وهكذا نستطيع أن نقول بطمش أن التصور الإسلامى هو التصور الواحد لدى بقى قائماً على أساس التوحيد الكامل خالص - وإن التوحيد خاصة من حصائص هذا الصور ، تفرد وتميزه من بين صائر الاعتقدات اسائدة فى الأرض كلها على العموم .

والآن - بعد هذا البيان - نستطيع أن نرى - فى اختصار - طبيعة وحدود هذا التوحيد

تقرر العقيدة الإسلامية - كما تقدم - أن هناك ألوهية وعبودية - ألوهية يتفرد بها الله - سبحانه - ويشترك فيها كل حى وكل شىء - كما تقرر تفرد الله - سبحانه -

(١) يراجع فصل تبه وركام من هذا البحث

محضات الألوهية ، ونجرد العبد من هذه الخصائص ومن ثم ترتب على هذا
التصور كل مقتضياته وكل نتائجها في الحياة الإنسانية

والله - سبحانه - واحد في ذاته ، متمرد في كل خصائصه .

« قل . هو الله أحد . الله لصمد لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد »

(سورة الإخلاص)

(الشورى : ١١)

« ليس كمثله شيء »

(المحل : ٧٤)

« فلا تصربوا لله الأمثال » .

والله - سبحانه - خالق كل شيء :

« دلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء » وعدوه . وهو على كل شيء

وكيل .

(الأنعام : ١٠٢)

(الفرقان : ٢)

« وخلق كل شيء فقدره تقديراً » .

« قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك

في السماوات ؟ اتتوبى بكتاب من قل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين »

(الأحقاف : ٤)

والله - سبحانه - هو مالك كل شيء .

(الأنعام : ١٢)

« قل لمن ما في السماوات والأرض ؟ قل لله »

(المائدة : ١٧)

« والله مالك السماوات والأرض وما بينهما »

« الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتحد ولداً ولم يكن له شريك في الملك »

(الفرقان : ٢٠)

والله - سبحانه - هو الرازق لكل من خلق وكل ما خلق

« يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء

والأرض ؟ لا إله إلا هو ، فأنى تؤفكون ؟ »

(فاطر : ٣)

« وكأى من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها ويريكم »

(العنكبوت : ٦٠)

« وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها »

(هود : ٦٠)

والله - سبحانه - هو مدبر كل شيء ، ومصرف كل شيء ، وحافظ كل شيء .

« إن الله يملك السماوات والأرض أن تزولا » ولئن رآه إن أمسكهن من أحد من

(فاطر : ١١)

بعده .

« ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره »

(الروم : ٢٥)

« وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » .

(يس : ١٢)

والله - سبحانه - هو صاحب السلطان المسيطر القاهر على كل شيء .

« وهو لفاهر فوق عباده ويرس عسكرهم حصّة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته

رسلنا وهم لا يفرطون » ثم ردوا إلى الله مولاهم لنحق . ألا له الحكم وهو أسرع

الخاصين .

(الأعنام : ٦١-٦٢)

« قل هو القادر على أن يبعث عليكم عداثا من فوقكم أو من تحت أرجلكم ،

(الأعنام : ٦٥)

أو ينسفكم سُنُقًا ويدبر عَصَاكُمْ بأمره »

« قل أرأيتم إن أحد الله سمعكم وأبصاركم وحتم على قلوبكم ، من له عذر

(الأعنام : ١٦)

الله يأتيكم به ؟

وكل خلاق لله - سبحانه - تفر له بالعبودية والطاعة والقنوت :

« . ثم استوى إلى السماء وهي دخان . فقدر لها والأرض . اثنيًا طوعًا أو

(فصلت : ١١)

كرهاً . قالت أتينا طائعين » .

« ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره » ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أسم

تخرجون . وله من في السماوات والأرض كل له قانتون »

(الروم : ٢٥-٢٦)

« والله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون »

(الحج : ١٧)

(الإسراء : ٤٤)

« وإن من شيء إلا يسبح بحمده » .

* * *

ويكتفى بهذا القدر من مجالات الوحد في تصور الإسلامى ، حيث يتبين منها أفراد الله - سبحانه - بالالوهية ، وتقرير عبودية كل من عدا الله وكل ما عداه لألوهيته وفهم العلاقات بين الخلق والخالق على أساس العبودية وحدها . لا على أساس سب ولا صهر ولا مشاركة ولا مشابهة ، في ذات ولا في صفة ولا في اختصاص . وهذا القدر يكفى في بيان أن التوحيد حاصبة من خصائص انتصوير الإسلامى وهى الحقيقة التى يريد تقريرها في هذا القسم الأول من البحث . أما تفصيل هذه الحقيقة فموضعه في انقسم لثانى عند الكلام عن « حقيقة لألوهية وحقيقة العبودية »

غير أن الحديث عن حاصبة التوحيد لا يتم حتى يشير كذلك - بمثل هذا الاختصار - إلى مقتضيات هذا التوحيد لمطلق الكامل الشامل حاسم الدقيق ، في الحياة الإنسانية . . . وهذه المقتضيات تمثل كذلك كيف أن التوحيد حاصبة من خصائص التصور الإسلامى :

إن من مقتضيات توحيد الألوهية - في التصور الإسلامى - أفراد الله - سبحانه - بخصائص الألوهية في تصريف حياة البشر ، كإفراده - سبحانه - بخصائص الألوهية في اعتقادهم وتصورهم ، وفي صيرتهم وشعائهم على السواء وكما أن المسلم يعتقد أن لا إله إلا الله ، وأن لا معبود إلا الله ، وأن لا خالق إلا الله ، وأن لا رازق إلا الله ، وأن لا مدبر أو ضار إلا الله ، وأن لا منصرف في شأنه وفي شأن الكون كله - إلا الله . . . فيتوجه لله وحده بالشعائر التعبدية ، ويتوجه لله وحده بالطلب والرجاء ، ويتوجه لله وحده بالخشية والتقوى

كذلك يعتقد المسلم أن لا حاكم إلا الله ، وأن لا مشرع إلا الله ، وأن لا منظم لحياة البشر وعلاقاتهم وارتباطاتهم بالكون وبالأحياء ومسى الإنسان من حسبه إلا الله . فيتلقى من الله وحده التوجيه والشرع ، ومنهج الحياة ، ونظم المعيشة ، وقواعد الارتباطات ، وميران القيم والاعتبارات . . . سواء .

فالمتوجه إلى الله وحده بالشعائر التعبدية ، والطلب والرجاء والخشية والتقوى ، كاللقى من الله وحده في التشريع والتوجيه ، ومنهج الحياة ونظام المعيشة ، وقواعد

لارتباطات وميران القيم والاعتبارات كلاهما من مقتضيات التوحيد - كما هو في
التصور الإسلامي - وكلاهما يصور المساحة التي تشملها حقيقة التوحيد في ضمير
المسلم وفي حياته على السواء .

وانقران الكريم يربط بين عقيدة التوحيد وبين مقتضياتها في انصمر وفي الحياة
ربطاً وثيقاً ، ويرتب على وحدانية الألوهية والربوبية ووحدانية الفاعلية والسطوان في
هذا الوجود ، كل ما يكلفه المسلم - سواء ما يكلفه من شعور في الصمير ، أو ما
يكلفه من شعائر في العبادة ، أو ما يكلفه من التزام في الشريعة - وفي السياق
الوحد يرد ذكر التوحيد ، واثـر الفاعلية والسلطان ، في الـكون وفي الحياة الدنيا
والآخرة ، ويكرر معها لأمر بانـاع شريعة الله ، باعتباره مقتضى توحيد الألوهية
والسلطان .

« وإلهكم إله واحد ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم إن في خلق السموات
والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلـك التي تجري في السحاب ينمـع الناس ،
وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ،
وتصريف الريح والسمـحـات المسحريـن لسماء والأرض لآيات لقوم يعقلون
ومن الناس من يتخذ من دوان الله أنداءاً يحرمهم كحـب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله
ولو يرى الذين ظلموا إـذ يرون العذاب أن انقـوة لله جميعاً ، وأن الله شديد
العذاب إذ نـرا الذين أنـعوا من الذين اتـبعوا ورأوا العذاب ، وتقطعت بهم
الأسباب وقال الذين أنـعوا - لو أن لنا كرة فنترا منهم كما تـراؤا ما ! كذلك يريهم
الله أعمالهم حسرات عليهم ، وما هم بحارحين من النار . يا أيها الناس كلوا مما
في الأرض حلالاً طيباً ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين . إنما يأمركم
بالسوء والمنحشء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون . وإذ قيل لهم : اتعوا ما أنزل الله
قلنا . بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا - أولو كان آباؤهم لا يعقون شيئاً ولا يهتدون ؟
ومثل الذين كفروا كمثل الذي يعلق سما لا يسمع إلا دعاء وساء ، صمكم عنى
فهم لا يعملون . يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقاكم واشكروا لله إن
كنتم إياه تعبدون . إنما حرم عليكم الميتة والدم وخم الخمر وما أهل به لغير الله ،

هم صطر غير بيع ولا عاد فلا إثم عليه إن الله عمود رحيم

(البقرة . ١٦٣ - ١٧٢)

وبالتأمل في هذا السياق القرآني نجد أنه بدأ بتقرير وحدانيه الله ، ووحدته الألوهية . ثم أتبع هذا التقرير بعرض المشاهد لكوبة التي تنجلي فيها القدرة الإلهية . ثم أعقبها بعرض مشاهد القيامة التي يتجلي فيها السلطان الذي لا سلطان غيره . . فلما انتهى من ذلك كله أمر الناس باتباع شريعة الله في التحليل والتحريم ، وبهاهم عن اتباع الشيطان ، وبدد بمن يتلقون في هذا الشأن عن عرف الجاهلية ، حيث لا يجوز التلقى فيه إلا من الله . ثم أمر الدين آموا أن يأكلوا من الطيبات التي شرع الله حلها . إن كانوا يعدلون الله وحده . وبين لهم ما شرع لهم حرمة ، لأنه هو وحده الذي يحلل ويجرم كما أنه هو وحده الذي يعد ، وهو وحده الذي يصرف هذا الكون ، وهو وحده صاحب السلطان يوم القيامة . وتوحيده . سبحانه . لا يتم حتى يتحرر في الشعائر وفي الشرائع وفي الدسوة سواء

ومثل هذا السياق لقرآني المتناسك المنشآت يرد كثيراً في القرآن للدلالة على معنى « التوحيد » وبجمله . ولعله يحسن أن يذكر هنا مثلاً آخر يريد الأمر جلاء ، وبين كذلك طريقة القرآن في عرض « خصائص لتصور الإسلامى ومقوماته » عرضاً شاملاً متكاملًا :

« وكذلت أوحيا إليك قرآناً عربى تنذر أم القرى ومن حولها ، وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه ، فريق في الجنة وفريق في السعير . ولو شاء الله لجمعهم أمة واحدة ، ولكن يدحر من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من رلى ولا نصر . . أم اتخذوا من دونه أولياء ؟ فإله هو الولى ، وهو يحى الموتى ، وهو على كل شيء قدير وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله . ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه است . فطر السماوات والأرض ، جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يدرؤكم به ، ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير . له مقاليد السماوات والأرض ، يسقط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بكل شيء عليم . شرع لكم من الدين ما وصى به نوحٌ ولدى أوحى إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى

أن أميروا الدين ولا تفرقوا فيه كبر على المشركين ما بدعوههم إليه ، الله يجتبي إليه من يشاء ، ويهدي إليه من يبيد وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم يعذبهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الدين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب . فلذلك فادع ، واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، رقل . امت بما أمر الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله رب وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا ، وإليه نصير (الشورى : ٧ - ١٥)

وبلثنا من في هذا السياق بعد أنه بدأ بتقرير الوحي والرسالة ، يذير الرسول يوم اجمع والديونة في الآخرة واختلاف مصائر المؤمنين والظالمين في الآخرة وفقاً لاختلاف طرائقهم في الدنيا . وإعلان وحدانية السلطان في يوم الحساب ثم أتبع ذلك بيان وحدة الولاية ووحدة القدرة المتحدة في إحياء الموتى ثم أعقب هذا بتقرير وحدة الحاكمية وقصرها على الله - سبحانه - كما أن عليه وحده يكون التوكل ، وإليه وحده تكون الإجابة ثم عرّض مظهر قدرته في فطر السماوات والأرض وخلق الناس أرواحاً والأعنام - مع تفرد سبحانه - « ليس كمثله شيء » وتفرد سلطانه « له مقلد السماوات والأرض » وتفرده بالبرق : « يسطر البرق من يشاء » وتقدر « ثم عقب على هذا التفرد في الذات و الصفات والفعالية والسلطان بأنه هو وحده الشارح لا مد هذه الرسالة ولكن مد فحر الرسالة « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحى إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى » ونص على أن الشرع هو الدين والاستعانة عليه وهما عن اتباع أهواء الناس وقول إقراره بالإيمان إلى أمره بالعدل - وهو الحكم بين الناس وفق ما شرع الله - وأنهى استباق المناقشة الكاملة بين المؤمنين الحاكمين بما شرع الله من الدين وغيرهم ، والرجعة في النهاية إلى الله الذي إنيّه المصير

وبحسب أن في هذين لعمودين الكفاية لبيان ذلك الارتباط الكامل في التصور الإسلامي بين توحيد الألوهية والحاكمية ، وبيان معنى التوحيد ومحاله في الحياة الإنسانية ، ولتقرير أن « التوحيد » بهذا المعنى وفي هذا المجال خاصية من خصائص التصور الإسلامي

ويبقى بعد هذا لبيان لمعنى التوحيد في التصور الإسلامي ولمحاله في الحياة الإنسانية أن نقول : إن هذا التصور يشئ في العقل والقلب آثاراً متفردة ، لا ينشئها تصور آخر ، كما أنه يشئ في الحياة الإنسانية مثل هذه الآثار كذلك إنه يشئ في القلب والعقل حالة من « الانصساط » لا تتأرجح معها الصور ، ولا تهتز معها لقيم ، ولا يتميع فيها التصور ولا السلوك .

فالذي يتصور الألوهية على هذا النحو ، ويدرك حدود العبودية كذلك ، يتحدد اتجاهه ، كما يتحدد سلوكه ، ويعرف على وجه الصسط والدقة من هو ؟ وما عاية وجوده ؟ وما حدود سلطانه ؟ كما يدرك حقيقة كل شيء في هذا لكون ، وحقيقة القوة الفاعلة فيه . ومن ثم يتصور الأشياء ويتعامل معها في حدود مصبوبة ، لا تمنح فيها ولا تأرجح . وانصساط التصور يشئ ، انصساط في طبيعة العقل ومراربه ، وانصساطاً في طبيعة القلب وقبمه . وانصساط مع سن الله بعد ذلك والتلفي عنها يزيد هذا الانصساط ويحكمه ويقويه .

ندرك هذا حين نوازن بين المسلم الذي يتعامل مع ربه انواحد الخالق الرزق القادر القاهر المدير المنصرف ، وبين غيره من أصحاب الصور التي أشرف إليها سواء من يتعامل مع إلهين متضادين ، إله للحير وإله للشر ! ومن يتعامل مع إله موجود ولكنه حائل في العدم ! ومن يتعامل مع إله لا يعنيه من أمره ولا من أمر هذا الكون شيء ! ومن يتعامل مع إله (المادة) الذي لا يسمع ولا يبصر ولا يشئ على حال ! إلى آخر ابرك الذي لا يستقر العمل أو لقلب منه على قرار

* * *

وإن هذا التصور لبشئ في القلب والعقل « الاستقامة » فالإنسان الذي يدرك من حقيقة ربه ومن صفاته ومن علاقته به ذلك القدر « المصبوط » لا شك يستقيم في تعامل معه بقلبه وعقله ، ولا يصطرب ولا يطيش !

والمسلم يعرف من تصوره لربه ، وعلاقته به ، ما يحب ربه وما يكره منه ، ويستيقن أن لا سبيل له إلى رضاه إلا بالإيمان به ، ومعرفة صفاته ، والاستقامة على منهجه وطريقه . فهو لا يحب إليه - سبحانه - سوء ولا قرابة ، ولا يتقرب إليه

بتعويده ولا شعاعه ، ولا يعده إلا بمثال امره وبهيه . واتباع شرعه وحكمه
ومن شأن هذه المعرفة أن تثنى الاستقامة في قلبه وعقله . الاستقامة باستقامة
التصور . والاستقامة باستقامة السلوك .

ذلك إلى الوضوح والبساطة واليسر في التصور وفي النسوك . يدرك هذا كله من
يوارد بين تصور الإسلامى القائم على التوحيد . بمعناه هذا ومحاله . وبين التصور
الكسبى للأقديم الثلاثة للإله الواحد . والسوة التى لأسيل للحياة إلا بالاتحاد بها
والخطيئة الموروثة التى لا يعمرها إلا بالاتحاد بالذى هو لمسيح عليه السلام ! . .
إلى آخر هذه العميات في هذه الدروب !

مثل هذا يقلد عمن يتعامل مع « الطبيعة » التى لا تسمع ولا تصر ، ولا تنهى
ولا تأمر ، ولا تعذب عباده بفصيلة ولا عمل ، ولا تنههم عن رذيلة ولا خلق !
فأبى يستقيم هؤلاء العباد على صريح أو طريق ؟ وأبى يستقيم لهم عقل أو قلب ،
وهم لا يعمدون من حقيقة إلههم ذلك شيئاً مستقيماً على الإطلاق ، وهم كل يوم على
موقع لكشف شيء عنه جديد ، ولمعرفة صفة أو طبع لم يكونوا يعرفونه . ولا يعرفونه
إلا بالمصادفة أو بالتجريب !

وعلى هذا النحو نستطيع أن نمضى في ستعراض أحوال مع سائر التصورات التى
سنزك عرضها في فصل « تبه وركام » في أول هذا البحث . وفي الفصول المتفرقة
بعد ذلك . وكلها لا يمكن أن نوحى لأصحابها بصط ولا استقامة في تصور أو في
نسوك . كما أبى جميعاً تنسم بالعموص والتعقيد والتحليط .

ومن ثم كان أول ما يستشعره القلب والعقل أمام العقيدة الإسلامية ، هو
الاستقامة والبساطة والوضوح . وهذه هى السمة التى تجتذب الأفراد الذين
يدخلون في هذا الدين من الأوربيين والأمريكيين المعاصرين . فيتحدثون عنها ،
يوصفها أول ما طرق جبههم من هذا الدين . وهى ذاتها السمة التى تجتذب البدائين
في أفريقيا وآسيا في القديم والحديث . . لأنها سمة الفطرة التى يشترك فيها الناس
أجمعين متحضرين وبدنيين

* * *

وإن هذا التصور يكمل تجمع الشخصية والطاقة في كيان المسم الفرد والجماعة ،
ويهي التمرق والانقسام والتدد ، التي تسبب العقائد والتصورات الأخرى
والكيونة الإنسانية - التي هي وحدة في أصل خلقتها . تواجه ألوهية واحدة
تتعامل معها في كل نشاطها . تتعامل مع هذه الألوهية اعتقاداً وشعوراً . وتتعامل
معها عادة واتجاهاً . وتتعامل معها تشريعاً وبطناً . وتتعامل معها في الدين
والأخرة أيضاً . . .

إنها لا تتوزع في الاعتقاد بأهة مختلفة أو عناصر مختلفة في الألوهية الواحدة ، أو
بقوى مختلفة بعضها داخل في حورة الإله وبعضها خارج عنه مصاد له ! أو بعوامل
مختلفة فيها م يقهر الإله ذاته ، وليس لها هي قنود يعرف فتعاهم معه ! أو بقوى
«الطبيعة» التي ليس لها كيان محدد ولا ناموس مفهوم !

وهي لا تتوزع في التوجه بالاعتقاد والشعور والعبادة إلى جهة . وتتلقى في نظام
الحياة الواقعية من جهة أخرى . إنها هي تتلقى من مصدر واحد في هذا وذلك ،
وتنفع ناموساً واحداً بحكم الصمير والشعور ، كما يحكم الحركة والعمل . وهو
ناموس لا يحكم الكيونة الإنسانية وحدها ، إنما يحكم الكون كله كدست
والكيونة الإنسانية حينما تتعامل مع هذا الكون تتعامل معه في ظل هذا الناموس
الواحد ، بلا توزع ولا تمرق كذلك في هذا المجال .

وهذا التجمع يشئ طاقة هائلة ، لا ينف في وجهها شيء . وهذا بعض أسرار
الخوارق التي أشاتب العقيدة الإسلامية في الحياة والتاريخ البشري . فمن هذا التصور
استثقت تلك الطاقة الموحدة التي صغت هذه الخوارق . الطاقة المتجمعة في
دائها ، المتجمعة كذلك مع الطاقات الكونية المتصاخة معها ، لأب تتجمع وإيها في
ناموس الواحد ، الملح إلى الألوهية الواحدة . كما بنا من قبل في أحدث عن
خاصية الشمول

* * *

ثم نحىء إلى الأثر المتعدد الذي يشئ لتصور الإسلامى في صمير المسم وفي
حياته ، وفي كين المجتمع المسم وفي نشاطه بخاصية التوحيد التي تتصممها ويقوم
عليها

إنه . . . تحرير الإنسان . . . أو هو بتعبير آخر . . . ميلاد الإنسان . . .

إن يوحد الألوهية ويفردها بخصائص الألوهية ، واشترك ما عدا الله ومن عده في العبودية وتجردهم من خصائص الألوهية ، فإن هذا معناه ومقتضاه ألا يتلقى الناس الشرائع في أمور حياتهم إلا من الله ، كما أنهم لا يتوجهون بالشعائر إلا لله توحيداً للسلطان الذي هو أحص خصائص الألوهية ، والذي لا يتازع الله فيه مؤمن ، ولا يجترئ عليه إلا كافر . . .

والنصوص القرآنية تؤكد هذا المعنى وتجده وتجرده . بما لا يدع مجالاً لشك فيه أو حذال .

« إن الحكم إلا لله . أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين انقسم » .

(يوسف . ٤)

« أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟ » (الشورى : ٢١)

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » (المائدة - ٤٤)

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » . (النساء . ٦٥)

ولا يفرق التصور الإسلامي - كما اسما - بين التوجه لله بالشعائر ، والتلقى منه في الشرائع . . . لا يفرق بينهما بوصفهما من مقتضيات توحيد الله ، وإفراده - سبحانه - بالألوهية . كما أنه لا يفرق بينهما في أن الحيدة عن أي منهما تخرج الذي يجيد من الإيمان والإسلام قطعاً . كما رأيت في النصوص السابقة . . . وكما يشتهى نص قرآني يجمع بين المعين وتفسير الرسول - صلى الله عليه وسلم - هذا النص

« اتخذوا أحوارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله - والمسيح ابن مريم - وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ، لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون »

(التوبة : ٣١)

فأهل الكتاب الذين تحدث عنهم هذه الآية ، اتخذوا المسيح ابن مريم رباً بمعنى ربوبية العبادة والشعائر ، واتخذوا أحوارهم ورهبانهم أرباباً - لا عهد المعنى ولكن بمعنى التلقى عنهم في الشرائع والأوامر - ولكن الآلة جمعت بين اتخاذهم

المسيح رباً واتخاذهم الأحيار والرهبان أرباباً . وقررت أن هذا كله مخالف لما أمروا به من عبادة إله واحد . ودمغتهم بالشرك بسبب اتخاذهم الأحيار والرهبان أرباباً للتشريع . . ولهذا دلالة التي لا تقبل الجدل .

ثم جاء تفسير الرسول - صلى الله عليه وسلم - للآية قاطعاً في هذا الاعتبار وفوق كل جدال :

روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير - من طرق - عن عدي بن حاتم - رضى الله عنه - أنه لما بلغته دعوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فر إلى الشام . وكان قد تنصر في الجاهلية . فأُسرَت أخته وجماعة من قومه . ثم من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أخته وأعطاهما . فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام ، وفي القدوم على رسول - صلى الله عليه وسلم - فقدم عدي إلى المدينة - وكان رئيساً في قومه طيئ - فتحدث الناس بقدومه . فدخل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفي عنقه (أى عدي) صليب من فضة . وهو (أى النبي صلى الله عليه وسلم) يقرأ هذه الآية : « اتخذوا أحيارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » . . قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم . فقال : « بلى ! إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم . فذلك عبادتهم إياهم » . .

وقال السدي في تفسير ذلك : استنصحو الرجال ، ونبدوا كتاب الله وراء ظهورهم . ولهذا قال تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً » أى : الذى إذا حرم الشيء فهو الحرام ، وما حلله فهو الحلال ، وما شرعه اتبع ، وما حكم به نفذ . . . والتصور الإسلامى بهذا القطع الحاسم في هذه المسألة يعلن « تحرير الإنسان » بل يعلن . . ميلاد الإنسان . .

إنه بهذا الإعلان يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . « والإنسان » بمعناه الكامل لا يوجد في الأرض ، إلا يوم تتحرر رقبته ، وتتحرر حياته ، من سلطان العباد - في أية صورة من الصور - كما يتحرر ضميره واعتقاده من هذا السلطان سواء .

والإسلام - وحده - يرد أمر التشريع والحاكمية لله وحده - هو الذى يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده .

إن الناس في جميع الأنظمة التي يتولى التشريع والحاكمة فيها البشر - في صورة من الصور - يقعون في عبودية العباد . . . وفي الإسلام - وحده - يتحررون من هذه العبودية للعباد بعبوديتهم لله وحده .

وهذا هو « تحرير الإنسان » في حقيقته الكبيرة . . . وهذا - من ثم - هو « ميلاد الإنسان » . . . فقبل ذلك لا يكون للإنسان وجوده « الإنساني » الكامل ، بمعناه الكبير ، الوحيد . . .

. . . وهذه هي الهدية الربانية التي يهديها للناس في الأرض بعقيدة التوحيد . . . وهذه هي النعمة الإلهية التي يمن الله بها على عباده وهو يقول لهم : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » . . . وهذه هي الهدية التي يملك أصحاب عقيدة التوحيد أن يهدوها - بدورهم - للبشرية كلها . وهذه هي النعمة التي يملكون أن يفيضوا منها على الناس ، بعد أن يفيضوها على أنفسهم ، ويرضوا منها ما رضى الله لهم .

وهذا هو الجديد الذي يملك أصحاب عقيدة التوحيد أن يتقدموا به للبشرية اليوم ، كما تقدم به أسلافهم بالأمس فتلقته البشرية يومها كما تتلقى الجديد . ولم تستطع أن تقاوم جاذبيته لأنه يمنحها ما لا تملك ، فهو شيء آخر غير كل ما لديها من تصورات وعقائد ، وأفكار وفلسفات ، وأنظمة وأوضاع . . . بكل تأكيد . . .

لقد قال رباعي بن عامر رسول جيش المسلمين إلى رستم قائد الفرس ، وهو يسأله ما الذي جاء بكم ؟ كلمات قلائل تصور طبيعة هذه العقيدة ، وطبيعة الحركة الإسلامية التي انبثقت منها ، كما تصور طبيعة تصور أهلها لها ، وإدراكهم لحقيقة دورهم بها . . .

قال له : « الله ابتعثنا ، لنخرج من شاء ، من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة . ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » . وفي هذه الكلمات القلائل تتركز قاعدة هذه العقيدة ، وتتجلى طبيعة الحركة الإسلامية التي انبثقت منها ، وانطلقت بها . . .

إنها إخراج من شاء الله من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . . . ورد أمرهم إلى الله - وحده - في المحيا والممات ، في الدنيا والآخرة . وإفراد الله سبحانه بالألوهية

وبخصائص الألوهية - والسلطان والحاكمة والتشريع ، هي أولى هذه الخصائص التي لا ينازع الله فيها مؤمن ، ولا يجروء على منازعته إياها إلا كافر - ولا توجد حرية للإنسان ، بل لا يوجد « الإنسان » ذاته ، إلا بخلوصها لله

وأصحاب عقيدة التوحيد - حين يفيثون اليوم إليها ، وحين يرفعون رايتها وحدها - بملكون أن يقولوا للبشرية كلها ما قاله ربى بن عامر - فالبشرية - من هذه الناحية - اليوم كما كانت يوم قال ربى بن عامر كلمته . . إنها كلها غارقة في عبادة العباد ، والتوحيد - بمعناه الشامل - هو الذى يخرج من شاء الله من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . وبذلك وحده « يتحرر الإنسان » بل « يولد الإنسان » .

وأصحاب عقيدة التوحيد - حين يفيثون إلى منهج الله الذى من به عليهم وينادون به - يملكون أن يتقدموا للبشرية بالشىء الذى تفقده جميع المناهج والمذاهب والأنظمة والأوضاع فى الأرض كلها بلا استثناء . ومن ثم يكون لهم اليوم وغدا دور جديد ، دور عالمى إنسانى كبير . ودور قيادى أصيل فى التيارات العالمية الإنسانية . دور يمنحهم سبباً وجيهاً للوجود العالمى الإنسانى - كالدور الذى منح العرب الأميين فى الجزيرة العربية ، سبباً وجيهاً للوجود العالمى الإنسانى ، وللقيادة العالمية الإنسانية .

إنهم لا يملكون أن يقدموا للبشرية اليوم أمجاداً علمية ، ولا فتوحات حضارية ، يبلغ من ضخامتها أن تتفوق تفرقاً ساحقاً على كل مالى البشرية منها . . ولكنهم يملكون أن يقدموا لها شيئاً آخر . شيئاً أعظم من كل الأبحاث العلمية ، والفتوحات الحضارية . إنهم يقدمون « تحرير الإنسان » بل « ميلاد الإنسان » . .

وهم حين يقدمون للبشرية هذه الهدية يقدمون معها منهجاً كاملاً للحياة منهجاً يقوم على تكريم الإنسان ، وعلى إطلاق يده وعقله وضميره وروحه من كل عبودية إطلاقه بكل طاقاته لينهض بالخلافة وهو حر كريم ، يملك إذن أن يقدم وأن يقوم الأبحاث العلمية ، والفتوحات الحضارية ، وهو فى أوج حريره ، وفى أوج كرامته ، فلا يكون عبداً للآلة ، ولا عبداً للبشر . . على السواء .

ألهنا الله السداد .

والحمد لله رب العالمين .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
كلمة في المنهج	٥
تیه وركام	٢٣
خصائص التصور الإسلامی	٤١
الربانية	٤٥
الثبات	٧٥
الشمول	٩٥
التوازن	١١٩
الإيجابية	١٥١
الواقعية	١٦٩
التوحيد	١٨٩

رقم الإیباع : ٨٨ / ٧٦٢٣

ترقیم دولی : ٧ - ٢٨٠ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سیوه العربی - مد : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ١٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

بیروت : ضی : مد : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٢٠١)